دراســـات
فى
الأدب الحديث

الدكتــور
السيد محمد الديـب

الطبعة الثانية
١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م
الطبعة الثانية ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

لقد تأثر الأدب العربى الحديثِ بالآداب العالمية، خاصة بعد أن اتصل الشرق بالغرب بالطرق المتعددة وبالوسائل المستحدثة ، فى سنوات القرن العشرين، حيث أخذ وميض الأدب يبرق فى سائر الأنحاء، وذلك بعد أن كثرت البعثات إلى أوربا، ونزح بعض أبناء الضاد إلى المهاجر الأمريكية، ونشطت حركة الترجمة، وتقدمت جهود طبع التراث ونشره ؛ لتحقيق المزيد من الاستفادة به، وإعادة قراءته، وتقديمه برؤى جديدة، لم يكن للقدماء دراية ولا علم بها ، وجاء إحياء التراث ونشره انطلاقا من القراءة الجادة لشعراء العربية الكبار فى أزمنة الجاهليين والأمويين والعباسيين، الذين كانوا منارات هادية لمن سار على دربهم ، وجدد فى مضامينهم وأساليبهم وصورهم وأخيلتهم وأفكارهم، وطرق الأداء الموسيقى لديهم .

وسوف يطالع القارئ فى بداية هذا الكتاب ثلاث قصائد لشعراء بارزين فى العصر الحديث، ثم يأتى بعدها عدد من القصائد دون أن نقدم لها شرحا أو تحليلا موسعا؛ حتى أتيح الفرصة للمتلقى أن يتعرف عليها بنفسه، وهى لأبىالقاسم الشابى (من تونس) وإيليا أبىماضى (لبنانى مهاجر إلى أمريكا) ومعروف الرصافى (عراقى) وهاشم الرفاعى (من أنشاص بالشرقية) ومحمود حسن إسماعيل (من النخيلة بأسيوط).

أما حديث النثر فعن القصـــة القصـــيرة والروايـــة والمســـرحية والتراجم الأدبية والمقال، وهى بمجموعها تعبر عن جوانب من الحياة الأدبية فى العصر الحديث ، مع أننى موقن أن هذه الاختيارات لا تقدم صورة كاملة للعصر ، لكن ذلك بعض ما تيسر لنا فى المدة القصـــيرة التى أنجزنا فيها هذه الموضوعات، وأدعو المولى سبحانه وتعـــالى أن يوفقنا إلى إعادة القراءة والبحث والكتابة للوصول إلى الرؤية الصائبة فى هذه القضايا ، والله الموفق والهادى إلى سواء السبيل.

أ.د/ السيد محمد الديب

وكيل كلية اللغة العربية

جامعة الأزهر ـــ فرع الزقازيق

السبت ٣ من محرم سنة ١٤٢٦هـ
١٢ من فبراير سنة ٢٠٠٥م

محمود سامى البارودى
رائد مدرسة البعث والإحياء

ولد الشاعر محمود سامى البارودى فى القــاهرة عــام ١٨٣٩م (١٢٥٥هـــ) لأبوين من الجراكسة، ولقب بالبارودى نسبة إلى (إيتــاى البارود) بالبحيرة، والتى كان أحد أجداده ملتزما لها، وتوفى والده وهو فى السابعة مع عمره، فعاش فى معية أحد أقاربه، وتخــرج المدرســة الحربية عام ١٨٥٤م (١٢٧١هــ) ، وعرف برب السيف والقلم، لأنــه كان ضابطا فى الجيش، وشاعرا وصل إلى أرقى مكانة بــين شــعراء عصره، واقتفى أثر المجيدين من الشعراء العرب مثل امــرئ القــيس وابن المعتز، والشريف الرضى وأبى فراس وغيرهم ، وكانت حياتــه مليئة بالأحداث الجسام ، شأنها فى ذلك شأن تلك الفتــرة مــن تــاريخ مصر.

والتحق بعد تخرجه من المدرسة الحربية بوزارة الخارجية ، ثــم سافر إلى الأستانة، وعاد إلى وطنه فى عهد إسماعيل (باشا) وهو فــى الرابعة والعشرين من عمره ، ثم عمل بالجيش ، وترقى فى مراتبــه، وسافر إلى انجلترا وفرنسا، وشارك فى حمــلات الجــيش المصــرى العسكرية ، وتنقل بين عدة مناصب انتهت به إلى المشاركة فى الحركة القومية ، ووجد نفسه موزعا بين ولائه للخديو توفيق وولائه لمصــر، فلما قامت ثورة عرابى لم يكن فى الصفوف الأولى، واعتبر بســكوته عليها مشاركا فيها، فقبض عليه وصدر بحقه حكم بالإعدام ، ثم خفــف

إلى النفى خارج مصر ، ورحل إلى جزيرة سيلان (سرنديب) [١] وبقى فيها سبعة عشر عاما حتى ضعفت صحته، وذوى بصره، فخفف الحكم عليه، وعاد إلى مصر عام ١٩٠٠م ، وقد كف بصره، واستمر هتافــه بالشعر دون أن يفقد حاسته الفنية وموهبته الخلاقة المبدعة ، حتى مات فى ديسمبر عام ١٩٠٤م (١٣٢٢هـ) •

أما موهبته الشعرية فلا حدود لها، ويكفى أن يكون المؤثر الأول لنهضة الشعر العربى فى العصر الحديث، كما كـان رائـدا لمدرسـة الإحياء والبعث، أى إحياء الشعر العربى الجزل الأصيل، وبعثه مـن مرقده ، حتى يردده الناس، ويتخلوا عن النماذج المتكلفة الممجوجـة، والتى انصرف القراء عنها، ولم يعد لها قيمة عندهم •

وقد قال البارودى فى سائر الأغراض الشـعرية، وصـار فنـه نموذجا للشعراء الشباب فى عصره، والذين نسجوا على منواله وتابعوا تجديداته، وبخاصة أحمد شوقى وحافظ إبراهيم "•

وقال عند ورود نعى ابنته إليه فى المنفى ولم يستطع البكاء مـن غلبة الحزن عليه . فلم يزد فى رثائها عن هذين البيتين ، قـال (من الوافر) :

فزِعت إلى الدموع فلـم تجبنـى ∴ وفقدُ الدمع عنـد الحـزن داءُ
وما قصرت فـى جـَزَعٍ ولكـن ∴ إذا غلب الأسى ذهبَ البكـاء[٢]

---

(١) الديوان تحقيق وشرح على الجارم ومحمد شفيق معروف جـ١ صـ٨١ •
(٢) المصدر السابق •

وقال من الطويل:

ومن تكن العلياء همــةَ نفســه ∴ فكل الذى يلقاه فيهــا محبــب

إذا أنا لم أُعط المكــارمَ حقهــا ∴ فلاعزنى خال، ولاضمنى أب(١)

وقال وهو فى سرنديب من البسيط :

لكل دمع جرى من مُقلةٍ ســببُ ∴ وكيف يملك دمع العين مكتئب

لولا مُكابدةُ الأشواق مــا دمعــت ∴ عين،ولابات قلب فى الحشا يَجِبُ(٢)

وقال من الطويل:

ألا يا حمامَ الأيكِ إلفُــك حاضــرٌ ∴ وغصنك ميــاد ففــيم تنــوح؟

غَدَوْتَ سليما فى نعيم وغبطــة ∴ ولكنّ قلبــى بــالغرام جــريح

فإن كنتَ لى عونا على الشوق فاستعر ∴ لعينيــك دمعــا فالبكــاء مــريح

وإلا فدعنى من هديلك،وانصرف ∴ فليس سواء باذل وشــحيح(٣)

وقال فى وصف الربيع من الكامل :

رف النــدى، وتــنفس النــّوار ∴ وتكلمــت بلغاتهــا الأطيــار

وتأرجحت سُرَرُ البطــاح كأنمــا ∴ فى بطن كــل قــرارة عطــار

زهرٌ يرِف على الغصون وطائر ∴ غَرِدٌ الهدير وجدول زخّــار(٤)

---

(١) الديوان جـ١ صـ٩٠ .
(٢) الديوان جـ١ صـ١١٠ .
(٣) الديوان جـ١ صـ١٧٢ .
(٤) الديوان جـ٢ صـ٧٧ .

وقال سبعة وستين بيتا من الطويل بعد أن استقر فى سـرنديب، وقد رأى ابنته الوسطى (سميرة) فى المنام، وأولها :

تأوب طيف من سـميرة زائـر ∴ وما الطيف إلا ما تريه الخـواطر

ومنها :

فإن تكن الأيـام فـرقن بيننـا ∴ فكل امرئ يوما إلى الله صائر

هى الدار ما الأنفاس إلا نهائـبٌ ∴ لديها وما الأجسام إلا عقـائر

إذا أحسنت يوما أساءت ضـحى غَـدٍ ∴ فإحسانها سيف على الناس جائر(١)

وقال من البسط :

ردوا على الصبا من عَصْرِىَ الخـالى ∴ وهل يعود سوادُ اللِّمَّةِ البـالى(٢)

وقال من الطويل :

مَحَا البينُ ما أبقتْ عيونُ المها منى ∴ فشِبْتُ ولم أقض اللُّبانةَ من سنِّى(٣)

---

(١) الديوان جـ٢ صـ٨٧ .
(٢) الديوان جـ٣ صـ٩٣ .
(٣) الديوان جـ٤ صـ٣ .

قصيدة البارودى فى رثاء زوجته

ونعود إلى الدالية الشهيرة (٦٧ بيتا) وهى موطن الحديث هنا فقد رثى بها زوجته (عديلة يكن) بنت أحمد يكن باشا، وهى الزوجة الثانية لمحمود سامى البارودى، وقد تزوجها ، وعمرها تسع عشرة سنة، وكان فى الثامنة والعشرين عام (١٨٦٧م) ووصل إليه نعيها وهو بسرنديب عام ١٨٨٣م .

وتعد من المراثى الباكيات الباقيات نظرا لقلة من رثى زوجته من الرجال وهى من الكامل وأولها :

أيَدَ المنون قَدَحْتِ أى زناد .·. وأطرتِ أية شعلة بفؤادى

وقد قالها فى المنفى [١] بسرنديب[٢] وهى جزيرة سيلان .

أما "عديلة يكن " فكانت نعم الزوجة المخلصة الوفية التى ضربت المثل فى الإخلاص للزوج ، وقدمت كل ما تملك فى الدفاع عن زوجها أثناء المحاكمة، ويبدو أن همتها لم تقو على ابتعاد الزوج، فماتت فى العام التالى لسفره، وقد كتب عنها أستاذنا الدكتور " محمد رجب البيومى" كلمة متميزة أحب أن أثبتها هنا إعجابا بها وتقديرا لهذه الزوجة التى بكى عليها زوجها أحر بكاء ورثاها بقصيدة من عيون الشعر العربى الخالد .

---

(١) وفى أواخر عام ١٨٨٥م تزوج فى المنفى ابنة زميله فى الجهاد والنفى اللواء يعقوب سامى .

(٢) جزيرة كبيرة بالمحيط الهندى فى الجنوب الشرقى للهند وقد نفى إليها هو وستة من قادة الثورة العرابية بعد فشلها، وسافر فى ديسمبر عام ١٨٨٢م.

قال : "أما الثانية[١] فالأميرة النبيلة عديلة يكن زوجة الشاعر الفارس محمود سامى البارودى ، فقد كانت تماثله نبلا ومروءة وهمة، وقد جزعت أشد الجزع حين فشلت الثورة العرابية، وهو من زعمائها البارزين، وشكلت هيئة المحكمة من قضاة يضمرون الشر كل الشر لزعماء الأمة الأحرار ، ثم اختارت المحكمة للدفاع عن البارودى محاميا مغمورا لا يرتفع إلى مستوى القضية، فتأكدت الزوجة أن الأمر مدبر بليل، ولابد من اختيار أعظم محام انجليزى كبير ، لا يتأثر بغير الحق، ولا يهاب المسئولين فى شئ، ووقع اختيارها على المستر برودلى، وله صيته المدوى فى مجالس القضاء ...... ثم سعت حتى صدر الأمر لهذا المحامى بأن يتولى الدفاع عن البارودى.

يقول المستر برودلى فى مذكراته : لقد تأثرت كثيرا بما شاهدته من إخلاص الزوجة التى باعت حليها وجواهرها، ولبست السواد من رأسها إلى قدميها، وحين قابلتُ البارودى بعد تعيينى مدافعا عنه ذكرتُ له ذلك فتأثر تأثرا شديدا، وكتب بيده خطابا يحمل أسمى عبارات التقدير والامتنان، وحين حُدِّد ميعاد السفر خرج المصريون والمصريات آلافا يودعون الزعماء، وكانت الزوجة فى الصف الأول، وقد فقدت ثباتها حين همت الباخرة بالرحيل فصرخت باكية، ووقعت على الأرض ضعفا حتى رحمها الناس "[٢].

---

(١) أى الزوجة الثانية .
(٢) جريدة صوت الأزهر العدد ٢٧٩ فى ٢٨ يناير ٢٠٠٥م.

(القصيدة)

قال (*) :

- ١ -

١ - أيدَ المَنُون قَدَحْتِ أى زِنادِ .·. وأطرتِ أية شعلة بفؤادى[١]

٢ - أوهنت عزمى وهو حملة فيلق .·. وحَطَمْتِ عودى وهو رمح طراد[٢]

٣ - لم أدر هل خطب ألم بساحتى .·. فأناخ، أم سهم أصاب سوادى[٣]

٤ - أقذى العيونَ فأسبلت بمدامعٍ .·. تجرى على الخدين كالفِرْصَاد[٤]

٥ - ما كنت أحسبنى أُراعُ لحادث .·. حتى مُنيت به فأوهن آدى[٥]

٦ - أبلتنىَ الحسرات حتى لم يكد .·. جسمى يلوح لأعينِ العُوَّاد[٦]

(*) الديوان جـ١ صـ٢٣٧ والمختار من شعر محمود سامى البارودى صـ١٣٢ .

(١) الهمزة للاستفهام ، المنون: الموت، القدح : ضرب أحد الزندين بالآخر لإخراج النار منهما . الزناد : جمع زند وهو الحديدة التى تقدح بها النار وقدح الزند : أوراه . الشعلة: لهب النار .

(٢) عزمى : إرادتى ، الحملة: الكرة فى الحرب، الفيلق: الجيش، حطمت: كسرت، عودى: المراد جسمى ، طراد: مطاردة .

(٣) خطب : نازلة شديدة (مصيبة)، الساحة : الموضع المتسع أمام الدار.أناخ: استقر ، السهم: ما رمى به الصائد عن القوس ، سوادى (سواد القلب) صبته كسويدائه.

(٤) أقذى العيون أى الخطب: جعل فيها القذى. أسبلت العيون الدمع : أرسلته متتابعا، المدامع: المآقى . الفرصاد : صبغ أحمر.

(٥) أحسبنى: أظننى، أراع: أفزع، منيت: ابتليت، الآد : القوة .

(٦) أبلتنى: أنحلتنى، الحسرات: التلهف على الشئ المنقضى ، يلوح: يظهر، العواد: زوار المريض.

٧ – أستنجد الزفرات وهـي لـوافح :. وأسفه العبرات وهيَ بوادى[١]

- ٢ -

٨ – لا لوعتى تدع الفؤاد ولا يـدى :. تقوى على رد الحبيب الغـادى[٢]

٩ – يا دهر فيما فجعتنـى بحليلـة؟ :. كانت خُلاصة عدتى وعتادى[٣]

١٠ – إن كنت لم ترحم ضناى لبعدها :. أفلا رحمت من الأسـى أولادى[٤]

١١ – أفردتهن فلـم يـنمن توجعـا :. قرحى العيون رواجفَ الأكباد[٥]

١٢ – ألقين در عقودهن، وصُغْنَ من :. در الدموع قلائـد الأجيـاد[٦]

١٣ – يبكين من ولـهٍ فـراق حَفيَّـةٍ :. كانت لهن كثيـرة الإسـعاد[٧]

١٤ – فخدودهن من الـدموع نديـة :. وقلوبهن من الهموم صوادى[٨]

---

(١) الزفرات: إخراج الأنفاس طويلة ممتدة، لوافح: محرقـة . أسـفه العبرات : أنسبها إلى السفه: وهو الجهل والطيش . العبرات: جمـع عبرة . وهى الدمعة، بوادى : جمع بادية أى ظاهرة ٠

(٢) اللوعة : الحزن ، الغادى : الذاهب فى أول النهار ٠

(٣) فجعه : أوجعه، حليلة: زوجة، خلاصة الشئ: ما خلص منه العدة والعتاد: ما يعده الإنسان لمقاومة حوادث الدهر ٠

(٤) ضناى : مرضى ، الأسى : الحزن ٠

(٥) أفردتهن: الحديث للدهر، والضمير للأولاد، توجعا : تألما ٠

(٦) الدر : جمع درة وهى اللؤلؤة العظيمة ، العقود: جمع عقد وهـو القلادة، الأجياد : جمع جيد وهو العنق ٠

(٧) الوله : الحزن، الحفية: كثيرة الفرح باللقاء ، الإسعاد: جعل الآخر سعيدا أو معاونته ليكون كذلك ٠

(٨) ندية : مبتلة ، صواد: جمع صاد أى عطشان ٠

١٥- أسليلة القمـــرين! أىُّ فجيعـــة ∴ حلت لفقدك بين هذا النـــادى[١]

١٦- أعزز علىَّ بـــأن أراك رهينـــة ∴ فى جوف أغبر قاتمِ الأسداد[٢]

١٧- أو أن تبينى عن قرارة منـــزل ∴ كنتِ الضياء له بكل ســـواد[٣]

١٨- لو كان هذا الدهر يقبـــل فديـــة ∴ بالنفس عنك لكنت أول فادى[٤]

١٩- أو كان يرهب صولة من فاتـــك ∴ لفعلتُ فعل الحارث بنِ عُبَادِ[٥]

٢٠- لكنها الأقـــدار لـــيس بنـــاجع ∴ فيها سوى التسليم والإخلاد[٦]

٢١- فبأى مَقْـــدُرةٍ أرد يـــد الأســـى ∴ عنى،وقدمَلَكَتْ عِنَانَ رشادى[٧]

٢٢- أفأستعين الصبر وهو قســـاوة؟ ∴ أم أصحب السُّلوانَ وهو تعادى[٨]

---

(١) سليلة : أنثى ، القمران: الشمس والقمر، وارد أبويهـــا فجيعـــة : مصيبة، حلت: نزلت، والمراد من هذا النادى أهله وعشيرته .

(٢) أعزز على: صعب، رهينة : محبوسة ، فى جوف أغبـــر: قبـــر، قاتم: أسود ، الأسداد: جمع سد وهو حاجز بين شيئين . والمـــراد: الجدران .

(٣) البين: الفراق ، قرار : ما سكن فيه الإنسان، السواد: الظلام .

(٤) الفداء ما يعطيه الشخص لينقذ به، والفدية: الشئ المعطى .

(٥) يرهب : يخاف، الصولة: الســـطوة ، فاتـــك: جـــرئ وشـــجاع ، الحارث بن عباد: من سادات العـــرب وشـــعرائهم وأبطـــالهم فـــى الجاهلية .

(٦) الأقدار : جمع قدر وهو القضاء، ناجع: نافع، التسليم: الرضـــى، الإخلاد : السكون والاطمئنان .

(٧) المقدرة : القدرة ، الأسى : الحزن، عنان : سير الدابة الذى تمسك به، الرشاد: الهدى والصلاح .

(٨) القساوة: القسوة، السلوان : الصبر والنسيان، التعادى : التباعد .

٢٣- جَزَعُ الفتى سمة الوفاء وصبره .·. غدْرٌ يَدُلُّ به علـى الأحقـاد[١]

٢٤- ومن البلية أن يُسام أخو الأسى .·. رَعْيَ التجلد وهو غير جَمَاد[٢]

٢٥- هيهات بعدك أن تقر جـوانحى .·. أسفا لبعدك أو يلينَ مهـادى[٣]

٢٦- وَلَهِى عليك مصاحب لمسيرتى .·. والدمع فيك ملازم لوسـادى[٤]

٢٧- فإذا انتبهت فأنت أول ذُكْرَتِـى .·. وإذا أويت فأنت آخـر زادى[٥]

٢٨- أمسيت بعدك عِبْرَةً لذوى الأسـى .·. فى يوم كل مصيبة وحـداد[٦]

٢٩- متخشعا أمشى الضـراء، كـأننى .·. أخشى الفجاءة من صيال أعـادى[٧]

٣٠- ما بين حزن باطن أكل الحشـا .·. بنهيب سَوْرَتِهِ وسَقَم بـادى[٨]

---

(١) الجزع: ضد الصبر ، الوفاء: ضد الغدر ، الأحقاد: جمع حقـد وهـو الضغن ·

(٢) البلية : المصيبة ، أن يسام: أن يكلف ويلزم ، رعى: مراعاة ، التجلد: الصبر، ورعى التجلد : المحافظة على الصبر ·

(٣) هيهات : بعد ، الجوانح : أضلاع الصدر، الأسـف : أشـد الحـزن، المهاد: الفراش ·

(٤) الوله: الحزن، المسيرة: السير، ويراد بالمسيرة : يقظة النهار ، الوساد أى الوسادة وهى المتكأ ·

(٥) الذكرة: ضد النسيان، أويت: سكنت وأقمت، آخر زادى: أى أنه يخـتم نهاره بذكرها ·

(٦) العبرة : الاتعاظ، ذوو الأسى: المحزونون ، الحداد: مقاطعـة الزينـة وإظهار الحزن ·

(٧) متخشعا: متضرعا متذللا. أمشى الضراء : أمشى متخفيا ، الفجـاءة : المفاجئة والمباغتة . الصيال: الهجوم ·

(٨) حزن باطن: خفى، الحشا: ما اشتملت عليه الضلوع، سورة الحـزن: شدته وسقم باء : مرض ظاهر ·

٣١- ورد البريد بغير ما أملته ∴ تعس البريد،وشاه وجه الحادى[١]

٣٢- فسقطت مغشيا علىَّ كأنما ∴ نَهَشَتْ صميم القلب حية وادى[٢]

٣٣- وَيْلُمِّهِ رُزءا أطار نعيُّه ∴ بالقلب شعلةَ مارج وقاد[٣]

٣٤- قد أظلمت منه العيون كأنما ∴ كَحَلَ البكاءُ جفونها بقتاد[٤]

٣٥- عظمت مصيبته علىَّ بقدر ما ∴ عظمت لدىَّ شماتة الحساد[٥]

٣٦- لاموا على جزعى، ولما يعلموا ∴ أن الملامة لا تَـرُدُّ قِيادى[٦]

٣٧- فلئن لبيدُ قضى بحول كامل ∴ فى الحزن،فهو قضاءُ غير جَواد[٧]

---

(١) ورد : حضر ، أملته: رجوته، تعس: هلك، شاه: قبح ، الحادى: القائد للإبل الذى يحثها على السير بالغناء لها .

(٢) مغشيا على : مغميا على ، نهشته الحية: لسعته، صميم القلب: وسطه، الوادى: منفذ السيل بين الجبال ، حية الوادى: أخبث الحيات

(٣) ويلمه: أى ويل لأمه، وهى كلمة عذاب، الرزء: المصيبة، نعيه: المخبر بالحزن ، الشعلة: لهب النار، المارج: النار لا دخان لها. وقاد : صيغة مبالغة من وقد أى اشتعلت النار .

(٤) منه : من الرزء : كحل عينه: وضع فيها الكحل ، الجفون: جمع جفن وهو غطاء العين من أعلاها وأسفلها، القتاد: شجر صلب له شوك كالإبر .

(٥) مصيبته: مصيبة الرزء ، لدى: عندى، الشماتة: الفرح ببلية العدو .

(٦) لامه : عذله، الجزع: ضد الصبر ، القياد: حبل تقاد به الدابة .

(٧) لبيد شاعر جاهلى ـــ رثته ابنتاه عاما كاملا دون أن تندباه . غير جواد: غير كريم .

٣٨- لَبِس الزمان على اختلاف صروفه ∴ دولا ، وفل عرائــك الآبــاد[١]

٣٩- كم بين عــادِيّ تملــى عُمْــرُه ∴ حقبا، وبين حديثة المــيلاد[٢]

٤٠- هذا قضى وطرَ الحياة وتلك لم ∴ تبلغ شبيبة عمرها المعتــادِ[٣]

٤١- فعلام أتْبَعُ ما يقــول؟ وحكمــه ∴ لا يستوى لتبــاينُ الأضــداد[٤]

٤٢- سِرْ يا نسيمُ فبلغ القبر الــذى ∴ بِحَمَى الإمام، تحيتى ووِدادى[٥]

٤٣- أخْبِرْهُ أنى بعــده فــى مَعْشَــرٍ ∴ يستجلبون صلاحهم بفسادى[٦]

٤٤- طبعوا على حسد، فأنت تراهمُ ∴ مرضى القلوب أصحة الأجساد[٧]

٤٥- ولوَ أنهم علموا خبيئة ما طوى ∴ لهم الردى ؛ لم يقدحوا بزناد[٨]

---

(١) لبس الزمان : تملى به ، صروف الزمان : أحداثه ، الدول : جمع دولة وهى انقلاب الزمان، فل: كسر، العرائك: الطبيعة أو الــنفس، الأباد: جمع أبد، وهو الدهر .

(٢) عادى : قديم معمر ، تملى عمره: استمتع به، حقبا: سنين كثيــرة، حديثة الميلاد : يقصد زوجته ، الميلاد: وقت الولادة .

(٣) الوطر : الحاجة، الشبيبة : الحداثة .

(٤) لا يستوى: لا يستقيم، التباين: التباعد، الاضداد: جمع ضد وهــو المخالف.

(٥) بحمى الإمام ، الحمى فى الاصل : المكان الــذى لا يقــرب ولا يجترأ عليه والمراد يحمى الإمام:مقبرة الإمام الشافعى، بلغ القبــر: من فيه، ويريد زوجه.

(٦) أخبره : أخبر القبر، المعشر: الجماعة من الناس .

(٧) طبعوا على حسد : أى فطروا عليه .

(٨) الخبيئة: ما خبئ وغاب، طوى، أخفى الردى : الهلاك، قدح الزند : أخرج به النار، الزناد: وهو الحديدة التى تقدح بها النار.

- ٣ -

٤٦- كل امرئ يوما ملاق ربه ∴ والناس فى الدنيا على ميعاد[١]

٤٧- وكفى بعادية الحوادث منذرا ∴ للغافلين، لو اكتفوْا بعوادى[٢]

٤٨- فلينظرِ الإنسان نظرة عاقل ∴ لمصارع الآباء والأجداد[٣]

٤٩- عصف الزمان بهم، فبدد شملهم ∴ فى الأرض بين تهائمٍ ونِجاد[٤]

٥٠- دَهْرٌ كأنا من جرائر سلمه ∴ فى حر يومِ كريهة وجِلاد[٥]

٥١- أفنى الجبابر من مَقَاوِلِ حمير ∴ وأُولِى الزعامة من ثمودَ وعاد[٦]

٥٢- ورَمَى قضاعةَ فاستباح ديارها ∴ بالسخط من سابورَ ذى الأجناد[٧]

٥٣- وأصاب عن عرض (إيادَ) فأصبحت ∴ منكوسة الأعلام فى سِنْدَاد[٨]

---

(١) يعيش الناس فى الدنيا إلى أجل محدد .

(٢) عادية الحوادث : شرها .

(٣) مصارع الأباء أمكنة موت الآباء .

(٤) بدد شملهم : فرقهم ، تهائم الأمكنة المنخفضة، والنجاد: الأمكنة المرتفعة.

(٥) جرائر :جمع جريرة وهى الجناية والذنب، الكريهة: الحرب، الجلاء: القتال.

(٦) أفنى: أى الدهر، الجبابر: جمع جبار، المقال : جمع مقول وهو الملك الزعامة : الرياسة والشرف، ثمود: قوم صالح، عاد : قوم هود .

(٧) رمى : أى الدهر ، قضاعة : قبيلة عربية (يمنية) وكانت تسكن شمالى الحجاز وجنوبى الشام . السخط: الغضب، سابور، أحد ملوك الفرس .

(٨) أصاب : أى الدهر، عرض: من غر مبالاة، إياد: إحدى القبائل العدنانية، منكوسة من نكس أى قلبه على رأس ، سنداد: منازل لإياد

٥٤- فسل المدائن فهى مَنْجَمُ عبــرة ∴ عما رأت من حاضر أو بــاد[١]

٥٥- كرت عليها الحادثات، فلم تدع ∴ إلا بقايــا أرسُــمٍ وعمــاد[٢]

٥٦- واعكُف على الهرمين،واسأل عنهما ∴ (بَلْهيبَ)فهو خطيب ذاك الــوادى[٣]

٥٧- تنبئك ألسنة الصُّموت بما جــرى ∴ فى الدهر من عَدَمٍ ومــن إيجــاد[٤]

٥٨- أمم خلت،فاستعجمت أخبارُهــا ∴ حتى غدت مجهولة الإســناد[٥]

٥٩- فعلام يخشى المرءُ صرعة يومه؟ ∴ أو لــيس أن حياتــه لنفــاد[٦]

٦٠- تَعِسَ امرؤ نَسِىَ المعاد،وما درى ∴ أن المنون إليــه بالمرصــاد[٧]

٦١- فاستهدِ يا(محمودُ)ربك والتمسْ ∴ منه المعونة،فهو نِعْمَ الهادى[٨]

---

(١) المدائن : مدينة على نهر دجلة جنوبى بغداد ، وكانــت حاضــرة الفرس قبل الإسلام منجم عبرة: مطلع اعتبار، حاضر : مقيم ، باد : مقيم بالبادية ٠

(٢) كرت: هجمت ، الأرسم: جمع رسم وهو الأثر ، العماد: الأبنيــة الرفيعة٠

(٣) اعكف على الشئ : أقبل عليه ـــ الهرمان، الملك خوفو، وخليفتــه الملك منقرع، بلهيب: أبو الهول، الوادى: المراد منه هنــا المكــان الذى يجمع هذا التمثال ٠

(٤) الصموت : مصدر صمت بمعنى سكت ٠

(٥) خلت: مضت ، استعجمت أخبارها، استبهمت وخفيــت، الإســناد: نسبة القول إلى صاحبه ٠

(٦) الصرعة : الهلكة ٠

(٧) تعس : عثر وســقط ، المعــاد : الآخــرة ، المنــون : المــوت، المرصاد: الطريق يرصد فيه العدو، وقعد له بالمرصاد: أى بطريق الارتقاب والانتظار ٠

(٨) استهديت الله : طلبت هدايته ، الالتماس : الطلب ٠

٦٢- واسأله مغفرة لمن حل الثــرى ∴ بالأمس،فهو مجيب كل مناد[١]

٦٣- هى مهجة ودعت يوم زِيَالِهــا ∴ نفسى،وعشتُ بحسرة وَبِعاد[٢]

٦٤- تالله ما جفت دمـــوعى بعــدما ∴ ذهب الردى بكِ يا ابنة الأمجـــاد[٣]

٦٥- لاتحسبينى ملت عنك مع الهــوى ∴ هيهات، ما ترْك الوفاء بعاد[٤]

٦٦- قد كدت أقضى حسرة لو لم أكن ∴ متوقعا لقياك يــوم مَعَــادى[٥]

٦٧- فعليكِ من قلبى التحيــة كلمـــا ∴ ناحت مطوقة على الأعـــواد[٦]

* * *

---

(١) حل : نزل ، الثرى : الأرض ، أو الأرض الندية •

(٢) المهجة : الروح ، الزيال : المفارقة، الحسرة: التأســف، البعـــاد: البعد أو التفرقة •

(٣) الردى : الهلاك ، الأمجاد جمع مجيد أو ماجد ، وهما صفتان من المجد وهو الكرم والعز •

(٤) الهوى ميل النفس إلى شهواتها، العاد: جمع عادة•

(٥) أقضى : أموت، توقعت: انتظرت حصوله، يــوم معـــادى: يــوم آخرته •

(٦) مطوقة : حمامة في عنقها ريش يخالف لونها . علـــى الأعـــواد: الأغصان•

الأفكار العامة

١ – تقوم هذه الدالية فى عمومها على ثلاثة أفكار عامة ، هى : الحسرة واللوعة على موت الزوجة من (١ ـ ٧) وهى منظومة متفردة تعبر عن الشاعر والمأساة التى عاشها ٠

٢ – وتعالج الأبيات التالية من (٨ ـ ٤٥) لب الموضوع وهو الرثاء الحار الباكى للزوجة المتوفاة ٠

٣ – ثم تختتم القصيدة بمجموعة من الأبيات من (٤٦ ـ ٦٧) تعد خاتمة القول، وفاصلة الخطاب فى حتمية الموت ونهاية المطاف فى الحياة ٠

وهذه الأفكار العامة ليست منفصلة عن بعضها، وإنما هى حلقات متصلة ، لا يصلح تجزئتها ولا تقسيمها، إذ أنها منظومة متكاملة وبكائية حزينة، ومرثية متفردة، وليدة الظروف التى أحاطت بالشاعر فى وطنه، وفى منفاه ٠

وتبدأ القصيدة بحسرة مسيطرة على الشاعر يشخص فيها الموت، حيث تخيله إنسانا يشعل فتيل أحزانه، ويذهب نور قلبه وهى الزوجة التى كان موتها إضعافا لقوته، وتحطيما لبدنه، فلم يدر ما لحق به ، فهل هى مصيبة عظمى اشتملته أم سهم لحق بقلبه فأصابه فى مقتل، إنه الخطب الذى أصاب عينيه فلم يتوقف دمعها عن السيلان ، وانسابت دموعها جارية على الخدين مصبوغة بلون الدم ، ولم يكن معدا للقاء يوم يروع فيه بمثل هذا الحادث الذى أوهن قوته، وأبلت هذه

الحسرات بدنه حتى أوشك على الفناء والهلاك وهو يلتمس تخفيف الأسى بالزفرات المحرقة والعبرات المحتبسة فى صدره ، والتى لا تسعفه بتخفيف أحزانه.

ويتحدث عن لوعته الملازمة لقلبه بفقد الحبيبة وعن عجز يديه على رد الغالية الغائبة فى حياتها المبكرة . ويتحدث إلى الدهر الذى أوجعه بفقد الزوجة ، التى كانت كل ذخيرته فى مواجهة حوادث الزمن، وإذا لم يرحم مرضه وضعفه، فقسا عليه ، أفلم يكن جديرا به أن يكون رحيما بأبنائه؟! ويذكر أثر موت الأم على الأولاد ذكورا أو إناثا، فقد صرن فرادى بلا أم ، وغابت عنهن، فلم ينمن لما لحق بهن من الفزع والرعب ، وخلعن العقود والحلى، وصنعن من الدموع قلائد لأعناقهن، إذ سيطر الحزن عليهن بالبكاء عليها، وقد كانت شديدة العناية بهن، وكثيرة الإسعاد لهن، وخدودهن ندية دائما بكثرة البكاء، وقلوبهن محترقة بسبب الهم والحزن الشديد .

ويخاطب الراحلة بما معناه :

يا بنت الماجدين الكريمين، إنها لمصيبة عظيمة حلت بأهلك ، ويصعب أن أراك حبيسة فى قبر ، تبيتين فيه بعيدة عن منزلك الذى كنت الضياء له فى كل ظلام حالك، ولو كان الزمن يقبل أن أكون فداء لك لما تأخرت، أو كان يخاف من فاتك جرئ لفعل معه مثل ما كان يفعله الشاعر الجاهلى والبطل العربى " الحارث بن عباد " ، ذلك البطل العربى الذى كان يدافع عن قومه بنى بكر ، فى شجاعة لا

تبارى، ولكن الأمر يرجع إلى قضاء الله الذى لا راد له ، هـذا وقـد انهار الشاعر فلم يستطع مقاومة أحزانه؛ لأنها أفقدته القدرة على الهدى والصلاح .

ولم يعد لديه سوى الحزن إذ لم يعد الصبر ناجعا له، وأن محاولة النسيان ليست إلا جمودا فى العاطفة، ذلك لأن الجزع واليـأس دلالـة (كما يدعى) على الوفاء، كما أن الصبر دليل على الكراهية والغـدر، ومن المصيبة أن يحاول الحزين الصبر فكيف ذلك وهو إنسان ولـيس جمادا .

وما أبعده عن استقرار القلب واضطراب الأمر ، ومجافاة النـوم فتبدأ حياته بالوله والهم، ويتواصل دمعه مع اتكائه على مسنده للنوم ، فهو أول ما يتذكره عند التيقظ ، وآخر ما يتزود بـذكره عنـد نهايـة اليوم.

وإن مصيبته لعظيمة جدا للدرجة التى يعتبر بهـا النـاس فـى همومهم وأحزانهم، فبات متخوفا من كل شئ يخشى أن يفاجئ بكارثـة مفاجئة ليست فى الحسبان، فأكل الحزن كل أعماقه، وظهـر المـرض عليه من كل ذلك، وأن الرسالة التى وصلت إليه فى منفـاه، تحملهـا الإبل على عادة العرب فما أتعس هذه الرسالة، حيث علم بالخبر فسقط مغشيا عليه، كأنما لدغته حية شديدة الفتك بالإنسان ، فويل لهذا الخبـر أو لحامله إذ أشعل لهيب الأحزان فى قلبه، حيث أصاب (هذا الـرزء) عينيه بسواد العمى ، كأنه كحلها بشجر فيه شـوك كـالإبر، فكانـت

مصيبته عظيمة بمثل ما كانت شماتة الحساد فيه ، الذين لاموه على بأسه وجزعه دون أن يعلموا أن هذا اللوم لا يثنيه عن الجزع، ولئن كان الشاعر المخضرم (لبيد بن ربيعة) قد قضى بأن من يحزن عاما على من مات فقد صار ذا عذر فهو غير كريم فى حكمه بالنظر لما فيه الشاعر، مع أن "لبيدا " قد عاش عمرا طويلا وعمر كثيرا، وتغلب على الزمان، ولم ينهزم أمامه، والفرق كبير حيث عاش عمرا طويلا تمتع فيه مدة طويلة ، وبين الزوجة التى ماتت فى عمر قصير، وهذا الذى عمر يحزن عليه عاما فجدير بزوجته أن يكون الحزن عليها دهرا طويلا، فالشاعر الذى عاش زمنا طويلا قضى فيه حاجته من الدنيا ، أما المرثيه فقد ماتت قبل أن تبلغ نهاية الشباب فكيف يتبع رأيه الذى يرى أن عاما واحدا كاف للحزن وهذا غير حالة من ماتت فى ريعان الشباب .

وكان لبيد قد أوصى ابنتيه ألا يحزنا عليه أكثر من عام واحد، وهو كاف فى إظهار الجزع وعدم المؤاخذة على ما صنع .

وانتقل الشاعر إلى جزئية أخرى يطلب فيها من النسيم أن يحمل تحيته إلى زوجته المدفونة فى مقابر الإمام الشافعى بمصر ، ثم أخبرها أنه بين جماعة من الناس لا يطلبون إلا ما يصلح شأنهم ودون مراعاة لمأساته التى فسدت فيها حالته، وكأنه غريب بينهم، ولا يحيا معهم ، فهم حساد ومرضى القلوب، لكن أجسامهم صحيحة لا يظهر عليها شئ ، ولو فكروا فيما خبأه القدر لهم لما أشعلوا فتائل حسدهم ومطامعهم .

٣ - ويصل إلى نهاية المطاف وخاتمة القول ، فيتحدث بهدوء، ويفكر بروية عن تجربته، وكيف خرج منها، فذكر أن الناس يحيون فى دنياهم إلى أجل محدد لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون، ويكفيهم أن يعتبروا بالشدائد؛ لتوقظهم من غفلتهم ، ثم لينظر الإنسان إلى ماضيه ونهاية آبائه وأجداده، وكيف فرق الزمان بينهم ، وآل بهم إلى منخفضات الأراضى وأعاليها .

وأن الهدوء والسلم من الدهر لا يستمر ، إذ يسفر عن مصائب لها من الشدة والفتك ما للحرب والقتال، وأنه أى الدهر ، أفنى ملوك حمير وهى قبيلة يمنية ، وزعماء ثمود وحمير ، وهما من قبائل العرب البائدة ، وانقض على قبيلة قُضَاعة (قبيلة يمنية) واستحلها وتغلب عليها وامتد سخطه إلى ملوك الفرس ، واختص ابن أردشير بما لديه من قوة وأعوان، وأصاب قبيلة إياد (العدنانية) حتى تنكست أعلامها فى جنوبى العراق حيث كانت تنزل فى سنداد[١] .

وانتقل إلى التذكير بما آلت إليه المدائن وهى حاضرة الفرس قبل الإسلام، وكانت تقع على نهر دجلة جنوبى بغداد، فهى مركز عظة للمقيمين فى الحواضر والبوادى، حيث هجمت عليها حوادث الأيام فلم يبق فيها إلا القليل من الآثار والأبنية ، ودلف إلى مصر، مطالبا بإطالة النظر للتذكير والعظة بالهرمين (خوفو ــ خفرع) وأبىالهول الرمز الدال على عظمة فرعون وقوته، حيث يقف ذلك الصنم كأنه خطيب فى الفراغ الواسع أمامه .

---

(١) نسبت منازلها لسنداد أحد ملوك الفرس.

وعند إطالة النظر فى هذه الآثار الصامتة سوف تخبر ما جــرى فى الأزمنة السابقة من مظاهر متعددة للموت والحياة.

فهذه الأمم السابقة قد خفيت أكثر أخبارها، وصــارت مجهولــة التواصل والإسناد الحقيقى فى الحياة السالفة.

إذن، وبعد كل ذلك لماذا يخشى الإنسان سقوطه وانهياره مــع أن حياته إلى فناء وانتهاء؟ .

وما أتعس الذى نسى الآخرة مع علمه بأن الموت نهاية حياتــه، وأنه يترصد له، وينتظر حلول ما تبقى من عمره.

ويخاطب الشاعر نفسه طالبا لشخصه (محمود) الهداية والمعونــة من الله سبحانه وتعالى فهو نعم الهادى، ويطلب منــه المغفــرة لمــن ماتت، ونامت على التراب، فهو المجيب لكل سائل، ذلــك أنهــا روح القلب ومنى النفس ولما توفيت ، انصرف عن الدنيا ، وعاش بالحسرة واللوعة متجنبا لكل شئ جميل فيها .

ويقسم أن دموعه لم تجف مــن يــوم أن ماتــت ابنــة الأصــل والشرف، ويستحيل أن ينساها ويتحول عنها؛ لأن ترك الوفــاء لــيس أمرا سهلا ولا شيئا هينا، وليس من طبعه ، وأن ما يشجعه على البقاء والتحمل توقعه للقاء يوم البعث والنشور ، ثم اختتم القصيدة بتحية مــن قلبه يبعث بها فى كل وقت تنوح فيه الحمامة على أغصانها، وهى فى غالب الأمر تشدو ولكنها تنوح لوعة وأسى .

ملامح التعبير والتصوير والحالة الشعورية

ربما توصف قصيدة المدح (مثلا) ببعض الوهن لما يعتورها من تفكك ناشئ بسبب ما يستطرد إليه بعض الشعراء في الحديث عن أخلاق ممدوحيهم والمبالغة في إظهار مآثرهم، وبدء القصيدة بالغزل وختمها بالحكمة ، والتقليل من شأن الخصوم والأعداء والانتقال إلى مستقر الممدوح إلى غير ذلك من الملامح الخاصة بها .

أما الرثاء فموضوع مختلف كثيرا .. نعم إن المدح حديث عن شخص موجود أما الرثاء فكلام عن شخص ميت ، وأبرز فرق هو انتفاء الرياء والملق في قصيدة الرثاء (غالبا) فلا حول ولا قوة لمن مات ، اللهم إلا إذا كان له فروع أو أصول يسعدها هذا الشعر، فيمكن – بذلك – أن يتسرب الادعاء إلى قصيدة الرثاء، لكن الأصل في الحديث عن الميت أنه خال من المبالغة ، وأنه أقرب إلى الصدق ، أصدق شعوريا ، أعمق تجربة، أكثر تماسكا ومعاناة، حيث تنصهر المعاني فيها لدى الشعراء، وتتعمق المأساة، وتلتئم عناصر الوحدة الفنية في النص ، وترقى إلى درجة من السمو والبروز والسبق دون سائر الأغراض الأخرى.

وتعد دالية البارودي من أبرز القصائد التي رثى بها زوج زوجته، ولا تدانيها إلا مرثية جرير في زوجته، وإن كان لهذه فضل السبق ، فلقصيدة البارودي ميزة الإطالة ورقة الالفاظ ، ومن قصيدة جرير قوله من الكامل:

لولا الحيــاء لعــادنى اســتعبار ∴ ولزرت قبركِ والحبيــب يــزار
ولقد أراك كسيت أجمــل منظــر ∴ ومع الجمال ســكينة ووقــار
صلى الملائكة الــذين تُخُيِّــروا ∴ والصالحون عليــك والأبــرار
لا يلبــث القرنــاء أن يتفرقــوا ∴ ليــلٌ يكُــرُّ علــيهم ونهــار[١]

ومن الملاحظ بعد قراءة الكثير من شعر البارودى أنــه اســتمد بعض معانيه من القدماء ، وصاغ كثيرا من تجاربه الخاصة صــياغة جديدة تتلاءم مع بداية النهضة الأدبية التى حمل لواءها، ولا تقل فــى روعتها عن صياغة الشعراء الأمويين والعباسيين الكبار مثــل جريــر وأبى نواس والمتنبى وأبى العلاء وغيرهم .

ونأمل أن يتضح ذلك وغيره فى تعبيراته وتصــويراته بالأبيــات التى رثى بها زوجته.

١ - تبدأ القصيدة بحرف النداء وهو الهمزة وأى ومثله أية تفيد التعظيم، ويد المنون استعارة تبرز الموت فى صورة مشخصة بارزة.

٢ - وتفيد كلمة (عزمى) أن الشاعر كانت لديــه إرادة قويــة ، وهى مناسبة للفخر ، لكنها تشير إلى ما أحدثه مــوت الزوجــة فــى عزيمته القوية ، وجاء التشبيه مقويا لهذا المعنى (وهو حملــة فيلــق) واستعار العود للجسم الذى شبهه برمح المطاردة ، (وهو كنايــة عــن الجسم) ويلاحظ أن المعانى تتقابل فى مخيلة الشاعر مع المحسوســات

---
(١) الديوان صــ٢٣٧ .

(العزم ــ العود) والحملة والرمح من أدوات القتال التى يتقــوى بهــا، لكنها لم تصمد، وانهارت أمام حادث الموت الذى لم يقو الشاعر علــى مواجهته ٠

٣ - والتعبير بهل ــ مع أن الأولى الاستفهام بالهمزة ؛ لــذكر المعادل بعد (أم). وأناخ .. استعارة مكنية، وتفيد الأساليب والتراكيب أن الشاعر فى أزمة وحرب حقيقية موجهة إليــه ، قوامهــا ضــخامة المصيبة وإصابة القلب .. وأدوات القتال ظاهرة فى هذه الأبيات التــى استهل الشاعر بها قصيدته ٠

٤ - ثم انتقل إلى تأثير الموت علــى جســمه، فوضــع ذرات التراب فىعينيه (استعارة) وأسبلت العيون ، أرسلت الدمع (اســتعارة) وجعل الدمع كالفرصاد (لون الدم) إشارة إلى أن بكاءه كــان دمــا لا دموعا٠

٥ - ونبه "البارودى" إلى قوته قبل الحادث، وإلى وهنه وضعف أداه بعد الموت ، وهو يوازن بين حالتيه ٠

٦ - ويبالغ فى تصوير مأساته بقوله (أبلتنى) وأنه صــار مــن الضعف والتلاشى للدرجة التى لم يعد فيها ظاهرا، لمن يأتى لزيارته٠

٧ - ويستنجد بالزفرات لمأساته لكنها محرقة (استعارة) ويســفه العبرات ينسبها إلى السفه (استعارة) والزفرات والعبرات من مظــاهر الحزن والأسى ٠

٨ – ويوازن بين قوله لا لوعتى تدع، وقوله: ولا يدى تقوى فى الصياغة، وفى المعنى أيضا فى الجمع بين اللوعة وضعف اليد ·

٩ – يا دهر: استعارة تشخيصية، ومجاز مرسل فى نسبة إحداث الفجيعة إلى الدهر ·

١٠ – إن كنت لم ترحم (استعارة) ويزداد توجع الشاعر بالحديث عن الرحمة والضنى والأولاد، والأسى، والاستفهام للتعجب من صنيع الدهر ·

١١ـ ١٢، ١٣، ١٤ – حديث الشاعر عن تأثير موت الزوجة على بناته ـ حيث عشن متفردات بلا أم لموتها وبلا أب لنفيه ـ اللاتى لم ينمن لتقرح العيون، واضطراب الأكباد و(رواجف الأكباد) كناية عما أصابهن من الخوف والفزع. و(صغن من در الدموع قلائد) استعارة، والملاحظ أن اتساع خيال الشاعر من ثمار عاطفته العميقة الصادقة، وأن الخدود ندية بكثرة البكاء، وأن القلوب عطشى أو محترقة بسبب الحزن والفزع ·

١٥ – أسليلة القمرين (مناجاة) والاستفهام للتعظيم، والتعبير بهذا المنادى تأكيد لكثرة ما أصاب الأهل بسبب الموت ·

١٦ – وقد بدأ الشاعر بالتعجب من حاله (اعزز على) ورهينة تشبيه ، والأغبر القاتم كناية عن القبر، والألفاظ أكثر دلالة على اللوعة والحزن ·

١٧ - ويستمر اللون الأسود فى كآبته موحيـا ، أو دالا علـى الحالة التى انتابت منزل الشاعر فى وطنه حيث الزوجة الراحلة ومـا تخلف عن غيابها من لوعة وأسى.

١٨ - كرر البارودى لفظ الدهر وإسناداته بالأساليب المجازية، وقوله (أول فادى) تأكيد لمنزلة الزوجة وبيان أن الراغبين فى فـدائها كثيرون .

١٩ - لو كان (الدهر) يرهب صولة (استعارة) شبه الشاعر مـا يستعد لفعله بما فعل "الحارث بن عباد "، وهنا تتجلى بعـض مظـاهر البعث والإحياء عند " البارودى " بهذا الإسقاط التاريخى الذى يتعلـق الكاتب أو المتحدث فيه بمأثورات الماضى.

٢٠ – فى هذا البيت هدوء نفسى والتسليم بقضاء الله، والرضـا بحكمه سبحانه وتعالى .

٢١ - ويكشف الاستفهام عن حيرة الشاعر واضـطرابه، ويـد الأسى (استعارة) وقد ملكت (استعارة) أو (ترشيح للأولى) .

٢٢ــ ٢٣، ٢٤ - والاستفهام للتخيير أو التسوية لكن الأمـرين غير مقبولين أو ليسا محببين لديه، والمبالغة بهذه الصياغة نـوع مـن فقدان الشاعر لتوازنه ، حيث جعل الصبر وفـاء، والصـبر غـدرا، ومراعاة التجلد بلية، و(أخو الأسى)، اسـتعارة، وكنايـة عـن شـدة الملازمة مع الأسى .

٢٥ – وهيهات أن تقر جوانحى (كناية) من شدة الأسى واضطراب الأمر ، أو يلين مهادى كناية مؤكدة لما سبق ٠

٢٦ – والوله مستمر (مصاحب لمسيرة الشاعر) والدمع ملازم لوسادته ٠

٢٧ – وتستمر المقابلات المعنوية والحسية فى الصياغات الأسلوبية (فإذا انتبهت) و(إذا أويت) و(فأنت أول..) و(فأنت آخر..)٠

٢٨ – وتصل المبالغات إلى درجة يصبح فيها عبرة لأهل الحزن واللوعة فى أيام المصائب والنكبات ٠

٢٩ – جعل الشاعر حالته مليئة بالتذلل والتضرع ، حتى وصل به الحد ، إلى المشى متسترا خوفا من هجوم مفاجئ (والتعبير تصوير دال على حالة الرجل بعد موت حليلته)٠

٣٠ – والأحزان لديه باطنة و(بادية) وقوله (أكل الحشا) استعارة تشخيصية ٠

٣١ – وانتقل إلى حالته عند وصول نبأ الموت (ورد البريد) ثم (تعس البريد) وقوله : وشاه وجه الحادى تخيل لوسيلة وصول الخبر إليه٠ وقوله (تعس البريد) ، و(شاه وجه الحادى) جملتان إنشائيتان فى المعنى تفيدان الدعاء بالتعاسة وقبح الوجه لحامل البريد، والحادى من يحدو الإبل ، على عادة العرب القدماء٠

٣٢ – ويستمر الشاعر فى نقله للصور العربية القديمة، فقد وقع مغشيا عليه كأنما لدغته حية من أخبث الحيات .

٣٣ – ويلمه: دعاء على الرزء ، وقد أطار نعيه : خبره الذى حمل نبأ الوفاة ، وقد أشعل بالقلب لهبا وقادا: استعارة.

٣٤ – وأصاب العيون بسواد العمى (أظلمها) وكأنه قد كحلها بالشوك من شجر القتاد.

٣٥ــ ٣٦ – وقد عظمت عنده آثار المصيبة بمثل ما عظمت شماتة الحساد، ولا أجد مبررا ــ هنا ــ للحديث عن الحساد، وكيف لاموا الشاعر على ضعف قدرته على المقاومة وعدم صبره على التحمل مع علمهم بأن هذا اللوم لا يمنعه من الجزع .

٣٧ – يبدأ الشاعر من هذا البيت فى تقديم النماذج التاريخية والأمم القديمة ذوات الحضارات المختلفة التى فنيت أو بقى القليل من آثارها ، واستهل ذلك بالحديث عن الشاعر (لبيد بن ربيعة العامرى) الذى عاش فى الجاهلية والإسلام، وقد أوصى ابنتيه بألا يحزنا عليه أكثر من عام لأن المرء إذا حزن عاما كاملا على من مات ، فقد صار ذا عذر(١)، وأشار البارودى إلى أبيات لبيد التى قال فيها:

تمنى ابنتاىَ أن يعيش أبوهما ∴ وهل أنا إلا من ربيعةَ أو مضرْ؟
فقوما فقولا بالذى قد علمتما ∴ ولاتَخْمِشاوجها،ولاتحلقاالشَّعَرْ
وقولا: هو المرء الذى لا خليله ∴ أضاع،ولاخان الصديق ولاغدر

---

(١) انظر ديوان البارودى جـ١ صـ٢٤٣ .

إلى الحول،ثم اسم السلام عليكما ∴ ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

٣٨ – ولبس الناس تعبير استعارى أى عاش معهم ، وقل عرائك الأباد أى تغلب على الأزمنة ، وهو أسلوب استعارى أيضا لكنه قليل الورود على ألسنة الشعراء فيما نظن ·

٣٩ ــ ٤٠، ٤١ – ما زال الحديث عن طول عمر"لبيد"، ورؤيته فى الاكتفاء بسنة واحدة لإظهار الحزن، وأن هذا غير كاف فى حق زوجة عاشت القليل من العمر، وجديرة بأن يكون الحزن عليها أزمنة طويلة ، ويصل إلى رفضه لإتباع ما يقول "لبيد" (والاستفهام خارج نطاق الحقيقة) منطلقا إلى حيز النفى والإنكار·

٤٢ – وقوله : سر يا نسيم (استعارة) والقبر مجاز مرسل قاصدا من فى القبر، بحمى الإمام، ولم نألف من الشعراء أن يحملوا النسيم التحية إلى من مات إلا إذا توهم الشاعر أن المرثى ما زال حيا لكن النسيم يحمل التحية غالبا إلى المحبوبة البعيدة التى تفصلها الحواجز عن الحبيب كقول "ابن زيدون" من البسيط :

ويا نسيمَ الصبا بلغ تحيتنا ∴ من لو على البُعْدِ حيًّا كان يحيينا

٤٣ – كذلك الحساد الذين يتواجدون فى دوائر العشق والهيام أما أن يتواجدوا فى نطاق الأحزان والنكبات وفقد الأخلاء فقليلا ما يحدث·

٤٤ – ومرضى القلوب هم الكارهون الحاقدون فالمرض معنوى وليس حسيا .

٤٥ – لم يقدجوا بزناد: صورة تمثيلية قديمة، جعل الشاعر فيها قدح الزناد بداية لإشعال نار الكراهية وزرع بذور الفتنة .

٤٦ – ٥٠ – بعد أن استنفر الشاعر حالته الشعورية فى لوعته على موت الزوجة بالقاهرة، وهو قابع فى منفاه، أخذ فى شق طريق العظة والهدوء حيث يعيش الناس فى دنياهم إلى أجل محدد ، ويكفيه أن ينظر إلى نكبات الزمن وآثار الآباء والأجداد حتى يرى كيف عصف الزمان بهم (استعارة) وبدد شملهم (استعارة) بين تهائم ونجاد (طباق) ، وأن الدهر إذا سالم (استعارة) فإنه ما بعد سلمه لا يختلف عن ضراوة الحروب .

٥١، ٥٦ – ويتواصل الحديث عن الدهر (الزمن) وصنيعه فى حمير وثمود وعاد، وقضاعة التى رماها (استعارة) واستباح ديارها (استعارة)، وإياد ، والتى أصبحت منكوسة الأعلام، كناية عن الهزيمة والضياع ، وجعل المدائن منجم عبرة (تشبيه) ، وما شاهدته من حاضر وباد طباق ، وكرت عليها الحادثات (استعارة) ، وينتقل إلى ما تبقى من بعض الآثار الفرعونية بمصر ، فلم يعد لمن سميت بأسمائهم شيئ إلا هذه البقايا (الهرمان ، وأبوالهول) .

٥٧ – ألسنة الصموت .. كيف يكون للصموت ألسنة؟ إنها بالقطع عاجزة عن القول (استعارة) وما زال مع الدهر وآثاره وما جرى فيه من عدم ومن إيجاد (طباق) .

٥٨ – أمم خلت: ذهبت وانتهت على عظمها وضخامتها، واستعجمت أخبارها لفظة قديمة ، مناسبة لهذا التراث المتقدم في وجوده وظهوره على الإسلام .

٥٩ – الاستفهام للنفى .

٦٠ – صور الموت بشخص أو وحش يتربص بالإنسان، ونسى المعاد: إشارة إلى غفلة الإنسان وحاجته دوما إلى من يذكره بالنهاية.

٦١ – انتقال فى الصياغة من أسلوب الغيبة إلى الأسلوب الخطابى ، لأهمية التنبيه إلى حتمية الصبر والهدوء وقد أوشكت القصيدة أن تبلغ نقطة النهاية أو خاتمة القول ، ولوحظ أيضا أن الشاعر قد تعامل – هنا – بطريقة التجريد جاعلا من نفسه شاعرا وواعظا لمحمود الزوج الحزين، طالبا من الله له الهداية، وملتمسا منه المعونة.

٦٢ – ويطلب الشاعر بلسان الزوج المغفرة لمن سكنت القبر .

٦٣ – هى مهجة (تشبيه)، ودع الشاعر نفسه (تجريد) و(استعارة) وعاش بحسرة كناية عن الملازمة وعدم المفارقة مع إبعاده عن مواطن الأهل والأحباب ، وانتقل هنا إلى التعامل مع النص بضمير المتكلم .

٦٤ – ولا جديد فى البحث عن استمرار سقوط الدموع (بالقسم) وقوله: ذهب الردى بك: استعارة، وقوله يا ابنة الأمجاد ، إشادة واعتزاز وتقدير ٠

٦٥ – مال مع الهوى (استعارة) والحديث عن ميل القلب إلى الشهوات ونفى ذلك غير ملائم للموقف وأن يرر ذلك بحرصه على الوفاء٠

٦٦ – كدت أقضى حسرة، لكن ذلك لم يحدث؟ لماذا؟ لأنه كان متوقعا لقاءها، (التوقع هنا غير مناسب) ٠

٦٧ – ويعاود إرسال التحية مرة أخرى قائلا : فعليك من قلبى التحية .. وهو غير مناسب كما أشرنا سلفا ، وكلما ناحت مطوقة: مقتبس من أقوال القدماء ولكن الصياغة للبارودى ولعله يذكرنا ببكاء الحمامة وغنائها فى مرثية قالها أبو العلاء فى صديقه أبىحمزة التنوخى" من الخفيف:

أبكت تلكم الحمامة أم غنّـ ∴ ـتْ على فرع غصنها الميّادِ

تعليق ونقد :

١ - الخيال وليد العاطفة، وهى جزء مـن مكونـات التجربـة الشعرية، واشتمل الصدق أبعاد هذه التجربـة (الباروديـة) المتميـزة، وكانت تعبيرا عما عاناه واحتواه فى منفاه، وهـى عميقـة بأسـرارها وتوهجها عمق الحياة الزوجية، وقد طوف الرجل بين القديم والحديث، بين الجاهلى الضارب فى أعماق التاريخ وبين الواقع الإسلامى الـذى يليه مع الأصالة والمعاصرة فكان الشاعر رائدا عن جداره لاتجـاه أو مدرسة البعث والإحياء ٠

وقد تبلورت الرؤية للتجربة الشعرية فى الأدب الحديث ، ولم تعد قاصرة عند حدود اللفظ والمعنى أو الوزن والقافية، وإنما تجاوزت هذه الحدود إلى جزئيات مكونة لها كالموسيقى والخيال والصورة والفكـرة أو المعنى، وعلى أية حال لازالت تسبح فى دوائـر متعـددة للرؤيـة والأداة٠

وكان لابد أن تأخذ التجربة إطارا جديدا أو متجددا منذ أن بـدأت القصيدة المعاصرة تتشح بالرمز والغموض، وتتخلى عن بعض ثوابتها القديمة كالقافية والتفعيلات الثابتة حسب الأبحر المختلفة على أن هـذه الرؤية لم ترد فى شعر البارودى بصورة مختلفة عن صنيع القـدماء، وإنما كان التزامه وحرصه ليس قابلا للمزايدة، فبدا الرجل فى ديوانـه شاعرا أمويا أو عباسيا فى ديباجته وموضوعاته وألفاظه، وكان هـذا هو البداية للبعث والإحياء ثم التجديد فى الصياغة والألفاظ ، وتعاملـه

مع التاريخ وتجديده فى كثير من المضامين ، وقد تبلورت كلهـا فـى رثائه لزوجته٠

أما الشعر القريب من عصره فكان معظمه متعثـرا فـى أذيـال التكلف قال أستاذنا الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجى عن تجديـد هـذا الشعر،: "ونظم البارودى جزل العبارة ، فخم الأسلوب، يأسر الألباب، ويسحر الأفئدة، وطار به فى سماء المتقدمين، وحلـق بـه فـى أفـق الجاهليين والإسلاميين والمحدثين، واحتذى حذوه الشعراء، فاستظهروا روائع الفحول، وأشعار أعلام الشعر القديم من جاهليين وغير جاهليين فسمت مداركهم، وثقفت ألسنتهم ، وقويت ملكاتهم، ونبـل قريضـهم ، وكثرت روائعهم[(١)] ٠

وسار الشعراء على نهجه ، فتركوا المحسنات المتكلفة، ونزعـوا إلى أساليب البلاغة العربية، وهجروا الصنعة والمبالغة والابتذال٠

إن هذه الدالية المشهورة دفقة شعورية تملكهـا وسـيطر عليهـا الحزن والألم، لما أحيط بها من أجواء نفسية فى مصر وسرنديب، وإن كانت الأبيات الأخيرة فيها قد علتها مسحة خطابية ، حتى لو تجاوزت أبعاد التجربة الخاصة إلى معالم التجربة العامة ٠

والقصيدة فى مجموعها ذاتية، هتف الشاعر بها فى أجواء نفسية حزينة ، فكانت واحدة من أروع ما قيل فـى رثـاء الزوجـة قـديما وحديثا٠

---

(١) دراسات فى الأدب المعاصر صـ١٣ ٠

أحمد شوقى
شاعر العصر الحديث

لم تعرف الحياة الأدبية الحديثة شاعرا مثل أحمد شـوقى ،الـذى عالج أكثر الفنون الشعرية ، وتغنى بالوطنية ، وهاجم الغزاة المحتلين، وجدد فى الموضوعات ، وأحيا الشعر التمثيلى، وأبدع فى المطولات، وعارض القدماء بكثير من القصائد التى حققت شهرة وانتشارا، وقـدم نماذج متعددة من الشعر القصصى الذى ساقه على ألسنة الحيوانـات ، وتميز بالشعر الذى خاطب به الأطفال، ورثى كثيرا من أبطال الأمـة وزعمائها ، كما رثى العديد من الأعـاجم الـذين خـدموا البشـرية، وأضافوا للحياة الإنسانية طعما ومذاقا، فكان فريدا متميزا فـى شـعره شكلا ومضمونا وغزارة وصدقا .

وقد ولد بالقاهرة عام ١٨٦٨[١] (١٢٨٥هـ) وتـوفى بهـا عـام ١٩٣٢م (١٣٥١هـ) ، واسمه أحمد شوقى بن على بن أحمد شـوقى، وأصله من الأكراد ، وكان أبوه مبذرا فأهلك ما تجمع لديه من ثـروة وميراث، وفعاش شوقى فى كفالة جدته لأمه التى كانت إحدى وصائف

---

(١) وقيل فى عام١٨٦٩م أو فى عام ١٨٧٠م .

القصر الملكى فى عهد الخديو إسماعيل ، وقد سافر إلى فرنسا لدراسة الحقوق عام ١٨٨٧م ، فنال منها شهادة الليسانس ، وعاد عام ١٨٩٣م، فعمل فى المعية الخديوية، وعلت مكانته فى عهد الخديو عباس الثانى حتى سمى شاعر الأمير، ثم انفصل عن وظيفته فى القصر بعد خلع الخديو عباس عن العرش فى ديسمبر عام ١٩١٤م، وصار مستهدفا من السلطة العسكرية الإنجليزية ، فقررت نفيه، وتركت له حرية اختيار البلد الذى يعيش فيه فاختار أسبانيا (الأندلس) وبقى فيها إلى أن عاد فى فبراير عام ١٩٢٠م ٠

وعاش على تراب وطنه ، هاتفا بحبه، متغنيا بآثاره وأمجاده، حتى أجمع شعراء عصره على الاعتراف بموهبته، وتقدير فنه، فعقد له مؤتمر لتكريمه فى عام ١٩٢٧م ، بدار الأوبرا المصرية ، وأقروا له بإمارة الشعر، ومما قاله معاصره وصديقه وزميله فى حب مصر الشاعر حافظ إبراهيم:

أميرَ القوافى قد أتيتُ مبايعا ∴ وهذى وفودُ الشرق قد بايعتْ معى

ومما كتبه عنه الأستاذ أحمد الحوفى فى مقدمة الديوان : "تغنى شوقى على أوتار شتى من قيثارته، فترنم بوصف الطبيعة والآثار والمخترعات الحديثة. وقال قصائد كثيرة فى السياسة والوطنية والاجتماع والمديح والهجاء والرثاء والدعابة والتاريخ والدين والأخلاق وصاغ أناشيد وأقاصيص للأطفال ، وله فضل السبق إلى الشعر المسرحى .

وإذا ما رجعنا إلى مناسبات كثيرة من قصائده وجدناه لسان مصر الطليق البليغ المعبر عن آمالها وآلامها، ولسان العروبة الناطق بمشاعرها، وترجمان الإسلام والمسلمين .

ولقد كانت مدائحه ومراثيه بعد نفيه بخاصة إشادة برجالات الوطنية والسياسة والإصلاح والجهاد فى مصر وفى العالم العربى والإسلامى، لأنه تحرر من قيد الوظيفة فكثرت تجاربه، واشتد خلاطه، وزخرت نفسه بعواطف الشعب المصرى والأمة العربية التى كان الشعراء والكتاب يعبرون عنها فى ذلك الوقت بالشرق، فانطلق يغرد لمصر وللعروبة ، وللإسلام بصوت أقوى ونغم أشجى، ونفس أطول، وعاطفة أحد وأمضى"(١).

كما كتب عنه أمين الرافعى فى كتابه شعراء الوطنية فقال : "سمى شوقى أمير الشعراء ، ولقب الأمير لم يعد يتفق والروح الديمقراطية، ولم تعد الإمارة تضفى على صاحبها منزلة محترمة، هذا

---

(١) مقدمة ديوان شوقى لأحمد الحوفى جـ١ صـ٩، ١٠ طبعة دار نهضة مصر .

إلى أن شوقى أكبر من أن يمجد بهذا اللقب، فهل نسميه (سيد الشعراء)؟ إن كلمة السيادة لغير الأمة لم تعد أيضا تتفق والأوضاع الديمقراطية، فهل نسميه (زعيم الشعراء)؟ إنه ولا ريب أقدر شعراء عصره، ولم يكن ينازعه فى زعامة الشعر أحد من أنداده ومعاصريه فقد عقدوا له لواء الزعامة وبايعوه عليها فى المهرجان الذى أقيم له بمصر سنة ١٩٢٧م وجمع أقطاب الشعر من العالم العربى"[١].

ولذلك يعد شوقى أقدر الشعراء المعاصرين على التحدث بحب مصر، وبث روح الأمل فى أبناء الشعب ؛ حتى يتخلصوا من الغزاة المحتلين، وتتوحد كلماتهم ومواقفهم فى الإشادة بأمجاد الوطن وزيادة ثرواته، وتقدير زعمائه وأبطاله ٠

نماذج من شعره :

من روائع الشعر فى ديوان أحمد شوقى القصيدة التى سنعرض لها فى هذه الدراسة وهى النونية الشهيرة التى بدأها بقوله :

يا نائحَ الطلح أشباهٌ عوادينا ∴ نَشْجَى لواديك أم نأسَى لوادينا؟

ماذا تقص علينا غير أن يدا ∴ قصت جناحك جالت فى حواشينا؟[٢]

وقال فى مطلع قصيدته عن أبى الهول :

أبا الهول طال عليك العُصُر ∴ وبلغت فى الأرض أقصى العُمُرْ

(١) شعراء الوطنية صـ٤١ ٠

(٢) ديوان شوقى جـ١ صـ١٤٧ ٠

فيا لِدَةَ الدهر: لا الـدهرُ شبـــ ∴ ب،ولا أنت جاوزت حد الصِّغر[١]

إلام ركوبــك مـــتن الرمـــا ∴ ل لطىِّ الأصيل وجوب السـحر

وقال عن روعة الآثار العربية بالأندلس قصيدة أولها :

اختلاف النهار والليـل ينسـى ∴ اذكرا لى الصبا وأيام أنسـى[٢]

ومنها قوله :

يا ابنة الـيم مـا أبـوكِ بخيـلٌ ∴ مالـه مولعـا بمنـع وحـبس

أحـرامٌ علـى بلابلـه الـدو ∴ ح حلال للطير من كل جـنس

كـل دار أحـق بالأهـل إلا ∴ فى خبيث من المذاهب رِجْس

نفسى مِرْجَلٌ وقلبـى شـراع ∴ بهما فى الدموع سِيرى وأرسى

واجعلى وجهك الفنـارَ ومجـرا ∴ ك يدَ الثغر بين رمل ومكس

وطنى ولو شغلت بالخلـد عنـه ∴ نازعتنى إليه فى الخلد نفسى[٣]

والمعنى "أنه لو شغل عن الوطن بجنة الخلد وسكنها ، لبقيت نفسه تهفو إلى الوطن ، وتنزع إليه"[٤].

وخاطب نهر النيل قائلا :

من أى عهد فى القرى تتـدفقُ ∴ وبأى كفٍّ فى المـدائن تُغْـدقُ

ومن السماء نزلت أم فُجِّرت من ∴ عليا الجِنان جـداولا تترقـرق

وبـأى عـين أم بأيـة مُزْنـة ∴ أم أى طوفان تَفيض وتفهق[٥]

وبأى نوْلٍ أنـت ناسـج بـردة ∴ للضفتين جديـدها لا يخلُـق[٦]

---

(١) لدة الدهر : قرينه .
(٢) الديوان جـ١ صـ١٩٢ .
(٣) الديوان جـ١ صـ٢٠٤ ، ٢٠٥ .
(٤) شعراء الوطنية لعبدالرحمن الرافعى صـ٥٩ .
(٥) تفهق : تمتلئ حتى تتصبب .
(٦) الديوان جـ١ صـ٢٣٣، ٢٣٤ .

وقال :

قفى يا أختَ (يوشــع) خبرينـــا ∴ أحاديــثَ القـــرون الغابرينـــا

وقُصِّى من مصـــارعهم علينـــا ∴ ومـــن دُوَلاتهـــم مـــا تعلمينـــا

فمثلك من رَوَى الأخبــار طُــرّاً ∴ ومن نسب القبائــل أجمعينـــا

وقال :

زمان الفرد يـــا فرعـــونُ ولـــى ∴ ودالـــت دولـــة المتجبرينـــا

وأصبحت الرعـــاة بكـــل أرض ∴ على حكم الرعيـــة نازلينـــا(١)

وقد ناجى الشمس، وتحدث عن الفراعنة وأمجادهم وحضاراتهم، كما تحدث عن شباب مصر ، وعن مقبرة توت عنخ آمون إلى غيــر ذلك من الموضوعات الموزعة على سائر الأبيات ٠

شارك شوقى بقصيدة عن الأزهر فى الاحتفال الـــذى أقـــيم فـــى مناسبة تطوير الدراسة به عام ١٩٢٤م ، قال :

قُمْ فى فَمِ الدنيا وحـــى الأزهـــرا ∴ وانثرْ على سمع الزمان الجوهرا

واجعل مكانَ الــدُرِّ إن فصّـــلته ∴ فى مدحه خرز السماء النيـــرا

واذكره بعد المســـجدين معظمـــا ∴ لمســـاجد الله الثلاثـــة مُكْبِـــرا

---

(١) الديوان جـــ١ صـــ٢٥٦، ٢٦٣، والحديث إلى الشمس: إشارة إلـــى قصـــة يوشع بن نون فتى موسى عليهما السلام، فقد روى أنه قاتل الجبـــارين يـــوم الجمعة، فلم جنحت الشمس للغروب خاف أن تغيب قبل تمام انتصاره عليهم، ويدخل السبت فلا يحل له قتالهم فيه، فدعا الله تعـــالى أن يؤجـــل غروبهـــا، فاستوقفها حتى فرغ من قتالهم ٠

واخشع مليا، وأقض حق أئمـــة ∴ طلعوا به زهرا وماجوا أبحـــرا

كانوا أجل من الملـــوك جلالـــة ∴ وأعز سلطانا وأفخم مظهرا(١)

وقال فى تهنئة الخديو عباس بعيد الفطر :

رمضان ولـــى هاتهـــا ياســـاقى ∴ مشتاقة تســـعى إلـــى مشـــتاق

مـــا كـــان أكثـــر علـــى ألافهـــا ∴ وأقلّـــه فـــى طاعـــة الخـــلاق

الله غفـــار الـــذنوب جميعهـــا ∴ إن كان ثم من الذنوب بـــواق

بالأمس قد كنا ســـجينى طاعـــةٍ ∴ واليومَ مـــنَّ العيـــدُ بـــالإطلاق

ضحكت إلىّ من السرور ولم تزل ∴ بنتُ الكروم كريمة الأعـــراق(٢)

وقال فى قصيدة عن واجب العلم والتعليم والمعلم فـــى احتفـــال أقامته مدرسة المعلمين العليا :

قـــم للمعلـــم وفّـــه التبجـــيلا ∴ كاد المعلم أن يكـــون رســـولا

أعلِمْتَ أشرفَ أو أجل من الذى ∴ يبنى ويُنشئ أنفســـا وعقـــولا؟

ســـبحانك اللهـــم، خيـــرَ معلـــمٍ ∴ علمت بالقلم القـــرون الأولـــى

وقال :

إن الذى خلق الحقيقـــة علقمـــا ∴ لم يُخْلِ من أهل الحقيقة جـــيلا

وقال :

وإذا أصيب القوم فى أخلاقهـــم ∴ فأقمْ علـــيهم مأتمـــا وعَـــوِيلا

---

(١) الديوان جـــ١ صـــ٤٦١ .
(٢) الديوان جـــ١ صـــ٤٨٧ .

وقال :

وإذا النساء نشـأن فـى أميـة ∴ رَضَعَ الرجال جهالة وخمولا[١]

وقال فى التهنئة بظهور مجلة أبولو التى أصدرها أحمـد زكـى أبوشادى عام ١٩٣٢م :

أبولو مرحبـا بـك يـا أبولـو ∴ فإنك من عُكـاظ الشـعر ظـل

عكـاظُ وأنـت للبلغـاء سُـوق ∴ على جنباتها رحلـوا وحلـوا

وينبوع مـن الإنشـاد صـاف ∴ صـدى المتـأدبين بـه يُبـل

ومضمارٌ يسوق إلـى القـوافى ∴ سوابقَها إذا الشعراء قلـوا[٢]

ومن المدائح النبوية قصيدته (الهمزة النبوية) :

ولد الهـدى فالكائنـات ضـياء ∴ وفـم الزمـان تبسـم وثنـاء

الروح والمـلأ الملائـك حولـه ∴ للـدين والـدنيا بـه بشـراء

والعرش يزهو والحظيرة تزدهى ∴ والمنتهى والسدرة العصماء[٣]

وقال فى قصيدته فى ذكرى المولد النبوى :

سلوا قلبى غـداة سـلا وتابـا ∴ لعل على الجَمَـال لـه عتابـا

ويسأل فى الحوادث ذو صـواب ∴ فهل ترك الجمالُ لـه صـوابا؟

---

(١) الديوان جـ١ صـ٤٩٧، ٤٩٨، ٥٠٠ ٠

(٢) الديوان جـ١ صـ٥٠٤ ٠

(٣) الديوان جـ١ صـ٥٩٧ والحظيرة: والحظيرة القدس أى الجنة، المنتهـى: الغاية والنهاية ٠

وكنت إذا سـألت القلـب يومـا ∴ تولى الدمع عن قلبى الجوابـا

ومنها :

ومـا نيـل المطالـب بـالتمنى ∴ ولكـن تؤخـذ الـدنيا غلابـا
وما استعصى على قـوم منـال ∴ إذا الإقدام كـان لهـم ركابـا
تجلى مولـد الهـادى وعمـت ∴ بشائره البـوادى والقضـابا[١]

ومن قصيدته نهج البردة :

رِيمٌ على القاع بين البان والعلم ∴ أحل سفك دمى فى الأشهر الحُرم
رمى القضاء بعينى جؤذر أسـدا ∴ ياساكن القاع أدرك ساكن الأجَم[٢]
لما رنا حـدثتنى الـنفس قائلـةً ∴ ياويح جنبك بالسهم المصيب رمى[٣]
جحدتها وكتمت السهم فى كبدى ∴ جرحُ الأحبة عندى غير ذى ألم
رزقت اسمح ما فى الناس من خلق ∴ إذا رزقت التماس العذر فى الشيم
يا لائمى فى هواه ،والهوى قدر ∴ لو شفّك الوجدُ لم تعذِلْ ولم تلم

ومنها :

صلاحُ أمرك للأخـلاق مرجعـه ∴ فقوم النفس بالأخلاق تسـتقم
والنفس من خيرها فى خير عافيـة ∴ والنفس من شرها فى مرتع وَخِم[٤]

---

(١) الديوان جـ١ صـ٦٠٦ ، ٦٠٩ .
(٢) جؤذر : ولد البقرة الوحشية ،والمراد المحبوبة التى تشبه الجؤذر فى جمال عينيه واتساعها .
(٣) يا ويح : كلمة استرحام .
(٤) الديوان جـ١ صـ٦١٧ ، ٦١٨ ، ٦٢١ ومعنى وخم : رديئ .

وقال فى جمع حافل من السيدات المصريات بمسرح حديقة الأزبكية عام ١٩٢٤م محييا المرأة المصرية بقصيدة كان عنوانها (مصر تجدد مجدها بنسائها المتجددات) :

قم حىّ هذى النيّرات ∴ حىّ الحسانَ الخيّرات

واخفض جبينك هيبة ∴ للخُرَّد المتخفرات

زَيْنُ المقاصر والحجا ∴ لِ وزين محراب الصلاة[1]

وقال فى نقابة الصحفيين:

لكل زمانٍ مضى آيةٌ ∴ وآية هذا الزمان الصُّحُف

لسانُ البلاد ونبض العبا ∴ د،وكهفُ الحقوق وحرب الجَنَف

تسير مسير الضحى فى البلا ∴ د إذا العلم مزق فيها السَّدَف

وتمشى تُعَلِّمُ فى أمة ∴ كثيرةِ مَنْ لا يَخُط الألِف[2]

ومن شعره فى الغزل قصيدة بعنوان (خدعوها) قال فيها:

خدعوها بقولهم حسناءُ ∴ والغوانى يغرُّهُنَّ الثناءُ

أتُراها تناست اسمِىَ لما ∴ كثُرتْ فى غرامها الأسماء

إن رأتنى تميلُ عنى كأن لم ∴ تك بينى وبينها أشياء

نظرةٌ فابتسامة فسلام ∴ فكلام فموعد فلقاء

يوم كنا ولا تسل كيف كُنَّا ∴ نتهادى من الهوى ما نشاء[3]

---

(١) الديوان جـ٢ صـ٢٤ .

(٢) الديوان جـ٢ صـ٦٢ والجنف: الظلم ، السدف : الظلام .

(٣) الديوان جـ٢ صـ٩١ .

وقال فى قصيدة أخرى عنوانها (زمام قلبى) :

على قدر الهوى يـأتى العتـابُ ∴ ومن عاتبتُ يَفْدِيـه الصحـاب

ألـوم مُعَـذِّبِى فـألوم نفسـى ∴ فأغضبُها ويرضـيها العـذاب

ولو أنى اسـتطعت لتُبْـتُ عنـه ∴ ولكن كيف عن روحى المتـاب؟[1]

ومن شعره فى الهجاء قصيدة يشهر فيها بأحمد عرابى، ويهـزأ بطموحه إلى المعالى:

صغار فى الذهاب وفى الإيـاب ∴ أهذا كـل شـأنك يـا عرابـى

عفا عنـك الأباعـد والأدانـى ∴ فمن يعفو عن الوطن المصاب

ومـا سـألوا بنيـك ولا بنينـا ∴ ولا التفتوا إلى القوم الغضاب[2]

وقال فى قصيدة أخرى:

عرابى كيـف أُوفِيـك الملامـا ∴ جمعتَ على ملامتـك الأنامـا

فقف بالتـل واسـتمع العظامـا ∴ فـإن لهـا كمـا لهـمُ كلامـا

سمعت من الورى جِـدّاً وهـزلا ∴ فانصت إذ تقول القول فَصْـلا

كأنـك قاتـلٌ والحكـم يتلـى ∴ عليك وأنت تنتظر الحِمامـا[3]

وهذا الموقف من شوقى فى عرابى يستحق المراجعة والبيان والنقد .

ومن شعر الأغانى والأناشيد قوله فى نشيد الكشافة :

نحـنُ الكشـافةُ فـى الـوادى ∴ جبريـلُ الـروحُ لنـا حـادى

---

(١) الديوان جـ٢ صـ١٠١ .

(٢) الديوان جـ٢ صـ١٧٠ .

(٣) الديوان جـ٢ صـ١٧٦ .

يــا ربِّ بعيســى والهــادى ∴ وبموســى خــذ بيــد الــوطن
كشــافة مصــرَ وصــبْيَتُها ∴ ومنــاةُ الــدار ومُنيتهــا
وجمــال الأرض وحِلْيتهــا ∴ وطلائــعُ أفــراح المُــدُن(١)

وقوله فى نشيد النيل:

النيــلُ العــذب هــو الكــوثرْ ∴ والجنــةُ شــاطئه الأخضــرْ
ريــان الصــفحة والمنظــر ∴ ما أبهى الخُلْــدَ ومــا أنضــر
البحــرُ الفيــاض القُــدُسُ ∴ الساقى الناس ومــا غرسُــوا
وهــو المنــوال لمــا لَبِســوا ∴ والمــنعم بــالقطن الأنــور(٢)

ومن حكاياته الشعرية للأطفال (الثعلب والديك) ، قوله :

بــرز الثعلــب يومــا ∴ فــى شِــعَارِ الواعظينــا
فمشــى فــى الأرض يَهْــدى ∴ ويسُــبُّ الماكرينــا
ويقــول الحمــد للــ ∴ ــه إلــه العالمينــا
يــا عبــادَ الله توبــوا ∴ فهــو كهــف التائبينــا
وازهدوا فــى الطيــر إن الــ ∴ ــعَيْشَ عــيشُ الزاهــدينا
واطلبــوا الــديك يــؤذن ∴ لصــلاة الصــبح فينــا
فــأتى الــديكَ رســولٌ ∴ مــن إمــام الناســكينا
عــرض الأمــر عليــه ∴ وهــو يرجُــو أن يلينــا

---

(١) الديوان جـ٢ صـ٢٤٧ .
(٢) الديوان جـ٢ صـ٢٤٨ .

فأجـــاب الـــديك : عُـــذْرا .:. يــــا أضـــل المهتـــدينا
بلـــــغ الثعلــــبَ عنــــى .:. عــن جــدودى الصـــالحينا
مـــن ذوى التيجـــان ممَّـــنْ .:. دخـــل الـــبطن اللعينـــا
إنهــم قـــالوا وخيـــر الــــ .:. قـــول قـــولُ العارفينـــا:
مخطـــئ مـــن ظـــن يومـــا .:. أن للثعلـــــب دينـــــا[١]

وقوله :

دقاتُ قلــب المــرء قائلــةٌ لــه .:. إن الحياةَ دقــائقٌ وثــوانى[٢]

وقال فى رثاء حافظ إبراهيم :

قد كنتُ أوثر أن تقــولَ رثــائى .:. يا منصفَ الموتى من الأحيــاءِ
لكنْ سَبَقْتَ وكلُّ طــولِ ســلامةٍ .:. قـــدرٌ وكـــل مَنَيَّـــةٍ بقضـــاءِ
الحقُّ نادَى فاستجبتَ ولم تَــزَلْ .:. بالحق تحفِلُ عند كــل نــداء[٣]

وقال فى رثاء جدته :

خُلقنـــا للحيـــاة وللمـــات .:. ومـــن هـــذين كـــلُّ الحادثـــات
ومن يولدْ يعشْ ويمت كأن لــم .:. يمــرّ خيالُــه بالكائنـــات[٤]

---

(١) الديوان جـ٢ صـ٢٩٢ .
(٢) الديوان جـ٢ صـ٥٧٥ .
(٣) الديوان جـ٢ صـ٣٥٩ .
(٤) الديوان جـ٢ صـ٣٩٨ .

ومن شعره فى رثاء مصطفى لطفى المنفلوطى الذى توفى يوم إطلاق الرصاص على الزعيم سعد زغلول :

اخترتَ يوم الهـول يـوم وداع ∴ ونعاكَ فى عَصْفِ الرياح الناعى

هتف النعاةُ ضحىً فأوْصَدَ دونَهم ∴ جُرحُ الرئيس منافذَ الأسـماع

من مات فى فزع القيامةِ لم يجد ∴ قدما تُشَـيِّعُ أو حفـاوةَ سـاع

ماضر لو صبرَتْ ركابُكَ ساعة ∴ كيف الوقوفُ إذا أهابَ الداعى[1]

وقال فى ذكرى دنشواى :

يا دنشوايُ على رُباك سلامُ ∴ ذهبت بأُنْسِ ربوعـك الأيـامُ

شهداءُ حكمك فى البلاد تفرقـوا ∴ هيهاتَ للشمل الشـتيتِ نظـام

مَرَّتْ عليهم فى اللحـود أهلّـةٌ ∴ وقضى عليهم فى القيود العـام

كيف الأراملُ فيكِ بعـد رجالهـا ∴ وبـأىِّ حـال أصـبح الأيتـام

عشرون بيتا اقفـرتْ وانتابَهـا ∴ بعد البشاشة وحشةٌ وظـلام[2]

وقال فى رثاء مصطفى كامل :

المشـرقانِ عليـكَ ينتحبـان ∴ قاصيهما فـى مـأتمٍ والـدَّانى

يا خادمَ الإسلام أجـرُ مجاهـد ∴ فى الله من خُلْد ومن رضـوان

لمانُعيت إلى الحجاز مشى الأسى ∴ فى الزائرين ورُوِّع الحَرَمان[3]

---

(١) الديوان جـ٢ صـ٤٨٣ .
(٢) الديوان جـ٢ صـ٥٤٥ .
(٣) الديوان جـ٢ صـ٥٧٤ .

وقال فى الذكرى السابعة عشر لمصطفى كامل :

إلامَ الخُلْــفُ بيــنكمُ إلامــا ∴ وهذى الضجةُ الكبرى علامــا

وفــيمَ يكيــدُ بعضُــكُم لــبعضٍ ∴ وتبُــدون العــداة والخِصــاما

وأين الفوزُ لا مصــرُ اســتقرَّتْ ∴ على حالٍ ولا السودان دامــا(١)

وقال فى رثاء سعد زغلول :

شيعوا الشمسَ ومالوا بضُـحاها ∴ وانحنى الشرقُ عليها فبكاها(٢)

وقال فى الاحتفال بإنشاء بنك مصر :

يا طالبا لمعالى الملــك مجتهــدا ∴ خُذْها من العلم أو خُذْها من المال

بالعلم والمال يبنى الناسُ مُلْكهمُ ∴ لم يُبْن ملك على جهل وإقلال(٣)

وقال فى المسألة الاقتصادية بعد العودة من المنفى:

ولــيس بعــامر بنيــانُ قــوم ∴ إذا أخلاقُهــم كانــت خرابــا(٤)

وهكذا شمل شعر شوقى سائر فنون الشعر ، فضلا عن تميزه فى كتابة المسرح الشعرى، حيث لم يسبق إليه بالصورة التى قرأناها فــى مصرع كليوباترا ومجنون ليلى وغيرهما ٠

---

(١) الديوان جـ٢ صـ٥٣٨ ٠

(٢) الديوان جـ٢ صـ٥٧٨ ٠

(٣) الديوان جـ٢ صـ٧٠ ٠

(٤) الديوان جـ٢ صـ١٢ ٠

النونية التى قالها فى الأندلسى متشوقا إلى مصر:

نظم أحمد شوقى هذه القصيدة عندما كان منفيا بأسـبانيا، وقالهـا متشوقا إلى مصر ، وواصفا بعض مشاهده بالأندلس، ومنددا بالمحتـل الغاصب لوطنه الذى باعد بينه وبين أهله فى مصر، وقد عارض بهـا ابن زيدون فى النونية المشهورة التى تغزل فيها بولادة وبدأها بقوله:

أضحى التنائى بديلا من تـدانينا ∴ وناب عن طيب لقيانا تجافينـا

مع أن الغرض مختلف بين القصيدتين، فقد اقتصرت نونية ابـن زيدون على حب ولادة بينما تعددت الأغراض فى قصيدة أحمد شوقى، والتى كانت ــ كمال قال الدكتور زكى مبـارك[1] ــ أعجوبـة مـن الأعاجيب، وأرسلها من الأندلس فى أعقاب الحرب العالمية الأولـى، قبل أن يعود إلى وطنه عام ١٩٢٠م.

---

(١) الموازنة بين الشعراء صـ٣٤٩ ، طبع مصطفى البابى الحلبى بمصر عام ١٩٣٦ .

نونية أحمد شوقي في الحنين إلى مصر(*)

أولا ـ مناجاة الحَمام الحزين

١- يا نائح الطلح أشباهٌ عوادينــا ∴ نشجى لواديك أم نأسى لوادينا[١]

٢- ماذا تقص علينا غير أن يــدا ∴ قصت جناك جالت فى حواشينا[٢]

٣- رمى بنا البين أيكا غير سامرنا ∴ أخا الغريب وظلا غير نادينـــا[٣]

٤- كلٌّ رمته النوى رِيش الفراقُ لنا ∴ سهما، وسُلّ عليك البين سكينا[٤]

٥- إذا دعا الشوق لم نبرح بمنْصدع ∴ من الجناحين عَـيٍّ: لا يلبينـــا[٥]

٦- فإن يك الجنس يابن الطلح فرقنا ∴ إن المصائب يجمعن المصابينا[٦]

٧- لم تأل ماءك تحنانـــا ولا ظمـــأ ∴ ولا ادكارا ، ولا شجوا أفانينـــا[٧]

٨- تجرُّ من فنن ساقا إلـــى فـــنن ∴ وتسحب الذيل ترتاد المؤاسينا[٨]

٩- أساة جسمك شتى حين تطلبهم ∴ فمن لروحك بالنُّطُس المداوينا[٩]

(*) الديوان جـ١ صـ١٤٧ توثيق وتبويب وشرح وتعقيب الدكتور أحمد الحوفى .

(١) الطلح : واد بظاهر إشبيلية كان ابن عباد شديد الولع به ، عواد: مصـائب، نشجى: نحزن ، وكذلك نأسى .

(٢) حواشينا : جوانبنا .

(٣) البين: الفراق، الأيك: الشجر الكثير الملتف .

(٤) النوى : الوجه الذى ينويه المسافر . ريش الفراق لنا سهما: ألصق عليه الريش .

(٥) منصدع: متفرق، عى: عاجز، لا يلبينا: لا يستجيب لنا .

(٦) ابن الطلح: كناية عن الحمام .

(٧) ادكارا : تذكرا، شجوا: حزنا، أفانينا: أنواعا وألوانا .

(٨) فنن : غصن .

(٩) أساة : جمع آس وهو الطبيب، والنطس : جمع نطاسى وهو الطبيب .

ثانيا ـ البكاء على الأندلس والحنين إلى مصر

١٠-أها لنا نازِحَىْ أيـك بأنـدلس ∴ وإن حللنا رفيفا مـن روابينـا[١]

١١-رسمٌ وقفنا على رسم الوفاء له ∴ نجيش بالدمع، والإجلالُ يثنينا[٢]

١٢-لفتيةٍ لا تنال الأرض أدمعهـم ∴ ولا مفـارقَهم إلا مصـلينا[٣]

١٣-لو لم يسودوا بدين فيه منبهة ∴ للناس كانت لهم أخلاقهم دينـا[٤]

١٤-لم نَسْرِ من حرم إلا إلى حـرم ∴ كالخمر من بابل سارت لدارينا[٥]

١٥-لما نَبَا الخلد نابت عنه نسخته ∴ تماثُلَ الورد خِيريـا ونِسـرينا[٦]

١٦-نسقى ثراهم ثناء كلما نُثـرت ∴ دموعنا نظمـت منهـا مراثينـا

١٧-كادت عيون قوافينـا تحرِّكُـه ∴ وكدن يوقظن فى الترب السلاطينا

ثالثا ـ الحنين إلى مصر

١٨-لكن مصرَ وإن أغضت على مِقَةٍ ∴ عين من الخلد بالكافور تسقينا[٧]

١٩-على جوانبها رَفَّـتْ تمائمنـا ∴ وحول حافاتها قامت رواقينـا[٨]

---

(١) رفيفا: نديا من الأشجار والخصب .

(٢) رسم: أثر، ورسم الثانية: نظام وسنن . نجيش : نجهش .

(٣) فتية: يقصد ملوك الأندلس .

(٤) منبهة: مجد وشرف.

(٥) الحرم : المقصود: مدن الأندلس، وبابل ودارين: مدينتان كانتا مشـهورتين بالخمر الجيدة .

(٦) خيرى ونسرين: نوعان من الزهر.

(٧) مقة : محبة ، الكافور: شجر ذو رائحة عطرة .

(٨) رفت: وضعت على الرف، أى حفظت وحيكت التعاويذ ، تمائم: جمع تميمة وهى تعويذة تعلق بالصبى. رواقينا: جمع راقية، وهى التى ترقـى الطفـل . درءا للسحر .

٢٠-ملاعبٌ مرحت فيهـا مآربنـا ⁖ وأربـعٌ أنسـت فيهـا أمانينـا

٢١-ومطلعٌ لسعود مـن آواخرنـا ⁖ ومغربٌ لجـدود مـن أوالينـا[١]

٢٢-بنّا فلم نخل من رَوْح يراوحنا ⁖ من برِّ مصر وريحانٍ يغادينـا[٢]

٢٣-كأم موسى،على اسم الله تكفلنا ⁖ وباسمه ذهبت فى الـيم تلقينـا

٢٤-ومصرٌ كالكرم ذى الإحسان فاكهـة ⁖ لحاضـرين وأكـوابٌ لبادينـا[٣]

٢٥-ياسارى البرق يرمى عن جوانحنـا ⁖ بعد الهدوء،ويهمى عن مآقينـا[٤]

٢٦-لماترقرق فى دمع السماء دما ⁖ هاج البكا فَخَضَّبنَا الأرض باكينا

٢٧-الليل يشهد لم تهتـك دياجيـه ⁖ على نيام،ولم تهتـف بسـالينا[٥]

٢٨-والنجمُ لم يرنا إلا علـى قَـدَمٍ ⁖ قيامَ ليل الهوى للعهـد راعينـا

٢٩-كزفرة فى سماء الليل حـائرةٍ ⁖ مما نردد فيه حـين يُضَـوِينا[٦]

٣٠-بالله إن جبتَ ظلماءَ العباب على ⁖ نجائب النور محدوا بجبرينـا[٧]

٣١-ترد عنك يـداه كـل عاليـةٍ ⁖ إنسا يعـثن فسـادا أو شـياطينا

٣٢-حتى حوتك سماء النيل عالية ⁖ على الغيوث، وإن كانت ميامينـا

---

(١) جدور: جمع جد وهو أبو الأب وأفضل من تفسيره بالحظ ٠
(٢) روح : رحمه ورزق ٠
(٣) لحاضرين: مقيمن فى الحضر، بادين: مقيمين فى البادية ٠
(٤) جوانحنا: صدورنا، يهمى: ينصب ٠
(٥) دياجيه : ظلماته ٠
(٦) زفرة: صوت إدخال النفس، يضوينا: يضمنا ٠
(٧) العباب : الموج ، جبرين : جبريل ٠

٣٣-واحرزتك شُفُوف اللازورد على ∴ وشى الزبرجد من أفواف وادينا(١)

٣٤-وحازك الريفُ أرجاءً مؤرجة ∴ رَبَتْ خمائل واهتزت بســاتينا(٢)

٣٥-فقف إلى النيل، واهتف في خمائلــه ∴ وانزل كما نزل الطل الرياحينا(٣)

٣٦-وآس ما بات يَذْوَى من منازلنا ∴ بالحادثات ويَضْوَى من مغانينا(٤)

٣٧-ويا معطرة الوادى سرت سحرا ∴ فطاب كل طروح من مرامينــا(٥)

٣٨-زكية الذيل لو خلنــا غلالتهــا ∴ قميصَ يوسف لم نُحْسَبْ مغالينا(٦)

٣٩-جَشِمْتَ شوك السُّرى حتى أتيت لنــا ∴ بالورد كُتْباً، وبالريــا عناوينــا(٧)

٤٠-فلو جزينــاك بــالأرواح غاليــة ∴ عن طيب مَسْرَاك لم تنهض جوازينا(٨)

٤١-هل من ذيولك مِسْكِيٌّ نحمّلُــه ∴ غرائبَ الشوق وشْياً من أمانينــا(٩)

رابعا ـ فى الشوق والتفجع والحنين

٤٢-إلى الذين وجدنا وُدَّ غيــرهم ∴ دُنْيا،وودهمُ الصافى هــو الــدنيا

٤٣-يا من نغار عليهم من ضــمائرنا ∴ ومن نصون هواهم فــى تناجينــا

---

(١) شفوف : جمع شف وهو الثوب الرقيق ، اللازورد: حجر صــاف شــفاف أزرق، وشى: زخرفة ، الزبرجد : حجر كريم يشبه الزمرد ذو ألوان كثيــرة أشهرها الأخضر والأصفر . أفواف : جمع فوف والمراد الخميلة .

(٢) مؤرجة : معطرة ، ربت : نمت .

(٣) الطل : أضعف المطر .

(٤) آس : واس ، يذوى: يذبل ، يضوى: ينهدم .

(٥) سحرا : آخر الليل، طروح : بعيد .

(٦) غلالتها : ثوب الرقيق الذى يلبس تحت الدثار .

(٧) جشمت : تحملت ، الريا: الرائحة العطرة .

(٨) جوازينا: جمع جازية وهى الثواب.

(٩) وشى : زخرفة .

٤٤-جئنا إلى الصبر ندعوه كعادتنا ∴ فى النائبات فلم يأخذ بأيدينا

٤٥-وما غُلبنا على دمع ولا جَلَدٍ ∴ حتى أتتنا نواكم من صَياصينا[(١)]

٤٦-ونابغىٍّ : كأن الحشرَ آخرُه ∴ تُميتنا فيه ذكراكم وتُحْيينا[(٢)]

٤٧-نطوى دُجاه بجُرْحٍ من فراقكمُ ∴ يَكادُ فى غلس الأسحار يطوينا[(٣)]

٤٨-إذا رسا النجم لم تَرْقَأْ محاجرنا ∴ حتى يزول، ولم تهدأ تراقينا[(٤)]

٤٩-بتنا نقاسى الدواهى من كواكبه ∴ حتى قعدنا بها حَسْرى تُقاسينا[(٥)]

٥٠-يبدو النهارُ فيُخْفيه تجلدنا ∴ للشامتين ويأسُوه تأسينا[(٦)]

خامسا : ذكرياته عن مصر ، وفخره بها، وشوقه إليها

٥١-سُقيًا لعهد كأكناف الربَّى رِفَةً ∴ أنى ذهبنا وأعطاف الصَّبا لينا[(٧)]

٥٢-إذ الزمانُ بنا غيناءُ زاهيةٌ ∴ تَرِفُّ أوقاتنا فيها رياحينا[(٨)]

٥٣-الوصلُ صافيةٌ، والعيش ناغيةٌ ∴ والسعد حاشيةٌ والدهر ماشينا[(٩)]

---

(١) الصياصى: جمع صيصية وهى الحصن .

(٢) نابغى : المراد ليل طويل إشارة إلى ليل النابغة فى قوله :

كلينى لهمٍ يا أميمة ناصبِ ∴ وليلٍ أقاسيه بطيئ الكواكبِ

(٣) غلس : ظلمة آخر الليل .

(٤) لم ترقأ محاجرنا : لم تكف عن الدمع ، تراقينا : جمع ترقوة وهى عظمة بين ثغر النحر والعاتق.

(٥) يأسيه تأسينا : يعالجه تصبرنا.

(٦) رفة : نضرة .

(٧) غيناء: شجرة كثيرة الأغصان ، ملتفة الورق ناعمة ، ترف: تهتز .

(٨) صافية خبر جاء مؤنثا؛ لأنه أراد بالوصل الصلة، وكذلك ناغية؛ لأنه أراد بالعيش الحياة، ومثله كثير فى كلام العرب.

(٩) العقبان: الذهب، ترفل: تمشى متبخترة، وشى اليمانين : زخرفة أهل اليمن.

٥٤-والنيل يقبل كالدنيا إذا احتفلت ∴ لو كان فيهـا وفـاءٌ للمصـافينا

٥٥-والشمس تختال فى العقْيان تحسَبُها ∴ بلقيس ترفُلُ فى وشـى اليمانينـا[١]

٥٦-والسعدِ لو دام،والنُّعمى لو اطردتْ ∴ والسيلِلو عفَّ،والمقدارِ لـو دينـا[٢]

٥٧-ألقى على الأرض حتى ردها ذهبـا ∴ ماءً لمسنا بـه الإكسـير أو طينـا[٣]

٥٨-أعداه من يُمْنه التابوتُ وارتسمت ∴ على جوانبه الأنوار مـن سـينا[٤]

٥٩-له مَبالغُ ما فى الخلق من كرم ∴ عهدُ الكـرام وميثـاق الوفيينـا

٦٠-لم يَجْر للدهر إعذارٌ ولا عُرُسٌ ∴ إلا بأيامنـا أو فـى ليالينـا[٥]

٦١-ولا حَوَى السعدُ أطغى فى أعنته ∴ منـا جيـادا ولا أرخَـى ميادينـا

٦٢-نحن اليواقيتُ خاض النارَ جوهرُنا ∴ ولم يَهُنْ بيد التشـتيت غالينـا[٦]

٦٣-ولا يَحُولُ لنا صِبْغٌ ولا خُلُـق ∴ إذا تلـون كالحربـاء شـانينا[٧]

٦٤-لم تنزل الشمس ميزانا ولا صَعِدَتْ ∴ فى ملكها الضخم عرشا مثل وادينـا

٦٥-ألم تُؤَلَّهْ علـى حافاتـه ورأت ∴ عليه أبناءَهـا الغُـرَّ المياميـنـا

٦٦-إن غازلت شاطئيه فى الضحى لبست ∴ خمائل السندس الموشَّـية الغينـا[٨]

٦٧-وبات كل مُجاج الواد من شجر ∴ لوافظَ القز بالخيطـان ترمينـا[٩]

---

(١) العقيان : الذهب ، ترفل : تمشي متبخترة ، وشي اليمـانين زخرفـة أهـل اليمن.

(٢) دين : خضع.

(٣)الإكسير : مادة نحاس يزعم القدماء أنها تحول المعدن الرخيص إلى ذهب

(٤) التابوت: المقصود تابوت موسى.

(٥) إعذار : طعام الختان .

(٦) اليواقيت: جمع ياقوت وهو معدن كريم صلب .

(٧) يحول : يتغير .

(٨) الغين : جمع أغنن وهو الأخضر.

(٩) مجاج : ما تخرجه الأرض والشجر .

٦٨-وهذه الأرضُ من سهل ومن جبـل ∴ قبــل القياصـــر دنّاهـــا فراعينـــا

٦٩-ولم يضع حجرا بانٍ على حجر ∴ فى الأرض إلا على آثار بانينـــا

٧٠-كأن أهرامَ مصرٍ حائطٌ نهضت ∴ به يد الــدهر لا بنيـــانُ فانينـــا

٧١-إيوانُه الفخم من عُليا مقاصره ∴ يُفْنى الملوك ولا يُبْقى الأواوينا[1]

٧٢-كأنها ورمالا حولها التطمــت ∴ ســفينةٌ غرقَــتْ إلا أســـاطينا[2]

٧٣-كأنها تحت لألاء الضحى ذهبا ∴ كنوزُ فرعون غَطَّيْنَ الموازينا[3]

٧٤-أرضُ الأبوة والميلاد، طيَّبَهَــا ∴ مَرُّ الصِّبا فى ذيولٍ من تصـــابينا

٧٥-كانت محجَّلة، فيهـــا مواقفنـــا ∴ غُرًّا مسلسلة المجرى قوافينـــا[4]

٧٦-فآب من كُرَةِ الأيـــام لاعبنـــا ∴ وثاب من سِنة الأحلام لاهينـــا[5]

٧٧-ولم نَدَعْ لليالى صافيا فـــدعت ∴ بأن نَغَصّ فقال الــدهر آمينـــا[6]

٧٨-لواستطعنا لخضنا الجو صـــاعقة ∴ والبرَّ نارَ وَغَىً والبحرَ غِسْـلينا[7]

٧٩-سعيا إلى مصرَ نقضى حق ذاكرنا ∴ فيهـــا إذا نَســـى الـــوافى وباكينـــا

---

(١) الأواوين: جمع إيوان، وهو مجلس كبار القوم، والمراد القصور٠

(٢) الأساطين: جمع أسطوانه وهى السارية ٠

(٣) لألاء : لمعان وبريق ٠

(٤) محجلة: مشهورة من التحجيل فى قوائم الفرس وهو بياض فيها، غر: جمع أغر . أو غراء وهى المشهورة من الغرة وهى بياض فى جبهة الفرس٠

(٥) ثاب : رجع . سنة : غفلة ٠

(٦) نغص :نشرق ٠

(٧) غسلين: صديد أو ماء شديد الحرارة ٠

سادسا ـ شوق الشاعر إلى أمه

٨٠-كنز بُحلْوانَ عنـــد الله نطلبُـــه ∴ خيرَ الودائع من خير المؤدِّينا[١]

٨١-لو غاب كلٌّ عزيز عنه غيبتنا ∴ لم يأته الشوق إلا مـــن نواحينـــا

٨٢-إذا حمَلْنا لمصرٍ أولَـــه شَـــجَناً ∴ لم ندر أىَّ هوى الأُمَّيْنِ شاجينا[٢]

مناقشة الأفكار :

هتف أحمد شوقى بهذه النونية فى الأندلس مغبرا عن حنينه إلـــى مصر ، واشتياقه لحضارتها وآثارها ومعالمها البارزة ،التى بقيت حية فى وجدانه، مثل النيل والأهرامات وغيرها من المنـــاظر الطبيعيـــة، وكذلك تعددت الأفكار الجزئية فيها مع أن الباعث العام لها هو الحنين إلى الوطن ، وقد استقلت الأبيات التسعة الأولى بمخاطبة الطائر النائح فى وادى الطلح بناحية إشبيلية ، وتمثله فى لوعته وحزنـــه وأســـاه ، وهكذا اتفق شوقى مع ابن زيدون فى البداية الحزينة، وإن كانت الفكرة عند ابن زيدون واحدة غير مجزأة تناول الشاعر فيها شـــكوى البـــين والأعداء اختلاف فى عدد الأبيات فى الفكرة الواحدة ، وفى مجمـــوع أبيات كل قصيدة بشكل عام حيث ابتدأ ابن زيدون نونيته بقوله:

أضحى التنائى بديلا من تـــدانينا ∴ وناب عن طيب لقيانا تجافينـــا

ألا؛ وقد حانَ صبحُ البين صبحنا ∴ حَيْنٌ فقام بنا للحـــين ناعينـــا

مَنْ مُبلغ الملبســـينا بـــانتزاحهم ∴ حزنا مع الدهر لا يبلى ويبلينا

أن الزمانَ الذى ما زال يُضحكنا ∴ أنسا بقربهمُ قد عـــاد يبكينـــا

غيظ العِدا من تساقينا الهوى فدعوا ∴ بأن نَغَصّ فقـــال الـــدهرُ أمينـــا

---

(١) كنز بحلوان : يقصد والدته .

(٢) شجنا: حزنا .

ثم انتقل شوقى إلى البكاء على الماضى والحاضر، ماضى الأندلس بما فيه من أسى ولوعة على فقدان الحضارة العربية فى أسبانيا وحاضر مصر الذى تئن فيه تحت احتلال أجنبى بغيض، وجاء تصوير هذه الوقائع فى ثمانية أبيات انتقل من مناجاة الطائر إلى البكاء على الأندلس والحنين إلى مصر وقد بدأ ذلك بقوله:

أها لنا نازحى أيك بأندلس ∴ وإن حللنا رفيفا من روابينا

رسم وقفنا على رسم الوفاء له ∴ نجش بالدمع والإجلال يثنينا

لفتية لا تنال الأرض أدمعهم ∴ ولا مفارقهم إلا مصلينا

لو لم يسودوا بدين فيه منبهة ∴ للناس كانت لهم أخلاقهم دينا

وأهم الفروق بين النونيتين هو أن ابن زيدون يتغزل فى ولادة غزلا عفيفا راقيا وبمعالجات وأفكار مبتكرة لم يسبق إليها، أما شوقى فشوقه إلى تاريخ العرب فى الأندلس وحاضر المصريين ماثل فى الواقع المعاش.

وانتقل أحمد شوقى إلى تصوير حنينه إلى وطن النيل ورصد ذكرياته، ووصف مناظره، ومناجاة النسيم فيه، وتجسد ذلك فى قرابة أربعة وعشرين بيتا من (١٨ ــ ٤١) ومنها قوله :

بنا فلم نخل من روح يراوحنا ∴ من بر مصر وريحان يغادينا

كأم موسى على اسم الله تكفلنا ∴ وباسمه ذهبت فى اليم تلقينا

ومن خطابه للبرق قوله :

ياسارى البرق يرمى عن جوانحنا ∴ بعد الهدوء ويهمى عن مآقينا

وفيها :

ويا معطرة الوادى سرت سحرا ∴ فطاب كل طروح من مرامينا

زكية الذيل لــو خلنــا غلالتهــا ∴ قميص يوسف لم نحسب مغالينا

ويعود إلى الشوق والتفجع والحنين إلى أحبابه فى أرض الــوطن فيناجيهم ، ويستعين بالصبر لكى يتسلى بالابتعاد عنهم ويطــول الليــل الذى يقضيه فى تذكرهم ، دون أن تهدأ دموعه ودواهيه ٠

وانتقل إلى الحديث عن ذكرياته فى مصر، وفخره بهــا وشــوقه إليها ، طلبا السقيا لعهده وأيامه بها ، منوها عــن آثارهــا ومظــاهر الحضارة فيها مثل الأهرامات والنيل والســهول والريــف وشــواطى البحار ،وجمال الآثار وغيرها ٠

ثم يختم القصيدة بشوقه إلى أمه حيث كانت تقيم فى حلوان وأمــه التى تشجيه وهى وطنه الكبير الذى لم يغب حبه عن قلب الشاعر أثناء نفيه إلى بالأندلس ٠

إيضاح المضمون :

(١ ــ ٩) :تمثل شوقى الحمــام الحــزين فــى وادى الطلــح بضاحية أشبيلية ورواه شبيها به فى الغربة وفقــد الأليــف، والطــائر يحكى مأساته ، وأن يد الحزن قصت جناحه فاعجزته عــن الحركــة، وأنها ذات المأساة التى لحقت بالشاعر، وجالت فى شتى جوانبه ٠

وأن النكبة مشتركة بين الشاعر والطائر ، فصوب الســهم إلــى الأول، وسل السكين على الثانى ، وأنهما لا يستجيبان لنــداء الشــوق،

ولا يبرحان موطن الغربة ؛ بسبب ما لحق بهما من قص الأجنحة، والعجز عن الطيران، فلم يعودا يستجيبان لنداء الشوق.

ومع أنهما لا ينتميان إلى جنس واحد، لكنهما يخضعان لمصائب واحدة تجمع بينهما، وأن الطائر لم يغادر مواطن حياته، على ما فيها من ألوان لشتى طموحاته وأنه ينتقل على غير هدى، من غصن إلى آخر ، باحثا عمن يواسيه، وأنه يجد من يداوى جسمه، لكنه لا يجد من يطبوا روحه، وأين هم منه ؟

(١٠ ــ ١٧) : واينتقل الشاعر إلى البكاء على الأندلس والحنين إلى مصر، ويتأوه على النازحين المغتربين فى الأندلس ، حتى لو نزل على الروابى الندية ، والأثر الذى حل عليه بمنهج الوفاء والالتزام، فكان الدمع تعبيرا عما نفسه، لكن تعظيم هذه المواطن يمنع من التهاوى والإذلال والبكاء.

ذلك لأنه فى ديار قوم لم تسقط دموعهم على الأرض إلا عند السجود ، فهم لم يعرفوا الخشوع إلا لله تعالى، وأنهم سادوا الآخرين بالدين الذى أيقظ الناس ، ولو لم يكن لديهم هذا الدين لكانت أخلاقهم هى الدين الذى يسود الناس.

والشاعر ــ فى منفاه ــ لا يسرى من حرم إلا إلى حرم، كالخمر سارت من بابل إلى دارين، وذلك التشبيه غير مناسب للموقف ، وإن جاز فى أساليب الشعراء .

ولما اضطرب الخلد ، واهتز الاستقرار ملت محله صورة جديدة مثل الورد الذى يماثله الخيرى والنسـرين ، أى أن ملـوك الأنـدلس ينتقلون من حالة إلى أخرى أفضل منها، وأنهم أهل للثناء الذى نسـقى ترابهم به حيث ننظم منه أروع قصائد الرثاء ، وتحركه أروع القوافى التى كانت توشك أن توقظ وتبعث الحياة فيمن مات منهم ·

(١٨ ــ ٤١) وينتقل إلى التعبير عن حنينه إلى بلده، فـإذا كانت قد تحولت عنه (أى عن الشاعر) على محبة وود، وغضت عينها عنه فهى عين الخلد والبقاء التى تمـنح العطـاء والـروائح الجميلـة وتصون فى كل جوانبها أبناءها بالتمائم، وتحرسهم بالرقى والأدعيـة على كل شواطئها وحافاتها، وأنها شهدت إنماء المآرب وأنس الأمانى، وسعادة الأواخر وحظوظ الأوائل، وأنه ــ مع اغترابه ــ لم يخل مـن الرحمة التى يحملها فى أعماقه، والرزق الذى يراوحه فى آخر النهار والريحان الذى يتنسم عبيره فى أوائل اليوم، وأنها كـأم موسـى فـى المودة والعطف، فقد كفلته باسم الله تعالى، وبه أيضا ألقته فى اليم أمام بيت فرعون ، أى أنها عطوفة عليه بمثل عطف أم موسى عليه·

وأنها مثل الكرم فاكهة للمقيمين فى الحضر وأكواب مليئة بالبذخ وأسباب الحياة لأهل البادية·

وأما عن مناجاة شوقى للبرق السارى، فقد أعطى ــ كمـا قـال الدكتور زكى مبارك : "صورة شعرية لتنقل البرق من أفق إلى أفـق ،

وانحداره من أرض إلى أرض ، وأعطى صورا مـن ريـف مصـر وخمائل النيل لا تشوق إلا شاعرا ودع دنياه حين ودع النيل"[١].

ويصور الليل بما فيه من الدياجى الساكنة التى لـم نهتـك فيهـا النائمين، وإنما نصونهم ولا نستدعى من جفانا وابتعد عنـا ، ويشـهد النجم سهر ليالينا مراعاة للعهد وصونا للود ، ويبقى فى تذكرنا صوت حائر فى سماء الليل عندما يضمنا بسكوته وصـمته الـذى يشـملنا، ويواصل حديثه عن النيل عند امتطاء نجائب النـور وجبريـل يقـود الركب عندما يجوب ويقطع الأمواج ، وملاك الوحى يحرس الركـب، ويرد عنه عوادى الإنس وشياطين الجن ، حتى ارتقت السماء به فوق السحاب المحملة بالغيث، وهو مكسـوا بـالملابس الرقيقـة الشـفافة المزخرفة بما يشبه الزمرد بالألوان الكثيرة وكل ذلك صورة للخميلـة التى يعلو عليها ويكتسى بها . وتحوطه المناظر الريفية بما تشكله مـن خمائل نامية وبساتين مهتزة ، وفى حديثه الذى خاطب به البرق يـود أن يهتف فى خمائل النيل ، وأن ينزل بالمطر الخفيـف الـذى ينشـر العطر والروائح ، ويواصل تحميل البرق السارى رسائله حيث طلـب منه أن يواسى المنازل التى توشك أن تتساقط، وأن يواسى أيضـا مـا أوشك على التهدم من أماكن للهو والغناء.

ثم وصف النسمة بأنها معطرة الوادى، وأنها تحركت فى وقـت السحر، فطاب بسيرها كل مرمى سحيق ، وأنها طاهرة نقيـة كأنهـا

---

(١) الموازنة بين الشعراء صـ٣٥٤ .

قميص يوسف، وأنها جشمت شوك السرى حتى أتت بالورد مجسما فى رسائل، وأتت بالريا ممثلة فى عناوين ، وشكر لها هذه النعمى التى لو قدم لها الأرواح عن هذا الصنيع لم يكن ذلك كافيا، ثم تساءل عن توابع لها يحملها الشوق ،والأمانى الملونة، لعلها تخفف عنه لوعة الفرقة والاغتراب •

ويواصل شوقى فى الأبيات المتبقية من (٤٢ ــ ٨٢) بعث شوقه وحنينه إلى الوطن ، كما أشرنا فى إيضاح الأفكار، ذلك لأن طول القصيدة يجعل منها بحثا طويلا أكثر من كونها أبياتا فى مجموعة من الأفكار المحددة المقدمة إلى الدارسين فى مستوى محدد ومرتبط ببرنامج زمنى لا يمكن تجاوزه •

من ملامح التعبير والتصوير والحالة الشعورية فى الأبيات المشروحة:

إن خطاب الطائر الحزين سمة بارزة فى مطالع القصائد القديمة وفى الأشعار الحديثة التى انتهجت سبل القدماء، وهذا ما لجأ إليه أو التزم به أحمد شوقى فى هذه النونية الشهيرة التى كان الباعث عليها حب مصر فضلا عن بعض الأفكار الأخرى التى هتف بها من منفاه بالأندلس قبل رجوعه إلى مصر .

وقد ارتبطت أفكار النص العامة أو الجزئية بالشاعر وبعاطفته الصادقة لعلاقتها بحالته النفسية، ومحاولته التأسى والصبر على الخطب الفادح ، والمعاناة فى الغربة الحزينة، وكان احتكامه أو خضوعه للعاطفة الصادقة القوية دافعا للإغراق فى الخيال مما استلزم الغوص وراء المعانى والجد فى طلبها، وكان صدق عاطفته ناشئا عن سبب غير زائف، كما أن قوتها من أهم المقاييس النقدية، فى الحكم على التجربة بالصدق أو الكذب.وفى الحزن أو الفرح، كما أن ثبات العاطفة وتنوعها يسفر عن مقدرة لدى بعض الشعراء فى إثارة العواطف فى النفوس بدرجة قوية مثل الحماسة والفخر، ومثل الحزن أو الحب.

والأديب البارع يدرك ما فى الأشياء من أسباب الروعة أو الإشفاق ، ثم يعرضها كأنها حقيقة ملموسة أو مفسرة مصورة أو مجسمة ، فنصل بها إلى درجة من الإعجاب أو الإشفاق.

والخيال الصادق وليد العاطفة الصادقة، ولأنه خير وسيلة لتصويرها لأهميتها فى فن الأدب شعرا أو نثرا، وما دام الخيال خاضعا لمزاج الأديب وطبيعته، فمن الطبيعى ألا يدرك أديبان أو أكثر الأشياء شعور واحد، ولذلك كان التصوير مختلفا من أديب لآخر، إلا إذا كان أحدهما ناقلا لغيره أو كان المعنى واحدا مشتركا أو مطروحا فى الطريق على حد قول الجاحظ ٠

ومن هنا كانت العاطفة ووليدها الخيال مهمين فى التفرقة بين نص وآخر ، ومهمين أيضا فى استدعاء المعانى وإبراز الصور، وإحكام الصنعة اللفظية أو الأسلوبية، واستدعاء حوادث التاريخ وإسقاطها حسب رؤية الشاعر ومتطلبات الموضوع وغرض النص٠

١ - عندما يناجى الشاعر نائح الطلح الحزين، ويخاطبه مستعيرا له صورة الإنسان يكون الخطاب تعبيرا عن حزن طاغ يشتمل الشاعر بمثل ما يعانى منه الطائر، ويتساءل شوقى فى حيرة عن حزنه ودواعيه فهل هو للأندلس التى ولت أم لمصر التى احتلت؟

وتأتى مفردات البيت كله مواكبة للهموم التى بدأ الشاعر معها تصوير حالته (النائح ــ عوادينا ــ نشجى ــ نأسى) ٠

٢ - واعتبر شوقى نوح الطائر حكاية لحزنه، وقوله : "أن يدا قصت" استعاره تجسد حالة الحزن التى اشتملت الطائر والشاعر، و(أن هذه اليد التى قصت الجناح، ثم حالت) استعارة أى أنها قصت

جناح الطائر ثم جالت فى جوانب الشاعر، وقص جناح الطـائر حرمان له من الطيران والحركة (كناية) وأنها جالت فى جوانب الشاعر (استعارة) وتبقى المفردات فـى إيحاءاتهـا الحزينـة ؛ لتواكب الحالة الشعورية لهذه المقدمة المفجعة.

٣ – رمى بنا البين (مكنية) وتفيد الصياغة نفى الشـاعر مـن أيكـة وظله؛ ليكون أخا للطائر الحزين بالأندلس، وتبقـى المفـردات متواكبة وواسعة الدلالة فى ترك الـوطن والاغتـراب، و(أخـا الغريب) استعارة مكنية مؤكدة لمكونات هذا المطلع الحزين .

٤ – ويستمر تدفق المعنى فى اقتسام الأحزان بين الشاعر والطـائر فالشاعر رماه الفراق (استعارة) واستعارة أخرى فى الجملة التى تليها، وأخرى فى (وسل عليك البين سكينا).

٥ – إذا دعا الشوق (استعارة) وبمنصدع مـن الجنـاحين (اسـتعارة أخرى) ثالثة فى نهاية البيت، وهكـذا تتواصـل الاسـتعارات استجابة للخيال الواثب ، والعاطفة القوية الصادقة والثابتة فـى الحالة الشعورية الملازمة لكل من الغريبين بالأندلس .

٦ – ويأتى البيت السادس مصورا لحالة هذا الالتزام، وقوله : يا ابن الطلح (استعارة) .

٧ – والخطاب مستمر إلى الطائر (تشخيص) .

٨ - وتبقى حالة الحزن عند الشاعر واضحة الأثر على الطائر، حيث يجر الساق، ويسحب الذيل، ويرتاد المؤاسين ، وكلها واضحة الدلالة فى بيان الحزن وحالة الانكسار ٠

٩ - وإذا كان جسم الحمام يجد معالجا له، فمن أين يأتى بالمعالجين لروحه، والرؤية واضحة فى هذه الأبيات التسعة التى تمثل المطلع الحزين الذى يجمع بين الشاعر ونائح الطلح ٠

١٠ - ويتوجع الشاعر على نفسه وعلى الطائر ، حتى لو كان المقام رطبا نديا٠

١١ - وبين رسم ورسم جناس ، والإجلال يثنينا (استعارة) ٠

١٢ - ويبدأ البيت ـ بذكر رجال الأندلس وهم فتية (شباب) صامدون لا يبكون إلا فى الصلاة (عقيدة وإيمان) ٠

١٣ - ولهم دين يدعوهم إلى الخير، وأخلاق بمثابة الدين الذى يوجههم إلى الخير ويردعهم عن الشر ٠

١٤ - والسير فى الأندلس من مدينة إلى مدينة كلتيهما تشبه الحرم مثل الخمر (فى عرف الشعر) تنتقل من بابل إلى دارين وهما مشهورتان بالخمر الجيدة المعتقة ٠

١٥ - وهم فى جنان خالدة تحل الصورة صورة منها بديلا عن الأخرى مثل الورد الذى يحل زهر الخيرى والنسرين محله ٠

١٦ - وأنهم أى أهل الأندلس ذوو مكانة مرموقة وأهل لكل ثناء طيب حتى إننا نسقى ترابهم بهذا الثناء الذى ننظم منه أروع قصـــائد الرثاء.

١٧ - وهذا الثناء تكاد أشعارنا تحركه فى ترابهم، توشك هذه المراثى أن تبعث منه الملوك والسلاطين .

١٨ - شبه الشاعر مصر بأنها عــين مــن الخلــد، وإن أغضــت ، وبالكافور تسقينا (استعارتان) .

١٩ ــ وتستمر عاطفة الشاعر فى بعث شوقه وحنينـــه إلـــى مصـــر، متذكرا التمائم بما فيها من مدلول شعبى، ومستدعيا الرواقى بما تحمله من دلالات إيمانية .

٢٠ - وأنها تمثل للشاعر ملاعب اللهو التى مرحت فيهـــا المـــآرب (استعارة) وأماكن اللهو فى الربيع، التى أنست فيهـــا الأمـــانى (استعارة) .

٢١ - وتتوالى تعبيراته بالموازنة بين المطلـــع والمغـــرب (طبـــاق) وكذلك الأواخر والأوالى (طباق) .

٢٢ - وأن الشاعر ــ مع ابتعاده عــن أرض الــوطن ــ لا زالــت الروائح تهل عليه فى المساء، والريحان الذى يطل عليـــه فـــى الصباح وانظر لقوله يراوحنا ويغادينا إشعارا بـــأن النســـائم لا تنقطع عنه من أرض الوطن .

٢٣ – وأن مصر مثل أم موسى مودة وعطفا، فقد نفى منهـا بعيـدا عنها ، لكنها كانت متعلقة ، وكان شديد الحب لها، وذلـك مثـل حالة أم موسى، والتشبيه فى حد ذاته يمثل حالـة بحالـة مـع استدعاء حوادث التاريخ ، لبيان عاطفته وشدة معاناته .

٢٤ – وشبه مصر بفاكهة الكرم التى تقدم للمقيم فى الحضر، وأكواب الراح التى تقدم لأهل البادية، ثم انظـر للطبـاق الـذى يلائـم الصورة التشبيهية بين أهل الحواضر وأهل البوادى .

ويخاطب البرق السارى ـــ على عادة القـدماء ـــ ومـنهم ابـن زيدون الذى قال :

يا سارى البرقِ غادِ القصرَ واسق بهِ

مَنْ كان صِرف الهوى والود يَسْقِينا

لكن المشوق إليه مختلف بين الشاعرين فهو ولادة عند عاشـقها ابـن زيدون ، وهى مصر عند محبها أحمد شوقى ، والذى شخص البـرق وجعله إنسانا يستمع للمناجاة، ويرمى، ويهمى وهذا من روائع الخيـال الواثب ، والذى يلائم أجواء الشوق والحنين .

٢٦ – ثم ارجع إلى هتاف العاشق لما ترقرق دمع السماء ، وهـاج البكاء وخضبنا الأرض بالدموع ، وهكذا تتوالى الصور الخيالية وليدة العاطفة الصادقة العميقة .

٢٧ - واقرأ هذه الصياغات المتميزة ــ الليل الشـهير، لـم تهتـك دياجيه، ، ولم نهتف بسالينا، وكلها صور متتاليـة تعبـر عـن المناظر الطبيعية وإيحاءتها الملائمة لجو الحب والعشق والهيـام للوطن البعيد ٠

٢٨ - والنجم لم يرنا ــ و ــ إلا على قدم ــ قيام ليل الهوى للعهـد راعينا ــ وكل صورة خيالية لنث إلا قفزة من قفزات الخيـال، ووثبة شاعرية لا يقدمها إلا أمراء الشعر٠

٢٩ - والزفرة فى سماء الليل (الحائرة) حين يضـوينا (اسـتعارة)، وتتوالى الأبيات فى عشق الـوطن ، وغنـاء الليـل، والزفـرة الحائرة هى حيرة الشاعر فى غربته ٠

٣٠ - بالله (قسم) وتحول إلى الأسلوب الإنشائى، وظلماء العبـاب ، ونجائب النور (الظلماء والنور) محدوا صورة بدوية قديمـة ــ وجبرين (جبريل) دلالة ورمز إلى الملامح الإيمانية ٠

٣١ - والصور متتالية فى سماء الليل ، وظلماء العبـاب ، والعبـور بنجائب النور، والتباين بين الإنس والشياطين ٠

٣٢ - وسماء النيل العالية ــ وحوتك سماء النيل (استعارة)٠

٣٣ - وطار إلى الأكوان والأزهار المتعددة على جوانب الوادى٠

٣٤ - ثم انتقل إلى الريف؛ لتكتمل صورة البساتين، وتنمو الخمائـل المعطرة فى أرجاء الوطن ٠

٣٥ - ويتواصل الحنين إلى النيل ، وترنو النفس إلى الهتاف فى الخمائل ، والنزول كالمطر بروائحه المعطرة .

٣٦ - وتستمر الحسرة والرغبة فى المواساة للمنازل التى أخذت تتضاءل، والمعانى (أماكن اللهو، والغناء) التى شرعت فى التفانى والانهزام .

٣٧ - ووصف الشاعر النسمة بأنها معطرة الوادى، وأنها سارت فى السحر ، وقد طاب بمسراها كل مرمى سحيق.

٣٨ - ذكية الذيل كناية عن الطهارة والنقاء ، وكأنها قميص سيدنا يوسف .

٣٩ - وأنها جشمت شوك السرى حتى أتت بالورد مجسما فى رسائل وأتت بالريا ممثلة فى عناوين[١].

٤٠ - وأن الأرواح لا تكفى لمجازاة مصر عن طيب مسراها.

٤١ - وينتقل إلى الاستفهام عما يمكن أن يكون لديها ما يحمل عليه أشواقه الغريبة المزخرفة ، إذ أنها الأمانى التى يطمح فيها ويحرص عليها .

ولا شك فى أن قصيدة أمير الشعراء كانت اثنين وثمانين بيتا وهو قدر كبير فى عالم الشعر الحديث ، أما نونية ابن زيدون فلها فضل السبق والتقدم ، لكن أبياتها فى حدود الخمسين حيث تزيد أو تنقص حسب الرواية المختارة، وقد كانت فى موضوع واحد وفكرة عامة واحدة أما نونية شوقى فلها ميزة الإجادة، وإطالة النفس وروعة الأداء وتعدد الأفكار ، وعمق الخيال ، مما ولد بعض المعانى والصور الغامضة لدى المتلقى ، الذى لم يكثر تعامله مع هذا الشكل من الأداء.

---

(١) الموازنة بين الشعراء صـ٣٥٥ زكى مبارك .

إبراهيم ناجى

شاعر العودة والإطلال

ولد الشاعر إبراهيم ناجى بن أحمد ناجى بن إبراهيم القصبحى ، عام ١٨٩٨م فى القاهرة ، وتخرج من مدرسة الطب العليا عام ١٩٢٣م وعمل بالطب ، وكتب فى الأدب شعرا ونثرا ، وأخرج عدة كتب منها رسالة الحياة ،وعالم الأسرة ، ومدينة الأحلام، وقصص ومحاضرات، وكيف تفهم الناس، كما أصدر مجلة حكيم البيت (شهرية) فى عام ١٩٣٤ ، وأصيب بمرض الصدر، ومات أثناء الكشف على أحد مرضاه فى الخامس والعشرين من مارس عام ١٩٥٣م فى القاهرة٠

وطبع ديوانه الأول عام ١٩٣٤، وبدا فيه وجدانيا (رومانتيكيا) حالما، ومنه قصيدة العودة التى سنعرض لها ، ثم اتبعه بعد فترة طويلة بالنسبة لحياة الشعر فى عام ١٩٤٧ بالديوان الثانى (ليالى القاهرة) ، وتجسدت فيه النزعة الإنسانية، ثم طبع بعد وفاته الديوان الثالث له وهو (الطائر الجريح) عام ١٩٥٣م٠

وقد بدا (ناجى) فى ديوانه الأول عاطفيا مستغرقا فى التأمل والحيرة، كما جدد فى فنه كشأن معظم شعراء أبوللو فى مضمون القصيدة وشكلها تجديدا واسعا٠

ويمثل الجيل الثانى من شعراء العصر الحديث بعد البارودى وشوقى وحافظ ٠

وقد زادت شهرته بين عامة الناس بقصيدة الأطلال التى غنتها الفنانة (أم كلثوم) والواقع أن ما غنته فى هذه القصيدة لم يكن كله منها، وإنما ضم إليها أبياتا من قصيدة (الوداع)، وكانت وحدة النغمة فى شعر ناجى تيسر الانتقال من قصيدة إلى أخرى دون أن يشعر المتلقى أية فروق فى الصور والأفكار.

ومن شعره الذى يغنى أيضا قصيدته عن مصر والتى تبدأ بقوله:

أجلْ إن ذا يوم لمن يفتدى مصرا ∴ فمصر هى المحراب والجنة الكبرى

حلفنا نولى وجهنا شطر حبها ∴ وننفذ فيه الصبر والجهد والعمرا

نبث فيها روح الحياة قوية ∴ ونقتل فيها الضنك والذل والفقرا[1]

وقال فى مقدمة (الإطلال) :

"هذه قصة حب عاثر: التقيا وتحابا، ثم انتهت القصة بأن صارت أطلال جسد ، وصار هو أطلال روح، وهذه الملحمة تسجل وقائعها كما حدثت" :

يا فؤادى رحم الله الهوى ∴ كان صرحا من خيال فهوى

اسقنى واشرب على أطلاله ∴ وأروِ عنى طالما الدمعُ روى

كيف ذاك الحب أمسى خبرا ∴ وحديثا من أحاديث الجوى

وبِساطا من ندامى حلم ∴ هم تواروْا أبدا وهْوَ انطوى[2]

---

(١) ديوان إبراهيم ناجى صـ٢٠٥ (من ديوان ليالى القاهرة).
(٢) ديوان إبراهيم ناجى صـ١٣٢ (من ديوان ليالى القاهرة).

وضمت إليها بعض الأبيات من (الوداع) إلى قصيدة الأطلال نذكر منها :

وانتبهنا بعدما زال الرحيقْ ∴ وأفقنا ، ليت أنا لا نفيقْ!
يقظةٌ طاحت بأحلام الكرى ∴ وتولى الليلُ ، والليلُ صديقْ
وإذا النور نذير طالعٌ ∴ وإذا الفجر مطل كالحريق
وإذا الدنيا كما نعرفها ∴ وإذا الأحبابُ كلٌ فى طريق[1]

قصيدة العودة[*]

جاءت هذه الكلمة قبل بداية القصيدة : "عاد الشاعر إلى دار أحباب له، فوجدها قد تغيرت حالها" ٠

١-هذه الكعبةُ كنا طائفيها ∴ والمصلين صباحا ومساء
٢-كمسجدنا وعبدنا الحسن فيها ∴ كيف بالله رجعنا غرباء[2]

* * *

٣-دارُ أحلامى وحبى لقيتْنا ∴ فى جمودٍ مثلما تلقى الجديد
٤-أنكرتْناَ وهى كانتْ إن رأتنا ∴ يضحك النورُ إلينا من بعيد[3]

* * *

٥-رفرف القلب بجنبى كالذبيحْ ∴ وأنا أهتف:يا قلب اتئدْ

(١) ديوان إبراهيم ناجى صـ٣٥ (من ديوان وراء الغمام) ٠
(*) ديوان إبراهيم ناجى صـ١٣ (من ديوان وراء الغمام) ٠
(٢) الكعبة : يقصد دار أحبابه ٠
(٣) فى جمود : فى سكون ، النور : الجمال ٠

٦-فيجيب الدمع والماضى الجريح ∴ لم عدنا؟ ليت أنـــا لــم نعــد[١]

* * *

٧-لِمَ عُدنا؟ أو لم نطو الغــرام ∴ وفرغنـــا مـــن حنـــين وألـــم

٨-ورضـــينا بســـكون وســـلام ∴ وانتهينـــا لفـــراغ كالعـــدم؟

* * *

٩-أيها الوَكْر إذا طار الأليــف ∴ لا يرى الآخر معنـــى للســـماء

١٠-ويرى الأيام صفرا كالخريف ∴ نائحـــاتٍ كريـــاحِ الصـــحراءّ[٢]

* * *

١١-آه مما صنع الـــدهر بنـــا ∴ أو هذا الطلل العابـــث أنـــتْ !

١٢-والخيالُ المطرق الرأس أنا ∴ شد ما بتنا على الضنك وبِــتْ

* * *

١٣-أين ناديك وأيـــن الســـمرُ ∴ أين أهلـــوك بســـاطا ونـــدامى

١٤-كلما أرسلت عينـــى تنظـــرُ ∴ وثب الدمع إلى عينى وغاما[٣]

* * *

١٥-موطن الحسن ثوى فيه السأمْ ∴ وســـرت أنفاســـه فـــى جـــوه

١٦-وأناخ الليـــلُ فيـــه وجـــثمْ ∴ وسرت أشباحُه فـــى بهـــوه[٤]

---

(١) اتئد: تمهل ٠

(٢) الوكر : عش الطائر ، صفراء: خالية ٠

(٣) غاما : صنع غيمة ٠

(٤) ثوى : أقام ، فى جوه : فى جو الطلل ، جثم الطائر : تلبد بالأرض٠

١٧-والبلى أبصرتُه رأى العيانْ ∴ ويـــداه تنســـجان العنكبـــوتْ
١٨-صحتُ!ياويحك تبدو فى مكان ∴ كل شئ فيه حـــى لا يمـــوت! [١]

* * *

١٩-كل شئ من سرور وحَـــزَن ∴ والليالى مـــن بهـــيج وشَـــجًى
٢٠-وأنا أسمعُ أقـــدام الـــزمن ∴ وخطى الوحدة فوق الـــدرج[٢]

* * *

٢١-ركنىَ الحانى ومغناى الشفيق ∴ وظلالُ الخلـــد للعـــاتى الطلـــيح
٢٢-علم الله لقد طال الطريـــق ∴ وأنا جئتـــك كيمـــا اســـتريح[٣]

* * *

٢٣-وعلى بابك أُلقـــى جَعبتـــى ∴ كغريب أب مـــن وادى المحـــن
٢٤-فيك كف الله عنـــى غربتـــى ∴ ورسا رحلى على أرض الوطن[٤]

* * *

٢٥-وطنى أنت ولكنـــى طريـــدْ ∴ أبدى النفى فى عالم بؤســـى!
٢٦-فإذا عدت فللنجوى أعـــود ∴ ثم أمضى بعدما أفرغُ كأسى[٥]

---

(١) البلى: القدم ، ويح كلمة رحمة ، وويل كلمة عذاب، وقيل هما بمعنى واحد.
(٢) الشجى: الحزن ، الدرج : السلم .
(٣) الخلد: الجنة ، الطليح: المتعب .
(٤) جعبتى: حقيبتى، أب : رجع .
(٥) عدت : أى عدت إليك أيها الطلل .

إيضاح الأفكار:

ذكر الشاعر بأن دار محبوبته كانت مثل الكعبة يطوف بها في الصباح والمساء ، ولما عاد إليها وجد نفسه مثل الغريب ، الذى ليس له حبيب يؤوب إليه، ومع أنها الدار التى نمت فيها الأحلام وترعرع بها الحب إلا أنها كانت جامدة لا حراك فيها، وكأنها جديدة عليه يلقاها لأول مرة، فلا يوجد من يعرفه بها مع أنها كانت قبلا عندما يؤوب إليها يضحك له كل شئ فيها، وهذه الحالة جعلته فى موقف عجيب وكأنه طائر مذبوح، فينادى قلبه طالبا منه الصبر وعدم التسرع والانفعال، ولا يقوى على التمهل والتصبر، فيجيب بالدمع الحزين والماضى الجريح، لائما نفسه على هذه العودة، متمنيا ألا يكون قد عاد إليها، فقد طوى الماضى وأغلق صفحته، وانتهى من متعلقات الحب وشواغله، وفرغ من الحنين والألم ، وعاش مرحلة جديدة خالية من لواعج الشوق، ورضى فيها بالهدوء والسكون والفراغ الذى كان بمثابة العدم والفناء بالنسبة له ٠

وينادى الشاعر دار أحبابه (الوكر) ، وقد كانت عش حياته الذى يلجأ إليه ؛ ليستريح من هموم الحياة، فكيف حاله وقد طار أليفه من عشه، إذ أنه لا يرى معنى للحياة، حيث يراها خالية من كل سعادة نائحة تنوح رياح الصحراء٠

ويتأوه مما صنعه الدهر به حيث أحال دار الأحباب إلى طلل عابث بذكريات المحبين، ويصبح الخيال المطرق الرأس فيا لنصيبه من

بؤس الزمن ، ويا لنصيبه من همومه وأحزانه ، ثم أين القوم الذين كانوا يجتمعون فيك أيها الوكر ، وأين السمار وأين أهلوك وساكنوك فراشا وبساطا، واين الندامى لضيفهم فى اللقاء ، وها هو ذا يبعث بنظراته، فتهطل دموعه ، ويحول بين عينيه والرؤية الصحيحة .

وقد استقر السأم والملل فى دار الحب والحسن ، وسرت أنفاس هذا السأم فيها حيث صار كالجزء منها وكالأليف لأرضها .

وأقام الظلام فى عش الحب ، وسرت الأشباح فى طرقاته وجوانبه ، وصار القدم أليف الدار ، ولاحظ الشاعر ما صنع بها ، ورأى يديه تنسجان العنكبوت فى شتى جوانبها ، وصاح يا ويحك أيها البلى، لقد وجدت فى موضع ، كل شئ فيه باق لا يموت ، مثل الحب والسرور والحزن ، والليالى بما فيها من بهجة وحزن ، والزمن فى حركته ، وخطوات الألفة فوق سلالم الحياة ، وأنت أيها الركن العطوف والمغنى الشفيق ، وظلال الخلد للمتعب المكدور، وقد طالت رحلة سفره، وعاد إلى الدار؛ لكى يستريح من شقاء الغربة ومعاناة الابتعاد، ورجع إليها، ووضع حقيبته على بابها مثل الغريب الذى رجع من رحلة الخطوب والآلام .

ووصل إليها فحجب الله عنه معاناة الغربة ، واستقر بها حيث كانت الوطن والملاذ ، وفى هذا الوكر كان وطنه، ولكنه طريد منفى للأبد فى عالم البؤس والشقاء ، وعندما بعود فإنه يرجع لمناجاة

الحبيب، ولمشاهدة ما صنعه الدهر بدار الحبيب ، ويتركها وقد أفــرغ فيها كأس همومه، ولواعج أحزانه بالبكاء والحزن العميق ٠

تعليق ونقد :

كتب أستاذنا الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجى عن فن الشاعر فى هذه القصيدة ، فقال :

"هذه هى قصيدة العودة، ستة وعشرون بيتا من بحــر الرمــل ، تسير فى قافيتها على نظام الرباعية، فكل مقطع من مقاطعها مكون من بيتين ، أربعة أشطر، للشطر فى الصدر قافية، وللشطرين فى العجــز قافية ، وهو لون من ألوان التجديد عند الشعراء المعاصرين ، يلجأون إليه توسعا فى القافية وخروجا بالقصيدة العمودية إلى نمط شبه جديد ٠

وفى العودة نرى فن ناجى الغنائى بوضوح ، الموسيقى الشعرية فى القصيدة تختلف صعودا ونزولا ، وتتميز بالتنوع لا بالوحدة ، وإذا كان بعض النقاد يرى أن توحيد النغم خير من تنوعه ، فإنه لا ضــير على الشاعر عند الكثير من النقاد من اختلاف نغم موسيقاه فى القبض والسرعة ، ومدى الارتفاع والانفعال ، ولقد كانت العودة أول مظهــر لتجديد ناجى وشاعريته الموهوبة ٠

الصور فى القصيدة ممثلة مؤثرة؛ والفكــرة موصــولة معبــرة، وموسيقاها جياشة تلفتك يمنة ويسرة ، وأماما ووراء ، وتصعد ببصرك نحو السماء والأرض ؛ لترى يد البلى، وتنسج العنكبوت، وأقدام الزمن وخطا الوحدة فوق الدرج ، وكأنما نظمت القصيدة من ألحان وأنغــام،

ومن حياة وصور ، لا من ألفاظ وتعابير ، وحقا لقد تمكن ناجى من أداء مشاعره وتجربته الفنية أداء ملهما "[١].

١ – شبه دار المحبوبة بالكعبة (تصريحية)، وبقية ما فى البيت ترشيحات للاستعارة، وصباحا ومساء (طباق) ، ولابد من توجيه الصياغة إلى الأسلوب المجازى والمبالغة فى التصوير ، حتى ينصرف الأسلوب عن حدود القول بالاستهانة بالمقدسات الإسلامية الخالدة.

٢ – وتتواكب الصياغة الأسلوبية فى هذا البيت بما قبله خاصة أن عبادة الحسن (الجمال) أسلوب مجازى آخر (استعارة) وجعل الشاعر رجوعه للدار غريبا تفسيرا وإيضاحا لحالته والمعنى التشبيهى أى كالغرباء ، والاستفهام تعجبى حزين .

٣ – الدار دار أحلامه، وتلقى الشاعر فى جمود مثل لقاء أى جديد، وكأنه لا علاقة بين الشاعر ودار محبوبته.

٤ – أنكرتنا (استعارة) وتشخيص للدار ، وإن رأتنا ترشيح ويضحك النور (مكنية) أو (تصريحية) إذ جعل المحبوبة فيها نورا حقيقيا.

٥ – قال : رفرف القلب بجنبى كالذبيح وأنا أهتف يا قلبى اتئد

وكأن المعنى مقتبس من صياغة المجنون ، فى بيته المشهور :

قطاةٌ عزَّها شركٌ فباتتْ ∴ تجاذبه وقد عَلِق الجناح

---

(١) دراسات فى الأدب المعاصر ص٩٠،ص٩١ (دار الطباعة المحمدية).

" رفرف القلب" و"كالذبيح" و"يا قلبى اتئد" والحديث إلى القلب المعنوى الموطن الحقيقى للحب والعاطفة ٠

٦ - وقوله : فيجيب الدمع استعارة، وكذلك فى قوله : والماضى الجريح، وقوله : لم عدنا؟ ليت أنا لم نعد: أسلوبان انشائيان للاستفهام والتمنى حيث يعبر بهما عن الحالة التى تنتابه وتشمله وهو عائد إلى دار أحبابه بعد غيبة طويلة ٠

٧ - يكشف الاستفهام عن مدى الحسرة التى اشتملت الشاعر من جراء مشاهداته عند العودة ، كما شبه فراغ قلبه من الحنين والألم٠

٨ - وتتواصل توابع الاستفهام عن أسباب العودة التى يثيرها بينه وبين نفسه، فقد عاش راضيا فى هدوء وسكون وحياة مظلمة أراح أثقال قلبه وشواغله ، وانتهى إلى الرضا بحياة فارغة كأنها العدم ٠

٩ - ويناجى دار أحبابه التى يشبهها بعش الطائر الذى يجمع بين الأليفين، فكيف حال أحدهما إذا طار الآخر ... بالقطع لن يجد معنى للسعادة والهناء أو برواية ثانية لن يجد معنى للفضاء الواسع أمامه وهو عالم السماء الرحب الفسيح ٠

١٠ - ويرى الأيام خالية مثل الخريف بما يمثله من أثقال وشعور بالزوال ، والأيام تنوح (استعارة) مثل رياح الصحراء (تشبيه)٠

١١ – ويتأوه المحب العائد فى حسـرة ممـا صـنعه الـدهر (استعارة) ويجمع الطلل إلى أثار صنائع الدهر (بالاسـتفهام) والطلـل العابث (استعارة)، فهل الدار هى الطلل الباقى منها ؟

١٢ – وهل هى الخيال المطرق الرأس (استعارة) أو كناية عن الحزن الطاغى ، وإذا كانت الحال هكذا ، فيا لهذا الحزن الذى اشـتمل الأليفين ·

١٣ – ويتعجب الشاعر بعدد من الاستفهامات عن ماضى الدار وما كان فيها ·

١٤ – وكلما أرسل عينه (استعارة) تنظر الحال الكائن ، وثـب الدمع (استعارة) وغام إشارة واضحة فى التعبير عن فقد الرؤية ·

١٥ – ويتواصل الحديث عن بيان ما جرى للدار ، فقـد ذهـب الحسن عنها، بعد أن كانت موطنا له ·

١٦ – وحل السأم (استعارة) وسرت أنفاسه أى أنفـاس السـأم (استعارة) حيث استقر فيها ·

١٧ – وصار البلى (القـدم) أليـف الـدار (اسـتعارة) ويـداه (استعارة) تنسجان العنكبوت (ترشيح أو استعارة أخرى)·

١٨ – صاح الشاعر ــ من هول المنظر ــ يا ويحك أيها البلى ــ إذ تظهر فى مكان ، لازال الحب خالدا فيه ·

١٩ – ولا زالت بقايا الأشياء الخالدة تشهد الآن بوجودها (سابقا) أو لا زالت حية نابضة فى القلوب من (سرور وحزن) طباق، و(البهيج والشجى) طباق ويوحى هذا التباين اللفظى بمقدار الفوارق بين الماضى والحاضر أو قبل ترك الدار وبعد العودة إليها ٠

٢٠ – وأثار الماضى حيدة ماثلة ، إذ سمع أقدام الزمن (استعارة) أو أبصر آثاره (مجاز) وسمع وقع أو خطى الوحدة الموحشة على سلالم المنزل ، أو فى وقع الزمن الموحش ٠

٢١ – ويناجى ركن الدار، ومكان اللهو أو الغناء، وظلال الخلد والراحة للمتعب المكدود٠

٢٢ – لقد طالت رحلة الشاعر التى أبعدته عن الدار ، وقد جاء إليها ، ليستريح ويهنأ فيها (تصور شامل لحال الغربة والعودة)٠

٢٣ – وكانت العودة حيث ألقى حقيبته على بابها (تصور مجازى لحالة العائد) وذلك مثل حالة الغريب الذى رجع من وادى المحن٠

٢٤ – فى دار العودة كانت النهاية لرحلة البعد والغربة، وفيها (رسا رحلى) سفينة الحياة التى استقرت ، أو رست على أرض الوطن (نهر الحياة) ٠

٢٥ – وطنى أنت ـــ الدار وطنه، وهو طريد منها (منفى) بعيدا عنها (فى عالم بؤسى) وشقائى٠

٢٦ – يعود الشاعر إلى دار أحبابه للتخفيف عن نفسه ومناجـاة أحبابه، ومشاهدة آثار الزمن بها ، ثم ينصرف عنها بعد أن يكون قـد أفرغ فيها لواعج حبه وكؤوس أحزانه، أى أن العودة لن تكون للبقـاء وإنما للتزود والتخفيف مما لحق به فى زمن البعد والهجر والفراق.

* * *

نماذج مختارة من الشعر الحديث

أولا : متنوعة وغير محللة ٠

ثانيا : تمثل أكثر من بيئة شعرية ٠

ثالثا : تفتح نافذة للإطلال منها على الشعر المتميز الذى يجمع بين الأصالة والمعاصرة ٠

رابعا : جاء ترتيب النماذج المختارة على النحو التالى :

١ – قصيدة إرادة الحياة لأبىالقاسم الشابى ٠

٢ – قصيدة المساء لإيليا أبىماضى ٠

٣ – قصيدة الحرية فى سياسة المستعمرين لمعروف الرصافى٠

٤ – رسالة فى ليلة التنفيذ لهاشم الرفاعى ٠

٥ – دعاء الشرق لمحمود حسن إسماعيل ٠

إرادة الحياة (*)

لأبى القاسم الشابى

إذا الشــعب يومــا أراد الحيــاة .·. فلابــد أن يســتجيب القــدرْ
ولابــد لليــل أن ينجلــى .·. ولابــد للقيــد أن ينكســر
ومن لم يعانقه شــوقُ الحيــاة .·. تبخر فــى جوهــا ، وانــدثر
فويل لمــن لــم تَشُــقْه الحيــاة .·. من صــفعة العــدم المنتصــر
كــذلك قالــت لــىَ الكائنــات .·. وحــدثنى روحُهــا المســتتر

* * *

ودَمْدَمت الــريح بــين الفِجــاج .·. وفوق الجبال وتحت الشــجر :
"إذا مــا طمحــتُ إلــى غايــة .·. ركبتُ المنى ، ونسيتُ الحــذر"
"ولم اتجنــب وعــور الشــعاب .·. ولا كُبَّــة اللهــب المســتعر"
"ومن لا يحب صــعود الجبــال .·. يعش أبد الدهر بــين الحفــر"
فعجَّتْ بقلبــى دمــاء الشــباب .·. وضجت بصدرى رياحٌ أُخَر...
وأطرقتُ، أصغى لقصف الرعود .·. وعزف الرياح ، ووقع المطــر

(*) من ديوان أغانى الحياة صـــ ٢٠٠ ويمكن الإطلاع على تحليل للقصيدة فـــى كتاب (فى النقد والأدب) لإيليا الحاوى جـــ ٤، وقد ولد أبوالقاسم فـــى قريـــة الشابية التابعة لواحة (توزر) التونسية عام ١٩٠٩م وتوفى بتونس العاصـــمة عام ١٩٣٤ ودفن بمسقط رأسه .

وعكف الكثيرون على دراسة شعره فى عدد كبير مـــن بلـــدان الـــوطن العربى.

وقالت لى الأرض ـ لما سألت : "أيَا أمّ هل تكرهين البشر ؟" :
"أبارك فى الناس أهل الطموح ومن يستلذّ ركوب الخطر "
"وألعن من لا يماشى الزمان، ويقنع بالعيش عيشَ الحجر"
"هو الكون حىٌّ، يحب الحياة ويحتقر المَيْتَ، مهما كبُر"
"فلا الأفق يحضن مَيْتَ الطيور، ولا النحل يلثمُ مَيْتَ الزهر"
"ولولا أمومةُ قلبى الرؤوم لَمَا ضمّت المَيْتَ تلك الحفر"
"فويل لمن لم تشُقه الحياة، من لعنة العدم المنتصر!

* * *

وفى ليلة من ليالى الخريف مُثقّلَةٍ بالأسى والضجر
سكوت بها من ضياء النجوم وغنّيتُ للحزن حتى سكر
سألت الدجى: هل تعيد الحياة ! أذبلته ربيع العمر ؟
فلم تتكلم شفاه الظلام ولم تترنم عذارى السحر
وقال لى الغاب فى رقّة مُحَبَّبةٍ مثل خفق الوتر :
"يجئ الشتاء، شتاء الضباب، شتاء الثلوج، شتاء المطر"
"فينطفئ السِحْرُ، سحر الغصون ، وسحرُ الزهور، وسحر الثمر"
"وسحر السماء، الشجى، الوديع، وسحر المروج ، الشهى، العطِر"
"وتهوى الغصون، وأوراقها وأزهارُ عهد حبيب نَضِرْ"
"وتلهو بها الريح فى كل واد ويدفنها السيل، أنى عبر"
"ويفنى الجميع، كحُلْم بديع، تألق فى مهجةٍ واندثر"
"وتبقى البذور، التى حُمِّلَتْ ذخيرةَ عُمْرٍ جميل، غبر"

"وذكرى فصــول، ورؤيــا حيــاة، وأشــباحَ دنيــا، تلاشــت زُمَــر"
"معانقةً ــ وهى تحت الضباب، وتحــت الثلــوج، وتحــت المَــدَر ــ"
"لطيفِ الحيــاةِ الــذى لا يُمَــلُّ، وقلــبِ الربيــع الشــذىِّ الخَضِــر"
"وحالمــةً بأغــانى الطيــور، وعطــرِ الزهــور، وطعــمِ الثمــر"

* * *

"ويمشى الزمان، فتنمو صروف، وتــذوى صــروف، وتحيــا أُخَــر"
"وتصــبح أحلامهــا يَقْظَــةً ، موشــحة بغمــوض السَّــحر"
"تسائل: أين ضــباب الصــباح، وســحر المساء؟ وضــوء القمــر؟"
"وأســرابُ ذاكَ الفــراشِ الأنيــق؟ ونحــلٌ يغنــى، وغــيمٌ يمــر؟"
"وأيــن الأشــعةُ والكائنــات؟ وأيــن الحيــاة التــى أنتظــر؟"
"ظمئت إلى النور، فوق الغُصون! ظمئت إلى الظــل تحــت الشــجر!
"ظمِئتُ إلى النبع، بين المــروج، يغنِّــى، ويــرقص فــوق الزَّهــر!"
"ظمئت إلى نَغَمــات الطيــور، وهَمْــسِ النســيم، ولحــن المطــر!"
"ظمئت إلى الكــون! أيــن الوجــود وأنَّــى أرى العــالم المنتظــر؟"
"هو الكون ، خلف ســبات الجمــود ، وفــى أفُــقِ اليقظــات الكُبَــر"

* * *

"ومــا هــو إلا كخفــق الجنــاح حتــى نمــا شــوقها وانتصــر"
"فصدَّعت الأرضَ مــن فوقهــا، وأبصــرت الكــونَ عــذبَ الصــور"
"وجــاء الربيــع، بأنغامــه، وأحلامــه، وصِــباه العطِــر"

"وقبلهـا قـبلا فـى الشـفاء، تعيـد الشـباب الـذى قـد غبـر"
"وقال لهـا: قـد منحـت الحيـاة ، وخُلّـدْتِ فـى نَسْلك المـدخر"
"وبَارَكَـك النـورُ، فاسـتقبلى شـباب الحيـاة وخِصْـبَ العُمُـر"
"ومـن تعبـد النـورَ أحلامُـه، يباركُـه النـورُ أنـى ظهـر"
"إليكِ الفضاء، إليـك الضـياء، إليـك الثـرى، الحـالمَ المزدهـر!"
"إليك الجمالَ الـذى لا يَبيـد ! إليـك الوجـودَ، الرحيـبَ، النضـر!"
"فميدِى ـ كما شئتِ ـ فوق الحقول ، بحلو الثمـار وغَـضّ الزهـر"
"وناجى النسيمَ، وناجى الغيـوم ونـاجى النجـوم، ونـاجى القمـر"
"ونـاجى الحيـاة وأشـواقَها، وفتنـة هـذا الوجـود الأغـر"

* * *

"وشفَّ الدجى عن جمال عميـق، يَشُـبُّ الخيـالَ ، ويُـذكى الفكـر"
"ومُـدّ علـى الكـون سـحر غريـب، يصـرفه سـاحر مقتـدر"
"وضاعت شموع النجوم الوضاء ، وضاع البخـور، بخـور الزهـر"
"ورفـرف روحٌ، غريـبُ الجمـال، بأجنحـة مـن ضـياء القمـر"
"ورنَّ نشـيد الحيـاة المقـدس فـى هيكـلٍ ، حـالم، قـد سـحر"
"وأُعْلِن فـى الكـون : أن الطمـوحَ لهيـبُ الحيـاة، وروح الظفـر"

* * *

"إذا طَمَحَـتْ للحيـاة النفـوس فلابـد أن يسـتجيب القـدر!"

المساء

لإيليا أبي ماضي(*)

١ - السحبُ تركض فى الفضاء الرحب ركض الخـائفينْ
والشمس تبـدو خلفهـا صـفراءَ عاصـبةَ الجبـينْ
والبحر سـاجٍ صـامت فيـه خشـوعُ الزاهـدين(١)
لكنمـا عينـاكِ باهتتـانِ فـى الأفـق البعيـد

سلمى .. بمـاذا تفكـرين ؟
سلمى .. بمـاذا تحلمـين ؟

٢ - أرأيتِ أحـلام الطفولـة تختفـى خلـف التخـوم(٢)
أم أبصرت عينـاك أشـباحَ الكهولـة فـى الغيـوم؟
أم خِفْتِ أن يأتى الدجى الجـانى ولا تـأتى النجـوم
أنـا لا أرى مـا تلمحـين مـن المشـاهد إنمـا

أظلالُهـا فـى ناظريـك
تـنمُّ يـا سـلمى عليـك

(*) من كتاب فى النقد والأدب لإيليا الحاوى جـ٤ ص٢٣٣ ٠
ولد إيليا أبوماضى فى المحيدثة بلبنان عام ١٨٩١، ثم انتقل فى الحاديـة عشرة من عمره إلى مصر، وأصدر ديوانه الأول (تذكار الماضى) ثم وهاجر إلى أمريكا، وانضم إلى الرابطة القلمية التى أسسها جبران خليـل جبـران، وأصدر مجلة السمير، وعمل فى التجارة وأخرج ديوان الجدول عام ١٩٢٩م وديوان الخمائل عام ١٩٤٦م وتوفى فى سنة ١٩٥٧م٠
(١) ساج : ساكن ٠
(٢) التخوم : الحدود ٠

٣ - هذى الهواجسُ لم تكن مرسومة فى مقلتيكِ
فلقد رأيتُكِ فى الضحى ورأيتُه فى وجنتيك
لكنَّ وجدتك فى المساء وضعتِ رأسك فى يديك
وجلستِ فى عينيك ألغازٌ وفى النفس اكتئاب

مثل اكتئاب الشاردين
سلمى .. بماذا تفكرين

٤ - بالأرض كيف هَوَتْ عروش النور عن هضباتها
أم بالمروج الخُضْر ساد الصمتُ فى جنباتها
أم بالعصافير التى تعدو إلى وُكُناتها[1]
أم بالمسا؟ إن المسا يُخفى المدائن والقرى

والكوخَ والصرحَ المكين
والشوكَ مثلَ الياسمين

٥ - لا فرق عند الليل بين النهر والمستنقعِ
يُخفى ابتساماتِ الطروب كأدمع المتوجِّع
أنَّ الجمال يغيب قبل القبح تحت البرقع
لكن لماذا تجزعين على النهار؟ وللدجى

أحلامُه ورغائبُه
وسماؤه وكواكبُه

---

(١) الوكنات : الأعشاس .

٦ - إن كـــان قـــد ســـتر الـــبلاد ســـهولَها ووعُورَهـــا
لـــم يســـلب الزهـــرُ والأريـــج ولا الميـــاه خريرهـــا
كـــلا! ولا مَنَـــعَ النســـائم فـــى الفضـــاء مســـيرها
ما زال فى الورق الحفيفُ وفـــى الصَّـــبا أنفاســـها[1]

والعنـــدليب صـــداحُهُ
لا ظفـــره وجناحـــه

٧ - فاصغى إلى صوت الجداول جاريـــاتٍ فـــى الســـفوحْ
واستنشقى الأزهار فى الجنـــات مـــا دامـــت تفـــوح
وتمتعى بالشُّـــهْب فـــى الأفـــلاك مـــا دامـــت تلـــوح
مـــن قبـــل أن يـــأتى زمـــان كالضـــباب أو الـــدخانْ

لا تبصرين بـــه الغـــديرْ
ولا يلـــذ لـــك الخريـــر

٨ - لِـــتَكُنْ حياتـــك كلهـــا أمـــلا جمـــيلا طيبـــا
ولـــتملأ الأحـــلامُ نفســـك فـــى الكهولـــة والصِّـــبا
مثلَ الكواكبِ فـــى الســـماء وكـــالأزاهر فـــى الربـــا
لـــيكن بـــأمر الحـــب قلبـــك عالمـــا فـــى ذاتـــه

أزهـــارُه لا تـــذبلُ
ونجومـــه لا تأفـــل

٩ - مات النهارُ ابنُ الصباح فلا تقولى : كيـــف مـــات ؟

---

(١) الصبا: الريح الطيبة ٠

إن التأمـــل فــــى الحيـــاة يزيــــد آلامَ الحيـــاةْ

فدعى الكآبة والأســـى ، واســـترجعى مـــرح الفتـــاة

قدْ كان وجهُك فى الضـــحى مثـــل الضـــحى مـــتهللا

فيـــه البشاشـــةُ والبهـــاءْ

ليكن كــذلك فـــى المســـاء

الحرية فى سياسة المستعمرين

لمعروف الرصافى(*)

يـــا قـــومُ لا تتكلمـــوا ∴ إن الكــــلام محـــــرَّمُ

نــــاموا ولا تســـتيقظوا ∴ مـــا فـــاز إلا النُـــوَّمُ

وتـــأخروا عـــن كـــل مـــا ∴ يقضِـــى بـــأن تتقـــدموا

ودعـــوا الـــتفهم جانبـــا ∴ فـــالخيرُ ألا تفهمـــوا

وتثبتـــوا فـــى جهلكـــم ∴ فالشـــر أن تتعلمـــوا

أمـــا السياســـة فـــاتركوا ∴ أبـــدا وإلاَّ تنـــدموا

إن السياســـة ســـرها ∴ لـــو تعلمـــون مُطَلْسَـــمُ(١)

وإذا أفضـــتم فـــى المبـــا ∴ ح مـــن الحـــديث فجمجمـــوا

والعـــدلَ لا تتوســـَّموا ∴ والظلـــمَ لا تتجهَّمـــوا (٢)

مـــن شـــاء مـــنكم أن يعيـــش اليـــومَ وهـــو مكـــرم

فلْـــيُمسِ لا ســـمعٌ ولا ∴ بصـــر لديـــه ولا فـــم

لا يســـتحق كرامـــةً ∴ إلا الأصـــم الأبكـــم

ودعـــوا الســـعادة إنمـــا ∴ هـــى فـــى الحيـــاة تـــوهُّم

فـــالعيش وهـــو مـــنَعم ∴ كـــالعيش وهـــو مـــذمَّمُ

(*) ديوان الرصافى ص٤٥٠ طبع الهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر (الطبعة الخامسة) ومعروف الرصافى شاعر عراقى غَنِىٌّ عن التعريف، لما لشعره من قيمة كبيرة فى الأدب الحديث، وقد ولد عام ١٨٧٥م وتوفى عام ١٩٤٥م.

(١) مطلسم : مكتوم .

(٢) لا تتجهموا : التجهم أى اللقاء بالغلظة والوجه الكريه .

فارضَوْا بحكم الدهر مهما كان فيه تحكُّم

وإذا ظُلمتم فاضحكوا ∴ طرباً ولا تتظلموا

وإذا أُهنتم فاشكروا ∴ وإذا لُطِمْتم فابسِموا

إن قيل هذا شهدكم ∴ مر ، فقولوا : علقم

أو قيل إن نهاركم ∴ ليل ، فقولوا : مظلم

أو قيل إن ثِمادكم ∴ سْيلٌ ، فقولوا : مُفْعِمُ[1]

أو قيل إن بلادكم ∴ يا قوم سوف تقسَّم

فتحمَّدوا ، وتشكروا ∴ وترنحوا ، وترنموا[2]

---

(١) الثماد : جمع ثمد وهو الماء القليل، والمفعم بكسر العين المالئ، وبفتحها: المملوء .

(٢) الترنح : التمايل على الجنبين من سكر أو فرح ، والترنم : رفع الصوت بالغناء.

رسالة فى ليلة التنفيذ
لهاشم الرفاعى(*)

رسالة وجهها الشاعر إلى كل صاحب عقيدة يجاهد فى سبيلها (مارس ١٩٩٥م) :

أَبَتَاهُ ، ماذا قد يخط بَنَانى ∴ والحبل والجلاد منتظرانِ
هذا الكتاب إليكَ من زنزانة ∴ مقرورة(١) صخريةِ الجدران
لم تَبْقَ إلا ليلةٌ أحيا بها ∴ وأحسُّ أن ظلامها أكفانى
ستمرُّ يا أبتاه ـ لست أشك فى ∴ هذا ـ وتحمل بعدها جثمانى

* * *

الليل من حولى هدوءٌ قاتل ∴ والذكريات تمور فى وجدان(٢)
ويهدنى ألمى، فأنشدُ راحتى ∴ فى بضع آيات من القرآن
والنفس بين جوانحى شفافة ∴ دب الخشوع بها فهزَّ كيانى
قد عشت أومن بالإله ولم أذق ∴ إلا أخيرا لذة الإيمان
شكرا لهم ، أنا لا أريد طعامهم ∴ فليرفعوه، فلست بالجوعان

(*) ديوان هاشم الرفاعى تحقيق عبدالرحيم الرفاعى صـ١٦٦ وقد ولد الشاعر فى قرية أنشاص بالشرقية عام ١٩٣٥م وحفظ القرآن الكريم ، والتحق بالأزهر عام ١٩٤٧م وتخرج منه فى سنة ١٩٦٥م ثم التحق بكلية دار العلوم، ولم يتم دراسته بها حيث توفى فى أول يوليو عام ١٩٥٩م.
والقصيدة المختارة واحدة من المجموعة الثالثة بالديوان ، والعنوان الذى يضمها هو (تحت راية الإسلام) .
(١) مقرورة : باردة .
(٢) تمور : تفور وتغلى .

هذا الطعام المر ما صَنَعَتْهُ لـي .:. أمي، ولا وضعوه فوق خُوَان[١]

كلا، ولم يشهده يا أبتـي معـي .:. أخوانٍ لـي جـاءاه يستبقان

مَدُّوا إلىّ بـه يـدا مصبوغةً .:. بدمي، وهذى غاية الإحسان

والصمت يقطعه رنينُ سلاسـل .:. عبثت بهن أصابع السجان

ما بين آونة تمـر ... وأختهـا .:. يرنو إلـىّ بمقلتَـىْ شيطان

من كوة بالباب يرقـب صـيده .:. ويعود فى أمن إلـى الـدوران

أنا لا أحس بـأىِّ حقـد نحـوه .:. ماذا جنى؟ فتمسـه أضـغانى

هو طيّب الأخلاق مثلُك يا أبـى .:. لم يبدُ فى ظمأ إلـى العـدوان

لكنَّـه إن نـام عنـى لحظـةً .:. ذاق العيالُ مـرارةَ الحرمـان

فلربما وهو المـروّع سَحْنَةً[٢] .:. لو كان مثلى شاعرا لرثـانى

أوعاد-من يدرى؟-إلـى أولاده .:. يوما وذَكِّر صورتى لبكـانى

وعلى الجدار الصُّلْبِ نافذةٌ بُهـا .:. معنى الحياة غليظةُ القضـبان

قد طالمـا شـارفتُها[٣] متـأملا .:. فى الثائرين على الأسى اليقظان

فأرى وجوما كالضباب مصـوِّرا .:. ما فى قلوب الناس من غليـان

نفسُ الشعور لدى الجميع وإن همُ .:. كتموا، وكان الموتُ فى إعلانـى

ويدور همسٌ فى الجوانح ما الذى .:. بالثورة الحمقاء قد أغرانـى؟[٤]

أو لم يكن خيرا لنفسى أن أرى .:. مثل الجميع أسيرُ فى إذعـان؟

---

(١) الخوان : بضم الخاء وكسرها : منضدة الطعام .
(٢) السحنة : بسكون الحاء وفتحها : الهيئة، اللون .
(٣) شارف المكان: علاه . شارف الشئ: أطلع عليه من فوق، قاربه ودنا منه.
(٤) الجوانح: جمع جانحة وهى الضلع القصيرة مما يلى الصدر .

ما ضرنى لو قد سكتُّ، وكلمـا ∴ غلب الأسى بالغت فى الكتمان

هذا دمى سيسيل، يجرى مطفئـا ∴ ما ثار فى جنبى مـن نيـران

وفؤادى المـوَّارُ فـى نبضـاته ∴ سيكف فى غده عن الخفقان(١)

والظلمُ باقٍ، لـن يحطـم قيـدَه ∴ موتى، ولن يودى به قربانى(٢)

ويسير ركب البغى ليس يضيرُه ∴ شاة إذا اجتثتْ مـن القُطعـان

* * *

هذا حديثُ النفس حين تشف عـن ∴ بَشَرِيَّتِى .. وتمور بعـد ثـوان

وتقول لـى: إن الحيـاة لغايـةٍ ∴ أسمى من التصفيق للطغيـان

أنفاسُكَ الحرَّى وإن هى أخمدت ∴ ستظل تغمـر أفقهـم بـدخان

وقروح جسمك وهو تحت سياطهم ∴ قسماتٌ صبح يتقيـه الجـانى(٣)

دمعُ السجين هناك فى أغلالـه ∴ ودم الشـهيد هنـا سـيلتقيان

حتى إذا ما أفعمت بهمـا الرُّبـا ∴ لم يبق غير تمرُّدِ الفيضـان(٤)

ومن العواصف ما يكون هبوبُها ∴ بعد الهـدوء وراحـةِ الربَّـان

إن احتدامَ النار فى جوف الثرى ∴ أمر يثير حفيظـة البركـان(٥)

وتتابع القطـرات ينـزل بعـده ∴ سـيلٌ يليـه تـدفق الطوفـان

فيموجُ .. يقتلع الطغاة مزمجرا ∴ أقوى من الجبروت والسـلطان

---

(١) الموار : السريع .

(٢) يودى: يزيل ويذهب، قربانى: تضحيتى .

(٣) القروح : الجروح جمع قرح وهو الجرح تقيح بالصديد .

(٤) أفعمت : امتلأت .

(٥) احتدام: ثوران، فوران .

أنا لست أدرى، هل ستذكر قصتى ∴ أم سوف يعرُوها دجى النسيان؟

أو أننى سأكون فى تاريخنا ∴ متآمرا أم هادمَ الأوثان؟

كل الذى أدريه أن تجرُّعى ∴ كأسَ المذلة ليس فى إمكانى

لو لم أكن فى ثورتى متطلبا ∴ غير الضياء لأمتى لكفانى

أهوى الحياة كريمةً لا قيدَ، لا ∴ إرهابَ، لا استخفافَ بالإنسان

فإذا سقطتُ سقطتُ أحمل عزتى ∴ يغلى دمُ الأحرار فى شريانى

* * *

أبتاه، إنْ طلعَ الصباحُ على الدُّنى ∴ وأضاء نورُ الشمس كل مكان[1]

واستقبلَ العصفورُ بين غصونه ∴ يوما جديدا مشرق الألوان

وسمعتُ أنغامَ التفاؤل ثرَّةً ∴ تجرى على فم بائع الألبان[2]

وأتى – يدق كما تعوَّد – بابنَا ∴ سيدقُّ بابَ السجن جلادان!

وأكون بعدَ هُنَيْهَةٍ متأرجحا ∴ فى الحبل مشدودا إلى العيدان

ليكن عزاؤك أن هذا الحبلَ ما ∴ صنعتْهُ فى هذى الربوع يدان

نسجوه فى بلد يشعُّ حضارةً ∴ وتُضاءُ منه مشاعلُ العرفان

أو هكذا زعموا، وجئ به إلى ∴ بلدى الجريحِ على يد الأعوان

أنا لا أريدُكَ أن تعيش محطما ∴ فى زحمة الآلام والأشجان[3]

إن ابنك المصفودَ فى أغلاله ∴ قد سِيق نحو الموت غير مدان

---

(١) الدنى : جمع الدنيا .

(٢) ثرة : كثرة.

(٣) الأشجان : الأحزان .

فاذكر حكايـــات بأيـــام الصـــبا ∴ قد قُلتَها لى عن هوى الأوطان
وإذا سمعتَ نشيج أمى فى الدجى ∴ تبكى شبابا ضاع فى الريعـــان[١]
وتَكَتُّمُ الحسرات فـــى أعماقهـــا ∴ ألما تواريـــه عـــن الجيـــران
فاطلب إليها الصفح عنى،إننـــى ∴ لا أبتغى منها سوى الغفـــران
ما زال فى سمعى رنين حـــديثها ∴ ومقالها فـــى رحمـــة وحنـــان
أبنى: إنى قـــد غـــدوتُ عليلـــة ∴ لم يبق لى جَلَدٌ على الأحـــزان
فأذق فؤادى فرحة بالبحث عـــن ∴ بنت الحلال ودعك من عصيانى
كانـــت لهـــا أمنيـــةٌ.. ريانـــة ∴ يا حسن آمال لهـــا وأمـــان !
غَزَلَتْ خيوطَ السعد مخضلا[٢]ولـــم ∴ يكن انتقاضُ الغزل فى الحسبان
والآن لا أدرى بـــأى جـــوانحٍ[٣] ∴ ستبيتُ بعدى أم بأى جَنـــان[٤]

* * *

هذا الذى سطَّرتُهُ لك يـــا أبـــى ∴ بعض الذى يجرى بفكرٍ عـــان
لكن إذا انتصر الضياءُ ومُزِّقَـــتْ ∴ بيد الجموع شريعة القُرصان[٥]
فلسوف يذكرنى ويكبـــر همتـــى ∴ من كان فى بلدى حليفَ هوانِ
وإلى لقاء تحـــت ظـــل عدالـــةٍ ∴ قدســـية الأحكـــام والميـــزان

---

(١) النشيج: غصة البكاء. الريعان: بداية الشباب .
(٢) المخضل : الناعم .
(٣) الجوانح : الضلوع .
(٤) الجنان : القلب .
(٥) القرصان : لصوص البحر .

دعاء الشرق(*)

لمحمود حسن إسماعيل

٢٣ يوليو ١٩٥٤

والشرق ينبض بثورة النيل، ويتطلع إلى انتصاراتها، وأشواق الفجر الجديد تجيش فى قلب شعوبه الحرة متعطشة إلى وحدة الشعب العربى العريق ·

يا سماءَ الشرق طوفى بالضياءِ ∴ وانشرى شمسك فى كل سماءِ

ذكريه .. واذكرى أيامه ∴ بهُدَى الحق ونور الأنبياء

* * *

كانت الدنيا ظلاما حوله ∴ وهو يهدى بخطاه الحائرينا

أرضُه لم تعرف القيدَ ولا ∴ خفضت إلا لباريها الجبينا

كيف يمشى فى ثراها غاصبٌ ∴ يملأ الأُفْقَ جراحا وأنينا

كيف مِنْ جناتها يجنى المُنَى؟ ∴ ونرى فى ظلها كالغُرَباء

* * *

(يا سماء الشرق طوفى بالضياء)

* * *

أيها السائلُ عن راياتنا؟ ∴ لم تزل خفاقة فى الشُّهُبِ

(*) من ديوان (نار وأصفاد) لمحمود حسن إسماعيل صـ١٧١ ·

تُشعِلُ الماضى، وتسقى نارَه ∴ عِزّةَ الشرق، وبأسَ العرب
سيرانا الدهر نَمْضِى خَلْفَهَا ∴ وَحْدَةً مشبوبة باللهب
أممًا شتى .. ولكن العلا ∴ جمعتنا أمة يوم النداء

* * *

(يا سماء الشرق طوفى بالضياء)

* * *

نحن شعبٌ عربى واحدٌ ∴ ضَمَّهُ فى حومة البعث طريق
الهدى والحق من أعلامه ∴ وإباء الرُّوح والعهد الوثيق
أذَّن الفجر على أيامنا ∴ وسرى فوق روابيها الشروق
كلُّ قيد حوله من دمنا ∴ جَذوةٌ تدعو قلوب الشهداء

* * *

يا سماء الشرق طوفى بالضياء ∴ وانشرى شمسك فى كل سماء
ذكريه واذكرى أيامه ∴ بهدى الحق ونور الأنبياء

فن القصة

نشأة القصة العربية الحديثة :

لقد عرف العرب فى جاهليتهم وإسلامهم ألوانا كثيرة من القصص تختلف اختلافا بينا عما نقلناه فى عصرنا الحديث عن الغرب ، ففى الأدب الجاهلى، قصص كثير عن أيام العرب المشهورة كأيام ذى قار ، وداحس والغبراء وحليمة وغيرها ، ثم وجد لديهم من خلال القرآن الكريم بعض المظاهر القصصية مثل قصص الأنبياء ، وقصص الأمم التى أرسلوا إليها ، ثم نقل إلى العرب قصص كثير من الأمم المجاورة عن طريق الترجمة التى نشطت نشاطا ملحوظا فى عصر الدولة العباسية ٠ غير أننا لا نستطيع أن نعد الكثير من قصص العرب فى العصر العباسى وما تلاه لونا فنيا أو تراثا أدبيا نزهو به ؛ لأن اللغة التى كتب بها لم تكن فصيحة بل كانت لغة عامية [١] باستثناء بعض الأعمال البسيطة مثل المقامات التى أنشأها بديع الزمان والتى لازالت خالدة حتى الآن ٠ فضلا عما اشتهر وذاع من التراث الشعبى فى العصور المتأخرة مثل قصص عنترة ،والهلالية ، والظاهر بيبرس والأميرة ذات الهمة ، وسيف بن ذى يزن وغيرها ٠

ثم اتصلنا بأوربة ، وتأثرنا بآدابها ، ونقلنا عنها فن القصة عن طريق الترجمة التى نهض بها رفاعة الطهطاوى فترجم

---

(١) اطلعت على نموذج لهذا اللون الشعبى الذى تمت صياغته فى قالب قصصى وأعد للعامة باستيحاء من القرآن الكريم ، وعنوانه (قصة سيدنا يوسف) ولدى صورة من ألأصل المحفوظ فى جامعة (برن) بسويسرا ٠

(مغامرات تليماك) للأديب الفرنسى فيلنون وسماها (وقائع الأفلاك فى مغامرات تليماك)،وابن الطبيعة لإبراهيم عبدالقادر المازنى ٠ وقد نهض المؤلفون بكتابه القصة من خلال التعريب كما فعل حافظ إبراهيم فىترجمته لرائعة فكتور هيجو(les Misirables) البؤساء ، والمنفلوطى فى الفضيلة تعريبا لقصة بول وفرجينى ، ومثل غصن البان لنجيب حداد ٠

إن هذه المرحلة بما فيها من ترجمة وتعريب كانت (أساسا للنهضة القصصية الحديثة فى الشرق العربى ، احتذاها الشباب واستوحاها الكتاب) [١] ٠

وكان اللبنانيون أسبق إلى الاتصال بالأوربيين والأخذ عنهم ، ولعل منهم — إن لم يكن فى مقدمتهم سليم البستانى (ت ١٨٧٤م) وجرجى زيدان (ت ١٩١٤م) وقد اتخذ الرجلان كغيرهما من مصر وطنا لهم ، وبرز ثانيهما فى الصحافة والأدب ، وبرع فى كتابة الرواية التاريخية ، بينما تحول بعضهم عن مصر إلى أمريكا حيث اتخذوها مهجرا لهم كإيليا أبى ماضى ،وجبران خليل، جبران وميخائيل نعيمه ، ونسيب عريضة بينما بقى خليل مطران بمصر حتى وفاته ٠

أخذت القصة العربية تستقل بموضوعها وتتميز بطابعها، فظهرت بعض القصص الطويلة مثل زينب للدكتور محمد حسين هيكل ، وسارة لعباس محمود العقاد ، والتوأمان للشيخ عبد القدوس الأنصارى ، وقد استوحت هذه الأعمال وغيرها التاريخ ، وتحدثت عن الواقع

(١) أحمد حسن الزيات — تاريخ الأدب العربى — ص ٤٣٣ ٠

الاجتماعى ، وحللت النفس الإنسانية ، مع اختلاف الأعمال الروائيـــة وتنوع المشارب والثقافة لأصحابها ٠

والقصة بجميع أنواعها تحكى الأحـــداث الواقعيـــة أو المتخيلـــة بأسلوب جذاب ينتهى إلى غرض مقصود بطريقة مباشـــرة ٠ وربمـــا كانت كتابة طه حسين فى مجموعتـــه القصصـــية (المعـــذبون فـــى الأرض) خير تمثيل للقصة فى قالبها الفنى وموضـــوعها الاجتمـــاعى حتى وإن تمثلت للبعض فى صورة مقال قصصى ٠

ويعالج المؤلف فى **الرواية** موضوعا كاملا أو أكثر زاخرا بحياة تامة واحدة أو أكثر ، فلا يفرغ القارئ منها إلا وقد ألم بحيـــاة البطـــل والأبطال فى مراحلها المختلفة ، وميدان الرواية فسيح أمـــام القـــاص يستطيع فيه أن يكشف الستار عن حياة أبطاله ، ويجلو الحوادث مهمـــا تستغرق من الزمن[١]وفيها تكثر الأشخاص والتفصيلات والجزئيـــات والأفكار ،وهى الصورة الأدبية النثرية التى تطـــورت عـــن الملحمـــة القديمة ، وكان ظهورها فى أوربة مرتبطا بالنظام الإقطاعى الذى ساد العصور الوسطى ، فالرواية كانت الأدب الأرستقراطى غير الـــواقعى للنظام الإقطاعى٠ وهى لم تكن واقعية بمعنى أن الهدف منها لم يكـــن لمساعدة الناس مساعدة ايجابية فى حل المشـــكلات المتعلقـــة بـــأمور الحياة، ولكن للانتقال بهم إلى عالم مثالى مختلف عن عالمهم هو أجمل منه وأحسن [٢] ٠

---

(١) انظر دراسات فى القصة والمسرح لمحمود تيمور٠
(٢) انظر الأدب وفنونه لعزالدين اسماعيل ــ ص ٢٠٣ ٠

وكانت الرواية تصور الحوادث الخارقة كألف ليلة وليلة ، ثم اتجهت إلى تصوير المجتمع فى دقة وأمانة ، واتسمت بالواقعية حينا وبالخيال حينا وهى إما إصلاحية (فنية) أو تاريخية أو اجتماعية أو نفسية على ما سوف توضح بعد .

والأقصوصة قصة قصيرة يعالج فيها الكاتب جانبا من حياة لا كل جوانب هذه الحياة ، فهو يقتصر على سرد حادثة واحدة أو بضع حوادث يتالف منها موضوع مستقل بشخصياته ، كما أن الموضوع مع قصره يجب أن يكون تاما ناضجا من وجهة التحليل والمعالجة [١] وإذا نظرنا إلى هذا التعريف المبسوط — وهو لمحمود تيمور — نرى أن الأقصوصة هى القصة القصيرة وهذا ما يراه معظم الكتاب والنقاد، ويمثلها ما جمعه الدكتور يوسف إدريس فى كتاب (أرخص ليالى) .

أما **القصة** فهى تتوسط بين الأقصوصة والرواية ، ويعرض الكاتب فيها جوانب أرحب مما يعالج فى الأقصوصة[٢] ويمثلها ما جمعه الدكتور طه حسين فى كتابه (المعذبون فى الأرض) كما أن هذه القواعد لم تسلم من النقد ، بل إن المقاييس الفنية التى ارتضاها الكلاسيكيون القدامى قد تم الخروج عليها ولم يعد الالتزام الكامل بها باقيا إلا مع القليل من الكتاب .

ويرى البعض أن القصة القصيرة شىء والأقصوصة شىء آخر ، وهذه الأخيرة تعتمد على المشهد الصغير والفكرة الجزئية واللمسة

---

(١) انظر دراسات فى القصة والمسرح لمحمود تيمور .
(٢) انظر المرجع السابق .

الفنية والفكاهة ، وهذه المقاييس تختلف بالطبع عما قلناه فى التعريف الأول الذى ينصرف بالوضوح السابق إلى القصة القصيرة • ونحن نطالع بعض الكتابات الحديثة التى يمكن أن نضعها فى هذا القالب المذكور • وأن ما نرتاح إليه وسبق أن ذكرناه هو أن القوالب الفنية المعروفة للقصة هى : الرواية والقصة والقصة القصيرة (الأقصوصة) وربما كان من الصعب تقنين العمل الأدبى ووضعه داخل أطر محددة ، ولعل ذلك كان السبب فى انصراف الدكتور محمد حسين هيكل وهروبه من وضع تعريف للأقصوصة • والأمر يرجع إلى كاتب القصة فى نظرته إلى الأشياء الواقعة نظرة خاصة تختلف عن نظرة المؤرخ أو الشاعر(١) •

*****

ظهور القصة القصيرة :

ظهرت القصة القصيرة كلون من ألوان الأدب الحديث فى أوربة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر (الميلادى) فقد جاء الأديب الكبير (جى دى موباسان) وهو قصاص فرنسى شهير ، فرأى أن فى الحياة لحظات عابرة تبدو فى نظر الرجل العادى لا قيمة لها ، ولكنها

---

(١) يشترط نقاد القصة أن تكون :

١ ــ وحدة فنية متكاملة •

٢ ــ محتوية على عنصر التشويق •

٣ ــ خالية من الكلام الذى يشبه الخطب المنبرية •

٤ ــ محتوية على الرمز •

٥ ــ خالية من الغمز الصريح •

(من مقدمة كتاب القصة بنادى الطائف الأدبى) •

تحوى من المعانى قدرا لا بأس به ، وهذه اللحظات العابرة القصيرة المنفصلة لا يمكن أن تعبر عنها إلا القصة القصيرة [١] فهذا اللون إذن يرتبط بموقف معين أو لحظة أو فكرة تعنى شيئا معينا فهى (وحدة مستقلة تصور حدثا متكاملا طال أو قصر لينتهى بنهاية توضح فكرة ما) [٢] .

فالموقف هو الموضوع الغالب على القصة القصيرة ، بينما رسم الشخصية هو الموضوع الغالب على الرواية .

وقد انتقل هذا اللون إلى النمط العربى بفضل مجموعة عن السوريين واللبنانيين الذين بدأوا فى نشر الأقصوصة الحديثة بمصر التى انتقلوا إليها ومارسوا الكتابة الصحفية فيها . نذكر منهم لبيبة هاشم وخليل مطران وسليم عبد الأحد وسلوى سلامة ، كما اشترك معهم بعض اللامعين مثل نقولا حداد ومحمود عزمى وطه حسين وأحمد حسن الزيات . ومارس كل هؤلاء الكتابة فى العديد من الصحف وفى مقدمتها السفور والفلاح والعروة الوثقى ، إلا أن كتابة الشاميين الأوائل قد شابتها بعض الشوائب ، فأغلب كتابتهم كانت تمثل نوعا واحدا من الأقصوصة ، وهو ما يعرف بأقصوصة العقدة (كما أن التحليل النفسى لأبطالها مفقود تقريبا ، وأن الأهمية فيها منطقية إذ أن هذه الأقاصيص تتعمد الإثارة ، وتقديم المفاجئات للقارئ . ونهايتها على الجملة معروفة للقارئ المتعود على قراءة أقاصيص تلك الفترة

---

(١) د .رشاد رشدى ــ فن القصة القصيرة ــ دار العودة ــ بيروت ــ ص ١٣

(٢) . محمد حسين هيكل حياته وأدبه للدكتور طه وادى ــ مكتبة النهضة المصرية ص ١٠٨ .

مهما كانت الحوادث المفاجئة التى تظهر فى ثناياها إذ فكـــرة الخيـــر والشر ، والصراع بينهما واضحة فيها وضوحا تاما ٠ وغالبا ـــ إن لم يكن دائما ـــ تنتهى الأقصوصة بانتصار الخير واندحار الشر) [1] كما أنها اهتمت بالموضوعات الغرامية والمغامرات البوليسية ، علـــى أن هذا النقد لا يعنى عدم توفيقهم فيما كتبوا ، ويكفيهم أنهم بدأوا ، وكشفوا لنا عن هذا اللون الذى تعرف عليه كثير من الأدباء ، ثم اكتمل الشوط بتأثر عدد كبير من المصريين بهذا اللون خاصة من سافر منهم إلـــى أوربة ، وأتقن لغة أو أكثر من لغاتها حتى اكتملت ولادة هذا الفن بعـــد الارهاصات السابقة والمخاضات التى مرت بها على يد محمود تيمور رائد هذا اللون الفنى ٠

(١) حمزة محمد بوقرى ـــ القصة القصيرة فى مصر ـــ طبع شـــركة الطباعـــة العربية السعودية بالرياض ـــ ط أولى ـــ عام ١٣٩٩هـــ ـــ ١٩٧٩م ص ٦٨

قصة (كفارة الحب)
للدكتور / محمد حسين هيكل[١]

كفارة الحب قصة امرأة ذات خمسة وثلاثين عاما ، وقد اتخذ المؤلف من شخصية (حمزة) راويا لها ، وهو رجل يخطو إلى الأربعين بقلب مطمئن ونفس باسمة للحياة سخرا من الحياة ٠ وفى لقاء لحمزة مع أصدقائه سرد لهم حكاية (زهيرة) بطلة قصة (كفارة الحب) ٠

لقد رفضت زهيرة الزواج بعد اتمامها التعليم تحت رغبة العمل إلا أن أباها ثار عليها ثورة عارمة ، ولم تهدأ عاطفته إلا بعد أن وافقت على الرجل الذى صار لها زوجا ـ فيما بعد ـ وقد أغدق عليها زوجها من نفيس الحلى والثياب ما جعلها تقبل يد أبيها شكرا له واعترافا بجميله ، وكان زوجها قليل البضاعة من العلم وذا سعة من المال ، وأكبر منها بعشرين سنة ، وهو إلى ذلك ليس بالجميل ، ولا بذى وفرة من الذكاء أو خفة الروح ٠٠٠ وبعد أن شبعت زهيرة من الهدايا تسرب إليها الملل من هذا اللون من الحب ،وعندما ازداد الضجر من زوجها تحركت الأمومة فى أحشائها حتى ولدت ابنها حساما ، وتحولت بعنايتها إليه ٠

---

(١) ولد محمد حسين هيكل عام ١٨٨٨م فى محافظة الدقهلية بمصر وتوفى عام ١٩٥٦م وله العديد من الكتب والقصص والروايات واشتغل بالسياسة والصحافة والمحاماة وقد بدأ حياته كاتب قصة ٠٠ وختمها كاتب قصة٠
وكفارة الحب قصة من كتاب (قصص مصرية) للدكتور محمد حسين هيكل ـ ط ٢ دار المعارف عام ١٩٨٣م ٠

وأغدق الزوج على ابنه ، وأحبه بطريقة لم تنل الرضا من زوجته ، وقد حاولت أن تتسلى – إلى جانب رعايتها لابنها – بزيارة صديقاتها مع الاقتناع بالواقع والتعايش معه ٠ وقد تعرف زوجها على رجل يعمل بالقضاء وقد نقل من الأرياف إلى القاهرة ، ورأت فيه زهيرة المثال الصادق للرجولة المتفتحة الوثابة ،وعندما أحس الزوج بعناية امرأته بهذا الرجل ورغبتها فى أن يكون ابنيهما صورة منه ، عند ذلك – بدأ الزوج فى التباعد عن هذا القاضى إلا أن الزوجة قد تعلقت به بل تمنت أن تكون زوجة له وليس زوجة لهذا الرجل الذى جمع الزواج بينهما – وانتقل القاضى من المدينة التى التقى فيها بهذه الأسرة وان أبقى على علاقة الحب مع الزوجة – أما هى فقد انجبت ثلاثة أولاد آخرين – وكبروا جميعا وذهبوا إلى المدرسة ، ثم مات الزوج وقرأت زهيرة بعض مذكراته فذرفت عليه الدمع سخينا٠ ثم عرضت على القاضى الزواج ولكنه ابى وقال لها : (ألا ينهض لى عذرا ألا أقدم على التزوج من أم ذات أربعة أبناء ؟!) وأراد الاستمرار فى اللعب بعواطف المرأة أبنائها ومشاعرها وعكفت المرأة على تربية أبنائها مع الرجوع إلى النفس ومحاسبتها على الإساءة والخطأ جزاء ما اقترفت من وزر وخطيئة٠

وحاولت التخلص من ماضيها والتكفير عن ذنبها ، ولكنها لم تفلح وتحدث الناس عنها بالسوء ولم تجد فى أحاديثهم ألما أكثر وأشد مما تعانيه ، وعاشت زهيرة فى يأس ومعاناة ، ولما ذهب (حمزة) لزيارتها ومواساتها قصت عليه الحكاية – وعندما ذهب إلى أصدقائه

متأخرا عن موعده حدثهم عن كل ما سمعه وما أن انتهى من حديثه حتى رن جرس الهاتف (التليفون) فانقبضت أساريره وتجهم وجه ، ثم وضع السماعة وقال لهم : ماتت كفارة الحب منتحرة ، ثم ذهب — بعد أن استأذن منهم — لأداء الواجبات الأخيرة لهذه المرأة الضحية التعسة التى كرهت الحياة والناس .

النص المختار :

قال المؤلف على لسان الزوجة : وزففت إلى زوجى ، فلم يك إلا أيام حتى رأيته يبدى لى من صنوف المودة ، ويغدق على من نفيس الحلى والثياب ، ما جعلنى كلما أقبل على أبى أقبل يده قبلة شكر ، وأعترف بسابغ جميله ومضت الأشهر ، وبدأت الحلى والثياب تكثر ، وبدأت أمل هذا النوع من مظاهر الحب ،وأطمع من زوجى فى شيء آخر . أطمع منه فى جمال نفسه يغمرنى فيزيد فى حياتى ، وأطمع منه فى أن يبادلنى النظرة للوجود وما فيه من حسن واتساق فنى وأطمع منه فيه هو لا فى هداياه ولا فى ماله . أطمع فيه جديدا كل يوم ، مختلفا كل يوم جماله عن اليوم الذى قبله ، مبدعا فى وجوده ووجودى ما يزيد الحياة أمامنا فسحة وانبساطا ورقة وجمالا.

ولم اقف بمطمعى هذا عند الرجاء ، بل حاولت أن أبعث إلى نفسه من وجودى ومن حياتى ومن قلبى ومن عاطفتى ومن هواى ومن عقلى ما يحركه إلى ما أحب . وكأنما شعر المسكين بما تصبو إليه نفسى ، فحاول ، ولكن هيهات ! فما كنا نكاد نبدأ تبادل عاطفة حتى ينقلب فى لحظة حيوانا . فاذا أجبته إلى حيوانيته رأيته بعدها جامدا

باردا منطفىء النظرة ، لا تلمع عيناه بمعنى، ولا يحس لى وجــودا ٠ وما كنا نكاد نتبادل حديثا غير حديث مزارعه وأمواله حتى يتشــاعب ويعجز عن كتم ملاله ٠ وإذا رآنى يوما أعجب بجمال فنى فى صورة أتأملها ، أو فى كتاب أقرؤه ،أو فى منظر الطبيعة يوحى إلى بجمــال الحياة الدائم الجدة ، وقف مبهوتا ، وشعرت أنا به بعيدا ، وكأن بينــى وبينه عوالم وعوالم ٠ فإذا تعلق الأمر بشخصه أو بأمواله أو بشــىء يهواه لمعت حدقتاه وتحركت فى نفسه أثرة قوية لا تعرف حدودا ٠

بدأ الضجر من أنانيته وضعة نفسه يدس إلــى نفســى ســمومه ، ولست أدرى ما كان يصل بى الضجر إليه لولا ما شــعرت بــه مــن تحرك الأمومة فى أحشائى ٠

هنالك ذكرت قول أبى عن واجب المرأة ،وتناسيت ما كنت أطمع فيه من زوجى ، وتناسيت زوجى هو الآخر ٠ وانصرفت إلى أحلامى بهذه الأمومة التى كنت أزداد بها كل يــوم شــعورا ، وأزداد بســببها نسيانا لما عداها وولدت حساما ،وجعلت كل همى العناية به ، واغتبط زوجى بولده ،وجعل يغدق عليه بمثل ما كان يغدق على فتبتهج نفســى لهذه الملابس الطفلة ولهذه الألاعيب يعبث حسام بها ويحبها حبى أنــا إياه ٠

وبدأ الولد يخطو ويتكلم ، وبدأت أرجو أن يناله أبــوه بــالعطف الأبوى الصادق ، وأن يفيض عليه من ذلك الحب نورا يشب الولد فى أرجاء ضيائه سعيدا بالحياة ، محبا إياهــا حبــا ذكيــا قــوى الإدراك سريعه؛ ليكون لى من بعد الرجل الذى أرجو ٠ لكن خيبة رجائى فيما

طمعت فيه لنفسى لم تكن دون خيبة هذا الرجاء فيما طمعت فيه لطفلى ٠ لقد كان أبوه يحبه حبا شديدا ،لكنه كان حبا حيوانيا هو حب الفطرة التى تدفع الدجاجة لتحنو على فراخها ، وتدافع عنه وكان حبا أنانيا لا شيىء من الذكاء فيه ،كان يحبه كما يحب عزبته وحصانه وأتومبيله ، أنانيته وليت فى حب ولده ، أو فيما يبدى من ميل إليه ، كانت أنانيـــة مستنيرة تعرف كيف توحى إلى ما تعتقد أنه فى ملكها بشيء من معنى الحياة الإنسانية يسمو به إلى ذوق جمال الحياة وإلى السمو فى إدراكها بل كانت على العكس من ذلك أنانية ضيفة الأفق ، وكأنانية الدجاجـــة فيها كثير من الحماقة عند الغضب والســخط ، ومـــن العطـــف عنـــد الرضى والانبساط[١]٠

كفارة الحب واحدة من قصص محمد حسين هيكل التى نجدها فى كتبه : " ثورة الأدب ، فى أوقات الفراغ ، قصص مصـــرية " ويعـــد هيكل رائدا فى الرواية، كما أن له باعا طويلا فى كتابة القصة، ولـــذا اخترنا واحدة منها ٠

وهذه القصة مغلفة بغلاف من الرومانسية وقريبة الشـــبه بروايـــة (زينب) ، وهى تمثل النضج الفنى لهيكل ،وتعبر عن البيئة التى عاش بين ربوعها فى النصف الأول من هذا القرن (المـــيلادى)، والقصـــة تروى فى صورة اعتراف بمأساة الزواج الخالى من التكافؤ والذى يتم دون تعارف واقتناع ، وهذا الفكرة وإن كانت قصة خيالية إلا أن لهـــا جذورا كثيرة فى أرض الواقع ٠

---

(١) قصص مصرية ص ١٦ ، ١٧ ٠

اعتنى هيكل برسم شخصياته مع أن مذهبه الفنى لا يحبذ زيادة الأشخاص فى العمل القصصى وهم فى كفارة الحب ثلاثة فقط (رئيسيون) ٠ وقد أجاد فى تحليله النفسى لهم ، فجعل زهيرة تروى حكايتها على لسانها ، وحاول تفهم ما فى شعورها وعواطفها٠

الحدث فى (كفارة الحب) متنام ، ولا نرى فيها خللا فنيا أو ضعفا فى الحبكة القصصية ، ولذا اكتملت الوحدة الفنية فى هذه القصة٠ كما اشتملت على عنصر التشويق ، وكانت العقدة محكمة وقد تمخضت عن نهاية مأسوية على عادة كثير من الروايات الفرنسية وكما فى غادة الكاميليا لألكسندر د يماس ٠ اشتملت القصة على حكمة ومغزى وإن لم يجعل هيكل من نفسه وإعطاء ومرشدا بل ترك الهدف والمغزى للقارئ يتحسسه بنفسه من غير توجيه وإرشاد ٠

وكان هيكل فى أول حياته يستعين بالعامية ولكنه تخلص منها بعد ذلك، وصار يكتب قصصه باللغة العربية السليمة، وإن كان يبالغ أحيانا فى العناية بالأسلوب عندما يسوق حديثا على لسان شخص محدود الثقافة ٠

اشتملت القصة السابقة على مقدمة تقرب من صفحتين ، تحدث فيها المؤلف عن الراوى من ناحية لقائه بأصدقائه وصدقه معهم ودقته فى مواعيده ، وكان من الممكن أن يبين فيها مدى العلاقة التى يرتبط فيها بالبطلة وأسباب هذه العلاقة ولكنه لم يفعل ! وهذه المقدمة مع طولها لا تخدم القصة ، ولا تؤثر فى الحدث ، وأعتقد أنها من أثر اشتغال هيكل بمهنة المحاماة٠

شبح المدينة : [١]

لإبراهيم الناصر نشرت عام ١٩٦٠ م ضمن مجموعة (أمهاتنا والنضال ٠

تعبر هذه القصة عن مرحلة مهمة فى المجتمع السعودى ، وهــى مرحلة التحول السريع فى المعايير الاجتماعية ، تلــك القضــية التــى شغلت أذهان الإخوة السعودبين وبخاصة حملة الأقلام منهم، وهائنــذا هو أشاركهم فى تعقب هذه الفترة بتحرى الأعمال الأدبية التى اتخذتها موضوعا، ومن خلال النماذج البشرية أو الشخوص التى اعتمد عليهــا الأدباء فى تحديد أفكارهم ورسم تصوراتهم ٠ فشيح المدينة " تصــوير لأحاسيس أحد الرعاة البدو الذين يتجرون بالماشية تجاه المدينة ــ فهو موزع النفس بين العيش فى صحرائه بين أهله وعشيرته ،وبين العيش فى المدينة التى تجذبه أضواؤها وحياتها السهلة اللينة ومباهجها[٢] ٠

تبدأ القصة برسم صورة معبرة للزمان والمكان حيــث يتواجــد الراعى جالسا عبر الهضاب ناظرا ببصره الحاد إلى أضواء المدينــة وأنوارها ، قال الناصر : كان الظلام قد ذر قرنه على الوجــود فبــدأ يلتهم المرئيات بالتدريج، ويحيلها إلى كتل صماء تتشح بأردية رمادية آخذة فى الذوبان ،عندما أقعى هو على كثيب ناهد ، تهوم على رأســه رؤى حبيسة أرقه التفكير فيها وذهبت بطمأنينته ٠ ويلوح أنه تعب من جلوسه ، أو أن وحدانية خواطره المنثالة عليه قــد اســتبدت بضــعفه

(١) كاتب سعودى معاصر ، وصاحب نتاج متميز فى الرواية والقصة القصيرة٠
(٢) شبح المدينة من مجموعة (أمهاتنا والنضال ص ١١٦) ٠

فانبطح على بطنه ــ كما هى عادته لإصابة قسط أوفر من الراحة ــ وشرع يمد بصره نحو الأضواء المتراقصة أمامه على امتداد النظــر والتى تسبح فوق ما أطلق عليه بالتلال الآجرية.

إنه ينظر مشدوها عبر الهضاب المخضرة قبالتــه الــى المدينــة السابحة بالأضواء الراقصة وقد استغرقه فضول طاغ ، وكأنمــا قــد شدت عيناه بحبال غير منظورة على نحو يستحيل معه الخلاص مــن قبضتها.

والواقع أنه لم يمكن مأخوذا بــالأنوار المنســكبة هنــاك بتــوهج كالقلادة الماسية وهى تطوق جنيد امرأة ثرية فحســب ، إنمــا كــان مذهولا ومبهورا من نفسه هو ؛ إذ كيف يفسر معنى نظرته المتعاليــة وازدراءه الموصول لذكر المدينة وسكانها ، من هذه الدهشة والــذعر اللذين أطبقا عليه منذ وطأت قدماء أرض المدينة وطاف بأسواقها لأول مرة ؟؟ .

ثم عرض إبراهيم الناصر لوصف المدينة كما تخيلها الراعــى ، وشرح الأسباب التى تذرع بها الراعى لمهاجمة المدينة . وقد واجــه أفكار البطل بآراء زعيم قبلى آخر عندما حل الأول على الثانى ضيفا. وثار بين الاثنين جدل كبير ونقاش حاد حول المدينة . فالراعى كــان يحتقر كل ما يمت إلى المدينة بصلة ، بينما رأى شيخ القبيلة أن فوائــد كثيرة ستعود عليهم نظير التعامل مع تجار المواشى بالمدينــة رأســا، فهى إذن ليست شرا كما تصورها الراعى .

وقد رأى بطل القصة أن يجوب المدينة لعله يتعرف على بعض مثالبها ليتمكن من مهاجمة من يمتدحونها ويعجبون بها، يقول المؤلف:

" ها هو الآن يقتعد ذلك الكثيب ، وبصره يخترق سجف الظلمة التى تفصله عن المدينة السابحة فى بحور من الأنوار، وقلبه يثب بين ضلوعه مستبعثا لصاحبه لحظات الندى الطرية التى هبت نسماتها الضواعة بالأريج على قلبه فأثملته حتى كاد ينسى أنه إنما جاء بحثا عن المثالب فقط أو السيئات بروح عدائية وليست حيادية ، فإذا بكل ما يراه ويشاهد ، يستهويه ويستحلب ريقه للامتلاك والاستحواذ عليه" .

وعندما اقتحم المدينة أخذته أنوارها ، وأعجب بعناية أهلها بنظافة أنفسهم مما جعله يشعر بالاحراج من خلقته الرثة ومنظره الزرى ، وأراد أن يغير من وضعه فاشترى حذاء جديدا يتعثر به كالطفل مما أقلق زوجته التى ثارت عليه فرد عليها مهينا ، وشوه صورتها، الا أن المرأة ابتلعت ثورتها ، وأخمدت نيران غضبها على مضض .

وفى ختام القصة يتجول الرجل بالمدينة وهو غافل تماما عن خيمته وبقايا ثروته لكنه لم يلبث أن أفاق من غفوته ، وهب عائدا إلى خيمته بعد أن أخذت رغبته التى التهبتها أشباح تتراجع وتتقهقر من غير أن تذوب أو تتلاشى تماما .

" النص المختار " [1]

يقول : " كان مرأى المدينة فى ذلك المساء قد أوقد فى نفسه رغبة عارمة لأن يجول فى أرجائها المشعة بالنور ،ولم يجد ما يمنـع مـن تحقيق تلك الرغبة ، فانتصب قائما ويمم شطر المدينة يدفعه فضـول متشوف لحوح ، وقد نسى تماما الخيمة التى تربص كالألم فى قلبه إلى خطوات منه ، يجذبه نحو الأنوار إحساس عجيب لا يقاوم كالذى يشـد (مؤشر البوصلة نحو القطب) ولعله قرر أن يهرب إلـى الأبـد نحـو الأضواء !! لولا أنه عندما غد السير صك سمعه عواء ذئب جـائع ، فارتعش قلبه لدى سماع ذلك العواء ، وكأنما أفاق من سنة نوم ، وقـد تذكر ابنه الذى التهمه أحد الذئاب المتوحشة فى غفلة من أمـه ، وإذا بالذكريات تنثال عليه كالشعاع الذى يكشف الطريق ، طريق حياتـه . فكان أن أحس للتو بما يشده إلى خيمته المتسخة تلك من وشائج، وهم زوجته ولديه كل دنياه . ومن جديد تكرر العواء ، فنفرت من قلبـه مشاعر مذبذبة ،عندما أيقن أن هناك عينين شرستين تراقبان تحركاته ، فأحسن بالشرار يكاد يلهب قفاه وينفذ إلى أضلعه لا انتـزاع حياتـه ، فاستدار على الفور وانتقل مسرعا ليطمئن على صغاره ، والرغبـة التى ألهبتها أشباح المدينة تتراجع بالتدريج لتستقر هناك فـى أعمـاق نفسه ولكنها لا تذوب ... أو تتلاشى تماما " .

ولعلك لاحظت معى عناية الكاتب باللغـة، واهتمامـه بالوصـف والسرد الأسلوبى، وتصويره لبطل القصة وهو يتقـدم ويوغـل فـى

---

(١) نموذج يعبر عن نهاية القصة .

التمسك برأيه، ثم وهو يتقهقر معه إلى الوراء عندما اشتد فى حواره أو فى نزاعه مع شيخ القبيلة ، وأخيرا نراه وقد صمم بعزيمة ورباطة جأش على مهاجمة المدينة • وكشف لنا الكاتب عن هوية بطل القصة من خلال حديثه عنه ومن خلال التصرفات التى قام بها •

وقد بدت الأحداث غير مترابطة ، كما خلت أيضا من العقدة والحل مما أفقدها شيئا كبيرا من التشويق الذى ينتظره القارئ ويتابعه لمعرفة النتائج وذلك من خلال الحل الذى يحثنا عنه فلم نجده •

وأخيرا يكفى الناصر قدرته على الصياغة الجميلة المعبرة واهتمامه بالوصف وعنايته بالأسلوب الرومانسى الشفاف ، واستعانته بالكلمات الجميلة الهامسة والمعبرة ، وإن كان ذلك على حساب المعنى الذى ضعف كثيرا كما سبق أن أشرنا فى السطور السابقة •

فن الرواية

تحدثنا سلفا عن فن الرواية من خلال الحديث عن القصة ، وهى تتميز من الألوان القصصية الأخرى بالطول؛ حيث تكثر فيها الأشخاص والتفصيلات والجزئيات والأفكار ، فيتمكن المؤلف بذلك من معالجة موضوع أو أكثر، ومن الالمام بحياة الأبطال فى مراحلها المخلتفة ،ومن كشف الحوادث وتجليتها مهما استغرقت من زمن ۰ وكان ظهورها فى أوربة مرتبطا بالنظم الإقطاعية التى سادت الحياة فى العصور الوسطى ، وهى لذلك تحكى مغامرات خيالية ، وقصصا خارقة مثلما وجد عندنا فى قصص الف ليلة وليلة ، ثم اتجهت الرواية إلى تصوير المجتمع من خلال الواقع حينا والخيال حينا آخر ۰

وفى أدبنا القديم صور كثيرة تشبه إلى حد كبير الرواية الحديثة، ولكنها ليست أدبا بالمقاييس الفنية التى تعرفنا عليها بعد الاتصال بأوربة ۰

وقد مرت الرواية كالقصة بمرحلة الترجمة والتعريب، ثم تطورت عندنا أيضا حتى أصبح لنا روايات عربية أصيلة مثل "زينب" للدكتور محمد حسين هيكل ، "والأيام" للدكتور طه حسين، "وساره" لعباس محمود العقاد ، ومثل الروايات التاريخية لجرجى زيدان، ومثل (التوأمان) لعبدالقدوس الأنصارى، وموسم الهجرة للشمال للطبيب صالح وغيرها۰

نظرة على الرواية العربية :

- سبق اللبنانيون إلى فن الرواية لسبقهم إلى مخالطة الأوربيين والأخذ عنهم ، ويعد سليم البستانى رائد الرواية اللبنانية الحديثة وله "زنوبيا" و"بدور" و"أسماء" وغيرها ، وأن كان انتاج اللبنانيين من الرواية حتى أواخر العقد الأول من القرن العشرين مفككا وغير مكتمل البناء : " وقد كان الكتاب فى الأغلب الأعم من الطبقة البررجوازية ۰ أرادوا التعبير عن أحاسيسهم الفردية ، ورؤاهم الخاصة، وهم فى سعيهم نحو تقليد البورجوازية الغربية استعاروا كثيرا من أفكارها وآمالها ۰ وإن لم يوفقوا فى تقليد الشكل الفنى تقليدا محكما ۰ ولم تصدر كتاباتهم الروائية من منطلق محدد ، وموقف واضح من الواقع اللبنانى والعلاقات الاجتماعية والمادية فيه ، وقد كان لغيبة الرؤية وضبابية الموقف اثر فى نتاجهم الموزع والمفكك فنيا [1] إلا أن رواياتهم قد تقدمت وتطورت فيما بعد ، وكانت روايات جرجى زيدان ذات لون تاريخى خاص ۰ وممن كتبوا الرواية فى لبنان جبران خليل جبران (المهاجر) صاحب الأجنحة المتكسرة ۰
- وتعد مصر من الدول المتقدمة فى كتابة الرواية بعد لبنان، إذ أن رواية زينب من أول الروايات الناضجة فنيا ۰ وقد أثارت مناقشات عديدة بعد أن كتبها الدكتور هيكل فى فرنسا وأتمها

---

(١) بانوراما الرواية العربية الحديثة ـ ص ٩١ ـ د سيد حامد النساج الطبعة [illegible]

فى سويسرا ونشرها بمصر عام ١٩١٤م • ومن الروايات المصرية : "الأيام" لطه حسين، و"إبراهيم الكاتب" لإبراهيم المازنى و"عودة الروح" و"عصفور من الشرق" لتوفيق الحكيم، و"سارة" للعقاد، و"نداء المجهول" لمحمود تيمور، و"قافلة الزمان" و"الحصاد" لعبدالحميد جودة السحار ، كما برع كثير منهم فى كتابة الرواية بخصائصها الفنية مثل نجيب محفوظ، ويحى حقى ، ويوسف السباعى، وعبدالرحمن الشرقاوى، ونعمان عاشور وغيرهم •

- وقد تأخر ظهور الرواية فى سوريا إلى عام ١٩٣٧م حيث صدرت فى هذا السنة أول رواية فنية لشكيب الجابرى ، ثم توالت الروايات بعد المراحل الأولى ، فظهرت رواية (الحب المحرم) ١٩٥٢ م لوداد سكاكينى، وفى عام ١٩٥٤م ظهرت رواية (المصابيح الزرق) لحنا مينة وهى أول رواية له، وفى عام ١٩٥٨ م أخرج أديب نحوى روايته الأولى (متى يعود المسافر؟) وهى أول رواية سورية تتناول علاقة الفلاح بالأرض وبالإقطاع من منطلق واقعى اشتراكى [١] .
- ويدور المضمون فى القصة الفلسطينية حول ضرورة العودة إلى الأرض ، ولهذا كان الاتجاه الواقعى هو الغالب على القصص الفلسطينى مثل رواية (صراخ فى ليل طويل) لجبرا

---

(١) المرجع السابق ــ ص ١٢٧ •

إبراهيم جبرا ، ورواية (عائد إلى حيفا) لغسان كنفانى ، وقد صدرت بعد عام ١٩٦٧م .

- والرواية فى العراق قليلة ونادرة ، ويعد محمود أحمد السيد الرائد الفعلى للرواية العربية فى العراق ، وأول رواية له هى (فى سبيل الزواج) وصدرت عام ١٩٢١ م .
- وكتب على الدوعاجى ــ وهو أبو الرواية التونسية الحديثة ــ أول رواية عربية تونسية بالمنظور الفنى عام ١٩٣٥ م تحت عنوان (جولة حول حانات البحر الأبيض المتوسط) ولم يكن الدوعاجى وحده ، بل كان معه كثيرون أضافوا إلى ما كتبه عددا غير قليل من الروايات .
- وتعد الروايات التى صدرت باللغة العربية فى المغرب العربى قليلة على الإطلاق ؛ لأن بعضهم قد كتبها باللغة الفرنسية ، وإن كانت حركة الترجمة قد شملت عددا كبيرا من الروايات التى صدرت بغير لغة الضاد . وتعد تونس من أكثر هذه البلاد انتاجا وصقلا لفن الرواية الحديثة .
- بينما تأخر ظهور الرواية فى المغرب الأقصى إلى عام ١٩٥٧م حيث صدرت رواية (فى الطفولة) لعبد المجيد بن حلون وقد كتبها وهو بمصر مبعوثا من طرف الحركة الوطنية ليتلقى تعليمه فيها ، واتخذت روايته " شكل السيرة الذاتية ، مزيج من التخيل الروائى والسرد ذى التلقائية اللامحدودة . أراد الكاتب أن يحكى قصة طفولته ، فلم يتخل عن رؤيته

الخاصة ، واعتمد على ذاكرته اعتمادا قويا، وكان صريحا فى كل الجوانب المرتبطة بعالمه الذاتى وبحرصه على إبراز مجموعة من الخصائص التى تهمه هو " .[(١)]

- ويعد أحمد رضا حوحو واضع اللبنات الأولى للقصة العربية في الجزائر، وله رواية باسم (غادة أم القرى) وقد أصدرها عام ١٩٤٧م وربما تكون هذه أول رواية عربية جزائرية تعالج قضية المرأة ووضعيتها فى المجتمع ودورها وحقها فى الحب والعلم والحرية وهى المحاور الرئيسية التى تدور حولها الرواية[(٢)] .
- وللطيب صالح رواية (عرس الزين) ورواية (موسم الهجرة إلى الشمال) وهو من الروائيين السودانيين المبرزين . كما كتب أبو بكر خالد أولى رواياته وهى (أم درمان الجديدة) عام ١٩٥٧م .
- وفى عام ١٩٣٠ م صدرت رواية (التوأمان) للشيخ عبدالقدوس الأنصارى ، وهى بداية متواضعة للقصة الطويلة فى الأدب السعودى الحديث ، وأصدر أحمد السباعى رواية واسمها (فكرة) وأخرى واسمها (أبو زامل) وله غيرهما . ومن المتفوقين فى كتابة الرواية بالمقاييس الفنية حامد دمنهورى ، وله روايتان عظيمتان أما أولاهما فهى(ثمن

---

(١) المرجع السباق ــ ص ٢٠٦ .
(٢) المرجع السابق ــ ص ٢٢٠ .

التضحية) وصدرت عام ١٩٥٩ م وثانيتهما (ومرت الأيـام) في عام ١٩٦٣م ٠

- وقد ظهرت روايات أخرى ولكنها قليلة ومنهـا (الشـياطين الحمر) و (سنوات الضياع) لغالب حمـزة (أبـو) الفـرج ، (وثقب في رداء الليل ، وسفينة الحـب ، وعـذراء المنفـى) لإبراهيم الناصر ، ولا زالت روايته الأولى منها في الصدارة حتى الآن ، ولمحمد عبده يماني (اليد السفلى) تلـك الروايـة التي مثلت وأذيعت في ثلاثين حلقة بإذاعة الشـرق الأوسـط المصرية ، وله أيضا (فتاة من حائل) وهي مطبوعة لسـائر الناس في مجلد ضخم ، ولأمل محمد شطا (غـدا أنسـى) ٠

ألوان الرواية :

وقد تعددت الألوان للرواية العربية الحديثة فظهر منها لون تعليمي (فني) ويمثله (علم الدين) لعلي مبارك و(التوأمان) للأنصـاري ٠٠ وأذكر في هذا المقام أن الروايات الأولى التي صدرت في سائر البلدان العربية قد لقيت كثيرا من العناية شرحا ونقدا وتحلـيلا وذيوعـا ؛ إذ عرف القراء (زينب) لهيكل ولم يعرفوا (هكذا خلقت) التي صدرت له في مرحلة متأخرة ،ولكني أعجب ممن يسـرفون فـي نقـدهم لتلـك الرويات الأولى التاريخية روايات جرجي زيـدان، و(انـا الشـعب) لمحمد فريد أبي حديد، و(أمير الحب) لمحمد زارع عقيل وقد نشـرها منجمة في مجلة المنهل عام ١٣٨٥هـ ،وهي أول رواية تاريخية فـي

الأدب السعودى الحديث ٠ ومن الروايات الاجتماعية (زينب) لهيكل و(الأيام) لطه حسين و(عذراء المنفى) لإبراهيم الناصر ٠

ومن الروايات النفسية (سارة) للعقاد و(إبراهيم الكاتب) لإبراهيم المازنى ، على أن تقسيم الفن الروائى إلى هذه الألوان تقسيم اجتهادى يخضع لرؤية الناقد ،وقد يختلف فيه اثنان فأكثر ٠

محمود تيمور روائيا:

نشأن محمود تيمور فى أسرة أرستقراطية لها أمجادها التاريخية وكان والده أحمد تيمور باشا أديبا متواضعا، يؤثر مجالس العلماء والأدباء الذين كانت تزخر بهم الحياة آنذاك مثل الشيخ محمد عبده والشيخ الشنقيطى الكبير وغيرهم ٠ وربما تكتمل صورة هذه البيئة إذا عرفت شيئا عن عمته (عائشة التيمورية الأديبة الشاعرة التى ربما كانت فى رأى بعض النقاد أول أديبة عربية فى عصر النهضة [١] كما يعد أخوه "محمد" من السباقين فى ميدان العلم والأدب ، والذى كان يرى ضورة إيجاد أدب عربى تنبع مادته من الحياة المحيطة به مع التزود من الثقافات الأجنبية خاصة فى فنون القصة والمسرحية ٠ ولعلك تكون قد تعرفت على شىء بسيط من البيئة المحيطة بمحمود تيمور الذى ولد بالقاهرة فىعام ١٨٩٤ م ، وتعلم فى المدرسة الابتدائية ثم الثانوية ،والتحق بمدرسة الزراعة العليا ، إلا أن المرض الذى أصابه لم يمكنه من استكمال تعليمه العالى ،ولذلك بحث عن وسيلة أخرى يستكمل بها ذاته ويثبت وجوده فلم يجد إلا الأدب قصة

---

(١) القصة القصيرة ــ حمزة بوقرى ــ ص ١١٣ ٠

وأقصوصة ورواية ، فاطلع على كتاب ألف ليلة وليلة واستمع إلى حكايات عمته ، وقرأ ديوان شعرها .

وكان أخوه محمد قد سافر إلى باريس عام١٩١١م وعاد منها بعد ثلاث سنوات بعد أن استوت له معرفة حقيقية عن أدب القصة والمسرحية ، فأخذ يلقن أخاه محمودا مبادئ المذهب الواقعى فى الأقصوصة الغربية ، بل أخذ يقرأ له مؤلفات جى دى موباسان إلى أن توفى محمد عام ١٩٢١ م وهو فى شرخ الشباب . وهكذا استطاع محمود تيمور أن يجمع بين الثقافتين العربية والغربية من غير أن تطغى أحداهما على الأخرى . ولم يصل إلىعام ١٩٢٥ م حتى تجمعت له مادة من الأقاصيص بدأ فى نشر المجموعة الأولى منها واسمها (الشيخ جمعة وقصص أخرى) والتى تحدث فيها عن شخص لا يزال حيا ، وعن حوادث عاصرها وعاشها بنفسه . وعندما سئل عنها قال : إن ما فيها من الحقائق يساوى ثمانية أعشارها ، وأن الباقى من إضافة الكاتب .

ثم نشر المجموعة الثانية واسمها (عم متولى وقصص أخرى) وفى هذه المجموعة طغت استنتاجات الكاتب وتصوراته على الحقائق الملموسة ويؤخذ عليه فى هذه الكتابات نزوعه إلى المبالغة والخير والإصلاح والاجتماعى فضلا عن شيء من النزعة الخيالية.

وقد ارتحل تيمور إلى فرنسا ،وبقى بها سنتين وتمكن من مطالعة آدابها ، وقرأ بعض الأعمال الأدبية لكبار الكتاب مثل تورجنيف وتشيخوف وغيرهما . وزاد مع الخبرة والممارسة انتاجه الذى بلغ

أكثر من عشرين مجموعة من الأقاصيص والقصص الطويلة ، وغالبها يمثل : " لوحات الحوادث ومواقف وأحوال اجتماعية نفسية ، ويظهر في كثير منها نزعة تحليلية كما يظهر فى كثير منها نوع من العطف على شخوصه مع الاعتدال فى التصوير [١] .

وقد جعل أقاصيصه تتسع لنزعات انسانية عامة مثل نزعة الخير ونزعة الكمال أو نزعة الإحساس بالجمال ،وعن مكانته فى كتابة القصة قال الدكتور شوقى ضيف : " ويكفى أنه مؤسس فن الأقصوصة فى الأدب العربى الحديث ، حقا سبقه إليها أستاذ وأخوه محمد ، ولكنه هو الذى نماها ووسع طاقتها ، وجعلها شبيهة بما ينتجه أدباء الغرب فى هذا المضمار ، مما كان سببا فى أن تترجم كثير من أقاصيصه إلى الفرنسية والإيطالية والألمانية والإنجليزية والروسية ، فهو أستاذ الأقصوصة فى عصرنا غير منازع [٢] .

ومن مجموعاته القصصية غير ما ذكرنا : مكتوب على الجبين ، كل عام وأنتم بخير ، إحسان الله ، شفاه غليظة ، شباب وغانيات ، وله من القصص الطويلة ٠ نداء المجهول ، كليوباترة فى خان الخليلى سلوى فى مهب الريح وقد صاغها بأسلوب بسيط صادق ممثل للواقع فى بساطة ولين ٠ وله مسرحية من فصل واحد وهى حفلة شاى، وله مسرحيات طويلة مثل ابن جلا وحواء الخالدة واليوم خمر ، وصقر قريش ٠ وقد يستمد بعض أحداث مسرحياته الطويلة من الواقع مثل

---

(١) الأدب العربى المعاصر للدكتور شوقى ضيف ص ٣٠٢ ٠
(٢) المرجع السابق ــ ص ٣٠٢ ٠

المخبأ رقم ١٣ ٠ واستعمل العامية فى بعض أعماله ثم عدل عنها إلى الفصحى ، واستمر فى عطائه المتدفق حتى توفى عام ١٩٧٣م ٠

سلوى فى مهب الريح :

" قصة تحليلية واقعية للجانب العابث فى حياة الطبقة الارستقراطية، وبطلتها سلوى فتاة فقيرة تضطرب فى خضم الحياة ، وتدفعها عوامل البيئة والوراثة إلى الزلل"(١) .

لقد نشأت سلوى فى بيت جدها لأبيها بالإسكندرية ، وكان والدها قد طلق أمها لسوء سلوكها ثم وافاه الأجل ، فعاشت سلوى فى رعاية الجد الذى عوضها عن حنان الأبوين ، وقد حضرت ذات مرة احتفال إحدى الجمعيات الخيرية فتعرفت على فتاة ثرية من الطبقة الارستقراطية تدعى سنية ، وتعرفت أيضا على خطيبها شريف وصديقه حمدى ٠

وقد عاشت سلوى مع صديقتها فترة من الزمن بعد وفاة جدها ، ثم لم تلبث أن حضرت أمها إليها واصطحبتها معها إلى حيث تعيش بالقاهرة فى حى السيدة زينب ، وعرفت بسلوك أمها المشين ، وأبقت على صداقتها بسنية وماتت أمها وتزوجت، بينما تزوجت سلوى بحمدى الذى لم يلبث أن أصيب بداء عضال دخل معه المستشفى، ثم انهارت سلوى وتردت إلى هوة سحيقة فى علاقتها بشريف أثناء وجود زوجها بالمستشفى، وربما كان ذلك أثرا من ميراثها السيىء ثم لم يلبث شريف أن انتحر بعد أن فشل فى حياته، وبئس من العثور على

---

(١) المرجع السابق ــ ص ٣٠٣ ٠

المال الذى يستمر به فى لعب القمار ، وقد لحق بـه حمـدى فمـات بدائه، ثم ولدت سلوى وليدها الذى مات هو الآخر . ويؤتى لها بطفل ابن صديقتها سنية من شريف ، وتغفر سنية لسلوى زلتها معها عنـدما خانتها مع زوجها . ولنقرأ السطور التالية التى يستهلها الـنص : لا أذكر من تاريخ حياتى قبل العاشرة من عمرى إلا أطيافا شاحبة ... فى تلك الفترة كان يكفلنى جدى لأبى ، فأقمت معه فى منزلنا العتيق بحى (محرم بك) فى الإسكندرية : منزل لا فخامة فيه ، تحيط بـه حديقـة شعثاء ، ويطل على حارة منزوية لا تطرق . وكان جدى منذ تـوفى أبى قد أخلد إلى العزلة وآثر الوحدة ، وتوضحت على محياه سـمات التجهم للدنيا والتبرم بالحياة ... ولم يكن يزوره إلا رجـل علـت بـه السن، وقوضت بناءه الأيام ، يدعى " الطوخى أفندى " فيمضى كلاهما بعض الوقت فى حجرة الضيافة القائمة فى ركن من الحديقة ، فأراهما حينا يتناقلان الحديث ، وحينا يلعبان بالنرد ناشطين لا يعتريهما ملال. وكنت وأنا فى حجرتى يصك سمعى صوتهما مدويا كهزيم الرعـود ، فتنتظمنى رجفة ويخيل إلى أنهما مشتبكان فى تضارب وسـباب! ولـم يكن فى الدار من الخدم غير " أم يونس " و"الحاج مسـرور" الأولـى ضامرة عجفاء ، توهم من يراها أنها تنوء بـالأمراض ولكنهـا فـى الحقيقة صلبة العود قوية الأعصاب ... أمـا الحـاج مسـرور فكـان سودانيا أميل الى البدانة طلق الوجه هادئ الصوت... وكـان كلاهمـا يحسن معاملتى ويتعهدنى بعطف وحدب فشعرت نحوهما بحب وشغف

وشد ما كان يسوءنى أن أرى جدى لايعاملهما بالحسنى ، فهو ينحـــى دائما عليهما باللائمة، ولا يفتأ يؤاخذهما ويسفه اراءهما فى كل شىء[١]

ويقول فى موضع آخر[٢] :

وكثيرا ما كنت أصادف عند (سنيه) غلامـــين يكبراننـــا بـــأعوام قلائل ، الأول يدعى (شريف) وهو من ذوى قرباها غير أنه لا يساميها جاها ومالا : فتى مهندم عليه طابع النبل ، ذلق اللسان جرئ ، يـــدخل على " الزهيرى باشا" وهو فى مجلسه مع أصدقائه ، فيصافح الجمـــع واحدا بعد واحد وهو مرفوع الرأس يبتسم ، ويأخـــذ مقعـــده بيـــنهم ليشاركهم الحديث ، كأن ليس بينه وبينهم من فارق... وكان (الزهيرى باشا) يطيل معه الكلام ، ويكثر من محاورته فى مختلـــف الشـــؤون ، فكان (شريف) يجيبه فى لباقة وسرعة خاطر يـــدهش لهمـــا (الباشـــا) وزواره ٠

وقد أخبرتنى " سنية" فى سر أنها مخطوبة له من الآن ، وكان إذا ظهر أمامنا التصقت بى سنية وانطلقت تلقى فى أذنى بكلمات لا أفهـــم معناها ، وأخذت تضحك فى اهتياج فترن ضحكتها باردة مفتعلة تثيـــر الغيظ ... ثم تنفرد به وقتا طويلا تلعب معه غير حاسبة لوجودنـــا أى حساب، وإذا انتهت زيارته وخرج ألفيتها تمسح عينيها وتدس وجههـــا فى أحضانى! ٠

(١) سلوى فى مهب الريح ص ٣ ، ٤ ولا تحمل الرواية فى الطبعة التى بـــين يدى تاريخا للطبع أو اسم الدار الناشرة !! ٠
(٢) المرجع السابق ــ ص ١٤ ٠

أما الفتى الآخر ، فيدعى " حمدى" وكنا نكنيه " أبا فصادة؛ "لأنه كان بائن الطول ظاهر النحافة ، إذا جرى خلفنا أثناء اللعب وجدناه يقفز قفزات بعيدة ... لوجهه قسمات متناسبة هادئة ، ولعينه بريق عجيب ... يؤثر الصمت ، حتى يشعر الإنسان وهو معه أنه فى حضرة فيلسوف حنكته السنون ! ... " ٠

وأسلوب محمود تيمور واضح فى هذه الرواية من خلال القدر الذى اخترناه منها ، وواضح أيضا فى تصويره للشخصيات المختلفة التى تمثل عدة شرائح من المجتمع ، وهى تنكشف تارة بوصفه لها أو من خلال تصرفاتها مثل الأم المطلقة وشريف (المنهار) ، وقد تعقب المؤلف البطلة فى مراحلها المختلفة مع الجد ثم من الأم ثم مع الزوج ، والقى عليها " أضواء كثيرة تصور تطورها النفسى من فتاة طاهرة إلى فتاة دنسة تعسة ، وقد كانت اليد التى تنكرت لها هى نفس اليد التى تقدمت لها فى محنتها ، تريد أن تخرجها منها ، فالخير الذى يؤمن به الكاتب لا يزال يرسل شعاعه على البشر وما انطووا عليه من شرور"[١] ٠

والملاحظ أن الرواية تندرج ضمن الأعمال المبكرة فى هذا الفن بمصر، والبطولة نسائية وهى الشخصية الأولى فى الرواية مما يجعلها ضمن الروايات التقليدية التى لم تكن تخضع لمجموعة من الشخوص ، تمثل البطولة الجماعية فى العمل القصصى الطويل٠

---

(١) الأدب المعاصر للدكتور شوقى ضيف ــ ص ٣٠٦ ٠

والرواية محبوكة الأطراف اعتنى فيها محمـود تيمـور بالبنـاء القصصى والسرد البيانى وأحكم الاتصال بين الحوادث على اخـتلاف مفارقاتها ومفاجأتها ، مع طولها وكثرتها وتشعبها إزاء المرحلة التـى تمثلها وتصورها الرؤية ولعل فى هذه الرواية ما يكشف عن انصراف المؤلف إلى البيئة وعنايته بالمشكلات الاجتماعية التى تنجم عن تفكـك الأسرة وتحلل الأخلاق، مع طولها وكثرتها وتشعبها إزاء المرحلة التى تمثلها وتصورها الرواية ٠

ثمن التضحية [١] :

تتناول ثمن التضحية البيئة الحجازية وما حدث فيها نتيجة لانبثاق الموعى وظهور الطبقة المتوسطة المتعلمة المثقفة ، وأيضـا قضـية الزواج من فتاة متعلمة ٠ وتعد هذه الرواية من أنضج الروايـات فـى النثر السعودى الحديث ٠

وقد وفق الكاتب فيما كتبه عن البيئة الحجازية من خـلال حديثـه عن المنزل والحارة والشارع ٠ وفى حديثـه عـن بعـض الطبقـات يستطرد فى تصويره للسوق وما يجرى فيه من أساليب البيع والشراء، ويقدم من خلال حديثه عن الأسرة صورة لتقاليد الزفاف وما يتخذ لـه من استعدادات فى إطار التقاليد الموروثة ،وفى ضوء ظهور الطبقـة المتوسطة ٠ أما مشكلة الزواج فسوف تبقى موضـوعا لكثيـر مـن الروايات ٠ وبطل الرواية هو أحمد ذلك الشاب الذى يواصل تعليمـه ويبعث إلى الخارج لاستكمال دراسته ، وقد اختار له أهله بنت عمـه

(١) للأستاذ حامد دمنهورى ٠

(فاطمة) لتكون زوجة له ، إلا أن قلبه مشبوب بحب (فـــائزة) التـــى تتوافق معه فى الأفكار والثقافة والمشاعر ٠ وقد ترك أحمد من أحبهـــا وتزوج بفاطمة ليدفع معها الثمن غاليا ولذلك كانت الرواية باسم ثمـــن التضحية ٠

ولقد قدم الاستاذ حامد الدمنهورى فى هذه الرواية نموذجا للجيـــل القديم من خلال هذا المشهد الذى قال فيه " وكان أحمد يجلس بـــالقرب من النافذة على الأريكة الخشبية العريضة المكسوة بقمـــاش حريـــرى مشجر مستندا بيمناه على وسادة ضخمة ، وقد وضع كتابه فى حجـــره متتبعا الأذان فى صمت ، حينما التفتت إليه أمه فـــى انزعـــاج تـــأمره بتغطيه رأسه فيصدع لأمرها بوضع يمناه على رأسه وكأنما يرى فـــى ذلك ما يكفى للتعبير عن إطاعة أمر أمه ، ولكنها تشير له الى غترتـــه المعلقة فيسرع إلى التقاطها ويضعها على رأسه ، ولكن أمه لا تكتفـــى بذلك بل تسارع إلى التعليق على ما بدر منه قائلة :

لقد نصحتكم مرارا بتغطية رءوسكم وقت الأذان ، فلقد كبرتم فـــى السن ولكن عقولكم آخذة فى النقصان ،ما فائدة العلم الذى تتعلمونه إذا لم تستخدمون فيما يفيدكم ؟٠

وبالرغم مما كرره أحمد مرارا أمام والدته مـــن أن أمثـــال هـــذه التعليمات أو الطقوس ليست من الدين ، فهو لم يقرأ عنها شيئا فيما بين يديه من كتب ،ولم يتلق من أساتذته ما يفيد بأنها مـــن صـــميم تعـــاليم الدين، إلا أن أمه تحاول تثبيت ذلك فى ذهنه بشـــتى الطـــرق ، فقـــد أشارت له مرة بأن والديها قد لقناها ذلك منذ صغرها ، فحـــاول هـــذه

المرة كذلك أن يناقشها فيه ، إلا أنها أشارت إليه بالصمت ، وعـــادت إلى جلستها على السجادة متجهة نحو القبلة فيرى فى هذه الحركة مـــا يقنعه بصدق رأيه، ويؤكد له صواب اعتقاده[١] .

وقد علق الدكتور منصور الحازمى على هذا الموقــف فقـــال : " ونلمس هنا براعة المؤلف فى إعطائنا مشهدا طريفا عن طيبة الجيـــل الماضى وسذاجته ومدى تعلقه بالعادات والتقاليــد ،وتشــبثه بمثاليــات روحية تصل فى بعض الأحيان الى الإيمان بخرافات مضحكة وجدت سبيلها إليهم من خلال العصور الغابرة عصور الظلام [٢] .

وفى حديث الدمنهورى عن قيمة العلم يقول على لســان فاطمــة وهى تتحدث إلى أمها " إن المستقبل للمتعلمــين ، وأعتقــد أن بلادنـــا سوف تكون ميدانا فسيحا لكل متعلم ، أما الجاهل فسوف يضيق بحياته حينما تتطور مطالبه وتتضاعف احتياجاته " .

ولعلك قد أعجبت معى بما قدمته لك كأمثلة لأسلوب الــدمنهورى فى العرض والتحليل النفسى ورسم الملامح وانسياب الأحــداث مــن خلال هذا الأسلوب الرومانسى الجميل الذى ابتعد عن العامية إلا فـــى لقطات قليلة وفى مواقف حوارية خاصة .

الحصاد [٣] :

كتب عبدالحميد جودة السحار رواية الحصاد عام ١٩٥٩م حيــث تناول فيها جانبا من الأوضاع السياسية فى مصر قبــل ثورتهـــا عـــام

---

(١) ثمن التضحية ص ٤٥ ، ص ٤٦ .
(٢) فن القصة للدكتور منصور الحارثى ــ ص ٥٨ .
(٣) عبدالحميد جودة السحار .

١٩٥٢م ولذلك تحدث بحريته وصراحته عن أسرة (سليم باشـــا)؛ إذ أن الباشوات كان لهم اتصال بالحياة السياسية آنــذاك ٠ وقــد بــدأت الرواية بتساؤل سليم باشا عن الانعامات الملكية التى يحلم بــأن ينــال بعضها خاصة وأنه دفع فى سبيلها عشرة آلاف جنيــه ليــتمكن مــن الحصول والفوز بلقب (باشا) حتى يستطيع أن يكون وزيرا ٠ وتــابع الكاتب تحليله وجمعه اللخيوط التى يتشــكل منهــا النســيج المكتمــل لشخصية الباشا٠ ومن واقع اهتمام المؤلف بالشخوص يجعلــك تــتفهم طبيعة (أمينة هانم) زوجة الباشا التى أنحب منها ابنه حلمــى بينمــا انجب ابنه (عبدالخالق) من زوجته السابقة ٠

وجمع السحار هذه الأسرة على مائدة واحدة ليتحــدث عــن كــل شخصية بانفراد ، ثم اتسعت الأسرة عندما تزوج كل مــن عبــدالخالق وحلمى اللذين ركز عليهما المؤلف وبسط حديثه فى حياتيهما الخاصة٠ وأعطى صورة مجسمة للشر الذى زرعه معظم أفراد عائلة الباشــا ، وقدم (بثينة) زوجة ٠بدر الدين المهندس الشاب الذى شق طريقه فــى الحياة بالكفاح الشريف والعمل الجاد ، ولذلك ســارت الأحــداث فــى الرواية فى خطين متوازيين ، حتى ضاعت أحلام ســليم باشــا بقيــام الثورة وتحديد الملكية والغاء الألقاب وضــياع الأمــوال بالإســراف والتبديد.

ثم أعلن المؤلف فى النهاية (من يزرع الزوابع يجن الأعاصير) ٠ وقد برع الساحر فى روايته وربط بين أحداثها ، وأجاد فــى تقــديمها

على ألسنة الأبطال حتى يقبل القارئ عليها ويتابع أحداثها من غير ضيق أو ملل .

وبالنسبة للشخصيات فقد تركها تتبلور من وحى أفعالها وتصرفاتها، فلم يسرف فى سرد أوصافها بل ترك القارئ أو المتلقى يتفهم دواخلها من وحى سلوكها ودون أن يشكل عبئا على المتابع عن طريق القاء الحكم والمواعظ مجردة ومنفكة عن الشخصية والموقف . كما اعتمد على أسلوب السرد المباشر بطريقة تتلائم مع فنه وعطائه الروائى مما ييسر لعمله الحبكة ــ وهى الربط بين الأحداث ــ التى تتوفر فى كل عمل جيد . وأسهم فى حبكة الرواية سير الأحداث فى مجراها الطبيعى .

وقد تبلورت فى الحصاد معظم عناصر الفن وابتعد السحار بها عن سرد الأحداث السياسية التى تصلح وتتوافق مع كتب التاريخ ولا تتمشى مع الفن الروائى ، كما عبر عن البيئة والزمان بكل المقاييس المتأصلة فى هذا الفن(١) .

ووصف بيت الباشا فى القاهرة فقال : " زاخر بالأثاث والرياش ، والأرض كلها مغطاة بطنافس وسجاجيد عجمية ، وعلى الشبابيك والأبواب أسجاف من المخمل ، ومن الأسقف تتدلى ثريات ، وفى الزوايا تماثيل وعلى الحيطان صور ولوحات ومرايا " .

ثم وصف قصره فى العزبة فقال : " كانت سراى الباشا فى العزبة لا تقل روعة عن السرايات المنتشرة فى جاردن سيتى كانت من

---

(١) الحصاد ــ ص ٣٥ .

طبقتين فى لون الرماد ، وكانت فى الطبقة العليا شرفة فخمة ، فـوق الدرج الرخامى الكبير الذى يقود إلى المدخل الرئسى ، وكان عن يمين السراى فيلا بنيت حديثا وأعدت لاستقبال الزوار ، وحـول السـراى والفيلا سور يضم فناء واسعا وقفت فيه ثلاث سيارات فاخرة ، وقامت فى وسطه شجرة ضخمة وزرعت حوله أشجار الجزولين .. وكان فى السور بوابة كبيرة عن يمين المدخل منها مكتب الباشا وعـن يسـاره مكتب عثمان".[١]

وجاء فى التعليق على هذا الوصف ما يأتى :

" هذا الوصف لعزبة الباشا وسراياه ، إشباع لحب الوصف عـن السحار ، وإشباع رغبته فـى تعريـف القـارئ بـالوجوه المختلفـة لشخصياته ، وبالمكان الذى اتجهت إليه الأسرة فى العزبة وصف دقيق لسراى من سرايات ، الباشوات ، أراد به السحار إعطاء صورة عـن البذخ والترف الذى تعيش فيه هذه الطبقة، فى الوقت الذى تعانى فيـه الطبقات الأخرى من شظف العيش ، وهذا راجع للوضع السياسى فـى مصر آنذاك فمن كان قريبا من الأسرة الحاكمـة ومـن أنعـم عليـه بالإنعامات والألقاب عاش فى عز ونعمة ، ومن انتمى إلى عالم العمال والفلاحين قاسى من الذل والجوع لضيق ذات اليد ... " [٢]

ولعلك تراجع الآن ما كتبته فى الحديث عن الرواية وترتبط بينـه وبين ما اخترته لك منها فى السطور السابقة . على أن السحار لم يكن سياسيا بل كان أديبا وفنانا ، ولذلك تناول النواحى السياسية وكتب عنها بما يتلاءم مع طريقته ومذهبه فى الفن والحياة .

---

(١) الحصاد ـــ ص ٤٥ .
(٢) القصة عن عبد الحميد جودة السحار لفاطمة الزهراء الموافى ص٧٩ .

فن المسرحية

نشأة المسرحية :

نشأت المسرحية عند الإغريق أولا وقبل أن تنتقل إلى سائر أقطار العالم بعد ذلك ، فقد كانت بلاد اليونان ذات طبيعة خاصة ، ففيها جبال وتلال وقمم عالية وأنهار جارية ورعود وسيول وكهوف ، وبرد فـــى بعض الجهات وحر شديد على الشواطئ الكثيرة والمتعـــددة ، ولهـــذه الطبيعة الخاصة أيقنوا أن وراءها آلهة متعددة تديرها وتشرف عليها .

وكانت تقام عندهم الاحتفالات ، وتقدم فيها المســـرحيات بألوانهـــا المختلفة ، وأشهر ما كانوا يحتفلون به قدوم الشتاء حيث الانتهاء مـــن جنى المحاصيل ، فيعقدون احتفالهم الأول ، وتقدم فيه المسرحيات ذات الطابع الكوميدى ، ثم يقيمون احتفالهم الثانى فى أوائل الربيـــع حيـــث الجفاف والقحط ، ولهذا اتسم هذا الاحتفال بـــالحزن والأســـى فكانـــت مسرحياتهم فى هذه المناسبة ذات طابع تراجيدى (مأسوى).

وتعد الفترة من (٥٠٠ إلى ٤٠٠) ق.م أهم الفترات فـــى تـــاريخ المسرح الاغريقى ، فقد ظهر فى أثينا أربعة من أشهر كتاب المسرحية عند اليونانيين .

أولهم : أسخيلوس (٥٢٥ ــ ٤٥٦ ق.م) الذى كتب أول مســـرحية شعرية وهى الضارعات ســـنة ٤٩٠ ق.م ولـــه ســـبعون

مسرحية ولم يبق منها للأسف الشديد سوى سبع منها
يروميثيوس مصفدا .

وثانيهم : سوفو كليس (٤٩٧ ـــ ٤٠٥ ق.م) ويعد من وجهة
نظرى أشهرهم وربما كانت هذه الشهرة راجعة إلى
مسرحيته المعروفة (أوديب ملكا) وهى واحدة من سبع
مسرحيات بقيت له على قيد التاريخ .

وثالثهم : يوربيدس (٤٨٥ ـــ ٤٠٦ ق.م) ومن مسرحياته (النساء
الطرواديات) . ورابع هؤلاء الأثينيين أرستوفان(٤٤٨ـــ ٣٨٥)
ق.م وهو الكوميدى الوحيد فى هذا العصر ، وله مجموعة من
المسرحيات منها الضفادع والزنابير والسحب.

كما وضع أرسطو قواعد المسرحية ، وحدد ملامحها وطريقة بنائها فى كتابه المسمى فن الشعر (L'ArT poetique) . هذا الكتاب الذى استفدنا به كثيرا فى معرفة الخصائص الفنية لبناء المسرحية وبعد أن ترجم إلى اللغة العربية .

ثم انتقلت المسرحية من الإغريق إلى الرومان ، الذين لم يفعلوا بها غير الترجمة والاقتباس باستثناء واحد منهم أجاد وأبدع فى كتاباته للمسرحية ، وبخاصة التراجيديا . وهو (سنكا seneca) ، (٤ ق.م ـــ ٦٥ م) الذى ترك عشر تراجيديات ذات قيمة وتأثير كبير .

وينبغى أن تعرف أن لغة المسرحية كانت الشعر منذ أن ظهرت عند الإقريق ، ثم تحرر بعض الكتاب أو معظمهم من كتابتها بالشعر

وصاغوها فى قالب نثرى ثم أصبح القليل من المسرحيات هـو الـذى يصاغ الآن شعرا .

وينبغى أن تعرف أيضا أن المسرحية الإغريقيـة الرومانيـة قـد انتقلت إلى الأوروبيين الذين تأثروا بها تأثرا كبيرا والتزموا بقواعـدها وقوانينها التى سجلها أرسطو وغيره من كتاب الإغريق .

وفى العصور الوسطى انتشر الظلام ورقد الفن المسرحى لتحريمه منذ سقوط روما (٤٧٦م) وهيمنة الكنيسة على النشاط الأدبى والفنـى إلى مطلع القرن الرابع عشر الميلادى . وقد ظهر دانتى الإيطالى قرب نهاية هذه الفترة حيث سجل فى رائعته الأدبية (الكوميديا الإلهية) كـل أحداث العصور الوسطى .

وفى بداية عصر النهضة بعد سقوط القسطنطينية أخذ الإنسان يهتم بالحياة والإنسان كما قال (فرانك هوايتنج) : " ولكن كلمة النهضة تشير بالطبع وعلى وجه التخصيص ، إلى بعث الاهتمام بحضارة الإغريـق والرومان . ونتيجة لذلك سرعان ما أدرك الناس فى هذا العصـر أن الناس فى العصور القديمة كانوا أكثر اهتماما بالحياة مـنهم بالإعـداد للموت . وبدأوا يكتشفون فى الكتب والآثار الباقية الفنون والعلوم التى مارسها الإنسان فى العصور الكلاسيكية لتحسـين حياتـه وإصـلاح شأنها"(١).

---

(١) المدخل إلى الفنون المسرحية تأليف فرانك م . هوايتنج ترجمة كامل يوسف وأخرين ــ نشر دار المعارف بالقاهرة ــ ص ٤٦ .

وظهر شكسبير فى إنجلترا بمسرحياته الرائعة مثل هاملت ، ومكبث ، والملك لير ، وترويض النمرة ، وجعجعة بلا طحن ، وحلم منتصف ليلة صيف ،وأنطونيو وكليوباترة ، والعاصفة وغيرها.

كما تأثر الفرنسيون أيضا بالمسرح الاغريقى ، ويعد الناقد الشهير بوالو مؤسس المذهب الكلاسيكى فى المسرح الفرنسى بل فى الأدب بعامة . وأشهر من يمثل هذا الاتجاه ثلاثة هم كورنى صاحب مسرحية السيد وراسين صاحب مسرحية فيدر (phedre) وموليير مؤلف طرطوف (tartuffe) والبخيل وغيرها .

" وهكذا لو تتبعنا نشأة المسرحية فى كل من إيطاليا وأسبانيا وسائر دول أوروبا لوجدناها تقفو أثر المسرحية الإغريقية عن طريق الرومان بادئ الأمر ثم اتصلوا بها اتصالا مباشرا فيما بعد"(١).

أقسام المسرحية :

تنقسم المسرحية إلى تراجيديا (مأساة) وكوميديا (ملهاة) وهما أشهر الأنواع التى ظهرت المسرحية بهما عند الإغريق ومن جاراهم فى الخط المسرحى .

وحول التفريق بين هذين اللونين قال الدكتور عز الدين إسماعيل : " وقد كانت الملهاة تتميز بتناولها الشخصيات غير المهمة ، واهتمامها بشؤون الحياة العامة . وعلى العكس من ذلك المأساة ؛ فهى تتناول الشخصيات العظيمة – بدأت بالالهة عند الإغريق ثم بأبطال من البشر

---

(١) المسرحية نشأتها وتاريخها وأصولها – لعمر الدسوقى – دار الفكر العربى القاهرة – ص ١٣ .

هم فى الحقيقة أنصاف آلهة ، ثم صار الإنسان هو البطل ، بخاصة فى عصر النهضة حين كان يظن أن الإنسان مركز العالم ، ولكنــه ظــل الإنسان الممتاز ، كشخصيات الملوك والأمراء . حتى إذا ما تزعزعت تلك العقيدة ذهبت معها فكرة البطولة ، ولم تعد البطولــة تســتخدم إلا لتدل على الشخصية الرئيسية فى المسرحية كما تتناول الموضــوعات العالية البالغة الأهمية . أما فى العصور الحديثة فيقوم التفريــق بــين الملهاة والمأساة على أساس من فكرة " النهاية السعيدة " ففــى الملهــاة تتحقق النهاية السعيدة ، أما النهاية المميزة للمأساة فهى هزيمة البطــل أو موته "[١] على أن هذا التقسيم المبدئى لــم يــرض بعــض النقــاد الغربيين مثل هوايتنج[٢] إذ قال " إن أى تصنيف للمسرحيات لا بد وأن يكون فيه من التناقض والعيوب ما نجده فــى أى محاولــة لتصــنيف البشر، وتقسيمهم إلى أنماط ونماذج "[٣] ولكن الرجل يرضــخ لمــنهج التأليف ، ويتابع سابقيه فى تصنيف الدراما ، فيقسمها إلى أربعة أنواع هى الكوميديا والتراجيديا والميلودراما والمهزلة (الفارس) وكان ذلــك تطورا حتميا لتداخل الكوميديا والتراجيديا . وعلى كل فقضية التقســيم نظرية دراسية أكثر منها نظرية أساسية وجوهرية .

وليس الفرق بين المأساة والملهاة منحصرا فى خاتمة كل منهمــا كما كان يتصور البعض، ولكن الأولى أن يكون الفرق منحصرا فــى

---

(١) الأدب وفنونه ــ ص ٢٥٣ .

(٢) أستاذ علم الإلقاء وفنون المسرح بجامعة مينيسونا ومدير المسرح فى تلــك الجامعة .

(٣) المدخل إلى الفنون المسرحية ــ ص ١٨٨ .

الانطباعات التى يتركها كل نوع فى جمهور النظارة ، وحـول بسـط هذه الفكرة قال الدكتور محمد زكى العشماوى : (وقد اتفق الناس منذ أقدم العصور على أن الماساة تعالج موضوع الصـراع بـين قـوتين ماديتين قد يكونا شخصيتين ، أو بين شخص وقوة أعلى منه ، أو بـين القوى الذهنية بعضها ضد بعض أو بـين الماديـة والذهنيـة معـا ، وتستخدم لذلك الشخصيات العظيمة . أما الملهاة فهى تمثل الصـراع بين الشخصيات أو بين الجنسين الذكر والأنثى أو بين الفرد والمجتمـع وتستخدم لذلك الشخصيات الأكثر اتضاعا) [١] .

وربما أنتج تداخل المأساة والملهـاة غيـر ذلـك مـن الأنـواع المسرحية، حيث جعل البعض هذه الأنواع خمسة.

١) المأساة وهى التى ترتبط بالشخصيات ذات الأهمية وظهـر منهـا نوع يسمى المأساة البرجوازية .

٢) الملهاة وهى التى تتناول الشخصيات غير المهمة ،ويمكن تقسيمها إلى ثلاثة أنواع : ملهاة الأخلاق ،وهى قريبة من القصة ،وتعـالج المسائل المألوفة فى الحياة المعاصرة . والملهـاة الرومانتيكيـة وهى : تتناول جوانب من التجربة لا يالفها الناس كثيرا وتعالجهـا معالجة أقرب إلى العطف منها إلى أن نحمل عليها[٢] .

---

(١) دراسات فى النقد المسرحى ص ٣٠ ، ٣١ دار النهضة العربيـة للطباعـة والنشر بيروت .
(٢) الأدب وفنونه ــ ص ٢٥٤ .

والفارص (Farce) وهى : تقوم على الحركـة المسـلية ، وفيها تهمل إثارة الحبكة ورسم الشخصية إهمالا صريحا[١].

فالمأساة والملهاة هما الفرعان الرئيسيان وبجانبهمـا أنـواع كثيرة متداخلة حتى يمكن أن يكتمل العدد ويصل إلـى خمسـة — كما ذكرت — إن لم يزد عن ذلك .

٣) الملهاة الباكية " وهى مزيج من المأسـاة والملهـاة [٢] ويشـرح الدكتور عز الدين هذا النوع ويذكر تاريخ ازدهـاره فيقـول : " وينبغى الانتباه إلى أن العناصر الكوميدية فى " الملهاة الباكيـة " أجزاء أساسية من المسرحية ، فهى تختلف عن المواقف الكوميدية التى تستخدم أحيانا فى المأساة للتخفيف من وقعها حتى لا يضجر المتفرج ، وكذلك لتقوى أثر العواطـف المأسـوية عـن طريـق التقابل[٣] .

٤) الميلودراما ، وهى فى الأساس : المسرحية الموسيقية التى " تعتمد على الوقائع أكثر من اعتمادها على الشخصية ، وتميـل لا إلـى المعنى الكوميدى بل إلى العواطف الحادة"[٤] .

٥) الماسك (M asque) وهو نوع يشبه المسرحية ، مثل الاحتفـال الذى يقام فى الهواء الطلق ، ولم يظهر هذا النوع عند الإغريـق

---

(١) المرجع السابق — ص ٢٤٥ .
(٢) الأدب وفنونه — ص ٢٥٥ .
(٣) المرجع السابق — ص ٢٥٥ .
(٤) المرجع السابق — ٢٥٦ .

بل اخترعه الأوربيون فى القرن السادس عشر الميلادى[1] وهو يجمع بين الحديث العاطفى والحوار والملابس والمناظر والموسيقى والرقص ، ولكن بحيث يربط بينها جميعا قصة بسيطة فى طبيعتها ، ورمزية مدلولها" .

ويكفى أن تعرف أن بن جونسون (Ben Jenson) هو أشهر كتاب هذا النوع الذى انقرض منذ زمن طويل.

المسرحية فى الأدب العربى الحديث :

عندما جاءت الحملة الفرنسية إلى مصر والشام استخدمت معها فرقة تمثيلية نهضت بتمثيل بعض الأعمال المسرحية ، ولكنها لم تكن بلغتنا العربية وفى الاحتفال بافتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ م كانت أوبرا عائدة باللغة الأجنبية أيضا ، كما قدم لها الألحان موسيقى أجنبى أيضا وهو فردى وكان ذلك فى عهد الخديو إسماعيل.

وقد قال هوايتنج فى كتابه (المدخل إلى الفنون المسرحية) مثلما قال غيره وهم كثيرون إن المسرحية قد ظهرت عند المصريين القدماء قبل ظهورها عند الاغريق ، ومع فإننا لن نعطى هذا الأمر اهتماما أولا لعدم توفر الأدلة الكثيرة المثبتة لذلك مع كثرة من قال بهذا الرأى، وثانيا (وهو المهم الآن) لأن اللغة التى كتبت بها تلك الأعمال المسرحية على القول بوجودها لم تكن العربية . والمسألة لم تعد الآن مسألة تاريخ بقدر ما هى مسألة وجود للغة القرآن الكريم وأدب العرب وتقديمها والإقرار بها.

---

(١) المرجع السابق ــ ص ٢٥٦ .

وكما سبق القول بأن النشاط الأدبى فى وطننا العربى قد بدأ فى سورية ولبنان ، غير أن الاضطهاد الفكرى والسياسى والأدبى النابع من فرض النفوذ الأجنبى لم ييسر لحملة الأقلام معيشة رغدة أو هادئة مستقرة فى ظلال الاحتلال ، فهاجر معظمهم إلى مصر ، وأقاموا فيها ثم انصرف بعضهم عنها إما إلى المهاجر الأمريكية فى الشمال أو فى الجنوب وإما إلى الدول الأوربية • وقد استقر المهاجرون إلى أمريكا ، واتخذوها وطنا لهم ، بينما لم يستقر ويأمن من هاجر إلى أوربة إذ تابعهم وترصد لهم الأوربيون هناك ، ولذلك عادوا من حيث أتوا ليتنقلوا بين مصر والشام ، وتنهض بفضلهم وبمشاركتهم عدة فنون منها المسرحية •

وبهذا تأكد لنا أن ظهور المسرحية كان نتيجة لاتصالنا بالغرب بالطريقة التى ذكرناها أو بغيرها من الوسائل وهى كثيرة ،وبخاصة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر (الميلادى) كما لا توجد فى أدبنا العربى القديم أية أصول سابقة لهذا الفن •

وعن أول من أدخل الفن المسرحى إلى البلاد العربية قال عمر الدسوقى : " وأول من أدخل الفن المسرحى فى البلاد العربية هو مارون نقاش اللبنانى الذى اقتبسه من إيطاليا حين سافر إليها فى سنة ١٨٤١ م وابتدأ تمثيله باللغة العربية الدارجة • وكانت أولى المسرحيات التى قدمها لجمهوره العربى فى بيروت هى رواية "البخيل" المعربة عن " موليير" وذلك فى أواخر سنة ١٨٤٧ م ثم قدم روايته الثانية (أبو الحسن المغفل أو هارون الرشيد) فى سنة ١٨٤٩م •[١]

---

(١) المسرحية ــ ص ٣٠ ، ص ٣١ •

وفى عام ١٨٧٦م قدم إلى مصر سليم النقاش ومعه فرقة تمثيلية ومسرحيات عمه مارون نقاش (البخيل ـ أبوالحسن المغفل ـ السليط الحسود) وهى روايات فرنسية مترجمة أو (ممصرة) لتوافق أذواق النظارة. والتقى فى الإسكندرية بصديقه أديب إسحاق ليشد أزره فترجم له أو لمسرحه أندروماك (لراسين) كما ترجم مسرحية أخرى وهى (شارلمان)، ولم يلبث أن انصرف الاثنان إلى الصحافة وتركا الفن المسرحى.

وفى عام ١٨٧٦م كذلك أنشأ يعقوب صنوع[١] أول مسرح عربى بمصر "وقد مثل فى خلال سنتين عاشهما مسرحه اثنتين وثلاثين مسرحية ما بين مقتبس من الأدب الغربى صبغه صبغة محلية، وما بين موضوع يعالج مشكلات اجتماعية، وأن غلبت على لغة مسرحياته اللغة العامية، وبعضها يحتوى على فصل واحد ، وبعضها على خمسة فصول ، وقد راجت رواجا عظيما على الرغم من أنها تمثل المجتمع المصرى بعيوبه فى سخرية لاذعة أحيانا"[٢] ومن مسرحياته الوطن والحرية ، والضرتان، والصداقة، والأخيرة من فصل واحد وتشمل ثلاثة عشر منظرا. وإن كانت هذه المسرحيات لا تدخل فى نطاق أدبنا العربى الفصيح لكتابتها باللغة العامية. وللأسف الشديد أصبحت العامية هى اللغة التى تكتب بها كثير من المسرحيات فى عصرنا الحديث بل

---

(١) ولد يعقوب صنوع بمصر عام ١٨٣٩م وتوفى سنة ١٩١٢م ولقبه الخديو اسماعيل بموليير مصر .

(٢) المسرحية ـ ص٢١ .

إن ما يكتب بالفصحى يؤدى بالعامية، وقد دل ذلك على انحدار الذوق وضعف اللغة. عملا بإرضاء الجمهور الأمى (غير المتعلم) وإن كانت الأمية قد تفشت بين المتعلمين أيضا.

ثم قدم من دمشق إلى مصر أحمد أبوخليل القبانى وفرقته المسرحية عام ١٨٨٤م ، وانتقل بالمسرحية من مرحلة الترجمة والتعريب إلى طور الوضع التقليدى، فاتجه إلى التاريخ الإسلامى واقتبس منه العديد من المسرحيات.

ثم ظهرت المسرحيات التى تعالج المشكلات الاجتماعية بعد عودة جورج أبيض إلى مصر عام ١٩١٠م، فأخذ يمثل على قواعد درامية سليمة ، خاصة بعد أن ظهر عدد غير قليل من كتاب المسرحية الذين أبدعوا وأجادوا فى تأليفهم لهذا الفن، مثل خليل مطران، وفرح أنطون الذى كتب عام ١٩١٣م مصر الجديدة ومصر القديمة. وإبراهيم رمزى صاحب مسرحية "الحاكم بأمر الله، والبدوية ، وقلب المرأة، وإن كانت أبطال المنصورة خير مسرحياته. أما محمد تيمور فقد كتب أربع مسرحيات لن نحفل بها لكتابتها بالعامية.

وانتشرت المسرحية فى الكثير من بلدان العالم العربى وكثر كتابها ومبدعوها شعرا مثل أحمد شوقى، ونثرا مثل توفيق الحكيم.

توفيق الحكيم :

ولد توفيق الحكيم فى الإسكندرية عام ١٨٩٨م من أم تركية وأب مصرى من قرية الدلنجات بإيتاى البارود محافظة البحيرة وكان يشتغل

بالسلك القضائى ــ وقد التحق توفيق بالمدرسة الابتدائية بدمنهور فــى ظل رعاية صارمة من والدته ، ثم أكمل تعليمه الثانوى فــى القــاهرة حيث يوجد ويقيم عمان وعمة له بقيت مع أخويها دون زواج، واهــتم صاحبنا بالموسيقى، والتحق بمدرسة الحقوق العليا وتخرج منها عــام ١٩٢٤م.

وألف للمسرح سنة ١٩٢٢م وقبــل أن يتخــرج مجموعــة مــن المسرحيات التى مثلتها إحدى الفرق المسرحية منها المرأة الحديديــة، والعريس ،وخاتم سليمان، وعلى بابا، ويبدو أنه وجدها بعد ذلك لا تليق بمستواه فلم يطبعها .

وسافر إلى فرنسا على نفقة والده ليدرس القانون، وبقى بها أربع سنوات قضاها فى دراســة الأدب المســرحى والموســيقى والتمثيــل "واستقر فى ضميره أنه أعد ليكون أديب وطنه القصصى والمسرحى، ورأى أوربا تؤسس مسرحها على أصول المسرح الإغريقــى فتحــول إلى هذا المسرح يدرسه، ويتقن درسه وما انتهى إليه من تطور علــى أيدى الغربيين المحدثين، كما أخذ يدرس القصة الأوربية ومدى تمثيلها لروح أقوامها وأحوالهم النفسية والاجتماعية[١] وعاش فى فرنسا قصة حب أسفرت تجربتها عن كتابته لمسرحية (أمام شباك التذاكر).

واشتغل بعد عودته عام ١٩٢٨م فى ســلك النيابــة حتــى عــام ١٩٣٣م وأخرج مسرحيته (أهل الكهف) والتى أحدثت ضجة كبيرة ذاع

---

(١) الأدب المعاصر ــ ص٢٨٩ .

معها صيته، فقد فكر فى موضوعها منذ حداثة سنه ، وكتبها فى خريف عام ١٩٢٨ بمقهى صغير بضاحية الرمل فى الإسكندرية، "وأهل الكهف أول عمل فنى هام يكتبه الحكيم باللغة الفصحى، وجعلته طبيعة الشخصيات والفكرة التى يريد علاجها يعمد إلى البساطة مع فصاحة الكلمات وصحة الأسلوب . هذا وقد أجاد الحكيم فى الحوار كل الإجادة ومع كل ذلك فإن فكرة المسرحية هى الصراع بين الزمن والإنسان مما يصعب على عامة المشاهدين استيعابها وهضمها، وربما كانت هذه المسرحية أصلح للقراءة منها للتمثيل٠

وإذا نظرنا إلى فكرة المسرحية وأنها صراع الإنسان مع الزمن، وأننا لا ندركه إلا بمقياس العادات والأخلاق والبيئة ــ حكمنا على المسرحية بأنها ممتازة حقا وإن كان الأثر الأخلاقى فيها غير موجود[١] ونشرها عام ١٩٣٣م وأشاد بها طه حسين فكانت أول أثر مسرحى رائع للحكيم ٠

كما كتب (عودة الروح) فى جزءين ونشرها عام ١٩٣٣م بالعربية بعد محاولته كتابتها باللغة الفرنسية، واستثمر فترة عمله فى النيابة فأخرج كتابا باسم (يوميات نائب فى الأرياف) حيث فضح فيه النظام الإدارى والقضائى وكشف طريقته فى الضبط والتحقيق، وأبان جهل أهل الريف للقانون ٠

---

(١) المسرحية ــ لعمر الدسوقى ــ ص٤٦، ٤٧ ٠

وأكمل فى هذه الفترة إبان عملـه بـالريف كتابـة عـدد مـن المسرحيات منها الزمار، وحياة تحطمت ، ورصاصـة فـى القلـب، وشهرزاد.

ثم انتقل إلى وزارة المعارف وعمل بها فى سلك التحقيقات عـام ١٩٣٤م إلى عام ١٩٣٩م وأخرج عددا من الأعمال منها أهـل الفـن وهى ثلاث قطع مسرحية، وأقصوصتان ، ومسـرحية (محمـد) عـام ١٩٣٦م واشترك مع طه حسين فى إخراج (القصر المسحور) عنـدما التقى به فى إحدى قرى جبال الألب بفرنسا .

وألف عام ١٩٣٩م مسرحية (براكسا أو مشكلة الحكـم) حيـث كشف فيها عن الفساد السياسى بمصر قبل ثورة ١٩٥٢م . وانتقل إلى وظيفة بوزارة الشؤون الاجتماعية عام ١٩٣٩م، ونشر عـام ١٩٤٢م (مأساة بيجماليون) والتى استوحاها من أسطورة إغريقية، ثـم اسـتقال عام ١٩٤٣م من وظيفته وأخرج عددا كبيرا من المسرحيات مسـتقلة كل واحدة منها بكتاب أو مجموعة فى كتاب بعد نشـرها بالصـحف . ومن إبداعه فى تلك الفترة (سليمان الحكيم) التى استوحاها من القـرآن الكريم. ثم أخرج عام ١٩٤٩م مسرحية (الملك أوديب) والتى تأثر فيها بأسطورة إغريقية، وقد سبقه إلى الاستفادة من هذه الأسـطورة عـدد كبير من الأدباء فى مقدمتهم سوفوكليس الإغريقى، وتنقل بين عدد من الوظائف الحكومية والنقابية، ثم تفرغ أخيرا للكتابـة خاصـة بعـد أن ماتت زوجته أولا، ثم بعد أن لحق بها ابنه الوحيد، فزهد الرجـل فـى

الدنيا وأخذ ــ كما يقول ــ ينتظر الموت، وقد ضعفت صحته فى هذه السنة وهو الآن على أعتاب التسعين عاما ٠

وأخرج فى السنوات الأخيرة عددا من الكتب والدراسات منها إيزيس[١] ،وصفقة والسلطان الحائر ،وعودة الوعى، والتعادلية فى الإسلام وغيرها. عبر الحكيم فى مسرحياته بخاصة عن اتجاهه الذهنى الذى يتلاءم مع الشرق فى الإيمان بالقوى الغيبية التى تسيطر على الإنسان وملكاته ٠

ولقد استطاع توفيق الحكيم بهذا الجهد الكبير أن يرسى قواعد المسرحية النثرية فى أدبنا العربى، وأن يسد الفراغ فى كل الجهات، ومن ثم كان انتقاله إلى موضوعات متنوعة، وهو يعد اليوم الكاتب الأول للمسرحية النثرية فى العالم العربى غير مدافع ، من حيث خصوبة نتاجه وجودته وتنوعه، كما أنه أفاد كثيرا من الفترة التى قضاها بباريس ، حيث شاهد مسرحيات شتى، وتأثر فى مسرحه الذهنى بمسرحيات ابسن النرويجى وبزنارد شو الأيرلندى، وفى مسرحه الاجتماعى بالمسرحيات الفرنسية المعاصرة"[٢]٠

شهرزاد :

اعتمد الحكيم فى مسرحياته على بعض أحداث القرآن الكريم وعلى الأساطير الإغريقية والفارسية، وغيرها واستلهم فى مسرحيته شهرزاد ــ التى كتبها فى بداية حياته التأليفية وبعد أن درس المسرح

---

(١) تمثل الآن على إحدى المسارح بالقاهرة (ربيع الأول سنة١٤٠٦هــ) الطائف
(٢) المسرحية للدسوقى ــ ص٤٩ ٠

والموسيقى فى فرنسا ـــ الأسطورة الفارسية "التى تزعم أن كتاب ألف ليلة وليلة قصص قصته شهرزاد على زوجها شهريار . وذلك أنه فاجأ زوجته الأولى بين ذراعى عبد خسيس ، فقتلها ، ثم أقسم أن تكون لـــه كل ليلة عذراء، يبيت معها، ثم يقتلها فى الصباح انتقاما لنفسه من غدر النساء. وحدث أن تزوج بنت أحد وزرائه: "شهرزاد" وكانت ذات عقل ودراية فلما اجتمعت به أخذت تحدثه بقصصها الساحر الذى لا ينضب له معين، وكانت تقطع حديثها بما يحمل الملك على استبقائها فى الليلة التالية لتتم له الحديث، إلى أن أتى عليها ألف ليلة وليلة، رزقـــت فـــى نهايتها بطفل منه، فأرته إياه وأعلمته حبلتها فاستعقلها واستبقاها"(١).

سار الحكيم على نظام المسرح الكلاسيكى فابتدأ المسرحية مـــن نهاية الأسطورة عندما كشفت شهرزاد لزوجها عـــن معـــارف كثيـــرة غابت عنه فى حياته الانتقامية الصارمة.

ومن شخصيات المسرحية فضلا عن شهر زاد وشهريار جـــلاد الملك، وقمر الوزير، والعبد الأسود، وأبوميســـور صـــاحب (الخـــان) وغيرها. وقد كتبها الحكيم فى سبعة فصول.

وفى الفصل الأول يدور حوار بين جلاد الملك والعبد الأسود فى شأن الملك . وفى الفصل الثانى يدخل قمر إلى حجرة شهرزاد، ويدور بينهما حوار نفهم منه أنه يحبها محبة العابد لمعبـــوده ولـــيس كمحبـــة

---

(١) الأدب المعاصر ـــ ص٢٩٤ .

العاشق لمعشوقته ويدور الحوار بين (قمر) و(شهرزاد) على النحو التالى :

الوزير : إنى ... أردت أن أقول إنك غيرته، وأنه انقلب إنسانا جديدا منذ عرفك ٠

شهر زاد : إنه لم يعرفنى ٠

الوزير : لقد قلت لك قبل اليوم إن الملك بفضلك قد أمسى أيضا لغزا مغلقا أمامى، وكأنما كشفت لبصيرته عن أفق آخر لا نهاية له فهو دائما يسير مفكرا باحثا عن شئ، منقبا عن مجهول، هازئا بى كلما أردت اعتراض سبيله إشفاقا على رأسه المكدود ٠

شهر زاد : أتسمى هذا فضلا يا قمر ؟

الوزير : وأى فضل يا مولاتى ؛ فضل من نقل الطفل من طور اللعب بالأشياء إلى طور التفكير فى الأشياء٠

شهر زاد : كلمات ما أبرعكم فى اصطناعها ... !

الوزير : ماذا تريدين يا مولاتى؟ إنى أتمنى لو أفهم أحيانا ما تريدين!

شهر زاد : خير لك ألا تحاول هذا ٠

الوزير : لست أحاول شيئا. إنما أردت أن أشيد بحبك للملك

شهر زاد : أيضا ؟؟

الوزير : نعم٠

شهر زاد : ألا تزال مصرا على اتهامى بحبه ؟

الـــوزير : لست أتهم ٠

شهر زاد ما أبسط عقلك يا قمر! أتحسبنى فعلت ما فعلت حبا للملك؟

الـــوزير (فى حدة هادئة) : لمن غيره إذن؟

شهر زاد (باسمة): لنفسى٠

الـــوزير : لنفسك ، ماذا تعنين ؟

شهر زاد : أعنى أنى ما فعلت غير أنى احتلت لأحيا ٠

الـــوزير :تعنين أنك ما صرفت عقل الملك عن العبث بـــالأرواح إلا ليبقى على روحك ؟

شهر زاد : (مبتسمة) هو ذاك٠

الـــوزير : (بعد تفكر) : لن أصدق. أكان هذا منك تدبيرا؟ أكان كـــل هذا منك حسابا؟ كلا ما أنت إلا قلب كبير !

شهر زاد : (باسمة) إنك ترانى فى مرآة نفسك!

الـــوزير : إنى أرى الحقيقة ٠

شهر زاد (فى نبرة غامضة وبسمة غريبة) : الحقيقة !!!

الـــوزير : تبتسمين؟ "[١].

ويعود شهريار من لدن الساحر كاسفا مقهورا ، شـــاعرا بالفنـــاء ككل قوة فى نهايتها . وتحاول شهرزاد أن تسترده من قلقـــه وحيرتـــه وتقول له:

---

(١) شهر زاد لتوفيق الحكيم ص٤٧ إلى ٥١ ٠

شـــهريار : الصفاء ! الصفاء قناعها ٠

شـــهرزاد : قناع من ؟

شـــهريار : قناعها ، هى ، هى ، هى ٠

شـــهرزاد : إنى أخشى عليك يا شهريار ٠

شـــهريار : قناعها منسوج من هذا الصــفاء ، الســماء الصــافية، الأعين الصافية ، الماء الصافى، الهواء، الفضاء، كل مــا هو صاف، ما بعد الصفاء؟ إن الحجب الكثيفة لأشف من الصفاء!

شـــهرزاد : كل البلاء يا شهريار أنك ملك تعس، فقد آدميتــه وفقــد قلبه٠

شـــهريار : إنى براء من الآدمية، براء من القلب،لا أريد أن أشــعر أريد أن أعرف ٠

شـــهرزاد : تعرف ماذا ؟ ليس ثمت ما يستحق المعرفة ٠

شـــهريار : كذب ونكر . هاتى الجواب إذن عما أسألك عنه، هــذا غاية ما أطلب فى الحياة ٠

شـــهرزاد : سل ما شئت ٠

شـــهريار : من أنت ؟

شـــهرزاد (باسمة) : أنا شهرزاد ٠

شـــهريار : كفى عن الحب والدوران! أعرف أن اسمك شــهرزاد، لكن من تكون شهرزاد؟

شـــهرزاد : ابنة وزيرك السابق ٠

شـــهريار : أعرف كذلك أن وزيرى السابق أنجب شـــهرزاد، كمـــا أعرف أن الله خلق الطبيعة، كى لا يقال إن شهرزاد بنت لقيط، وكى لا يقال: إن الطبيعة بنت المصـــادفة. لكنـــك تعلمين أنى لست ممن تقنعهم هذه الأسباب .

شـــهرزاد : لماذا ؟ لم تريد أن ترى فى امرأة ككل النســـاء ذات أب وأم وماض معروف؟

شـــهريار : أنت لست امرأة ككل النساء .

شـــهرزاد : أتمدحنى أم تذمنى ؟

شـــهريار : لست أدرى . بل قد لا تكونين امرأة .

شـــهرزاد : أرأيت إلى أى أحد أصابك الخبل .. (١)"

وفى الفصل نفسه يتحدث شهريار عن الملكـــة ويحـــاول كشـــف لغزها ويتوجه إليها بالحديث قائلا : "قد لا تكون امرأة، من تكون؟ إنى أسألك من تكون؟ هى السجينة فى خدرها طول حياتها، تعلم بكل ما فى الأرض كأنها الأرض! هى التى ما غادرت خميلتها قط تعرف مصـــر والهند والصين! هى البكر تعرف الرجال كامرأة عاشت ألف عام بين الرجال؟ وتدرك طبائع الإنسان من سامية وسافلة، هى الصغيرة التـــى لم يكفها علم الأرض، فصعدت إلى السماء، تحدث عن تدبيرها وغيبها كأنها ربيبة الملائكة، وهبطت إلى أعماق الأرض تحكى عن مردتهـــا وشياطينها وممالكهم السفلى العجيبة ، كأنها بنت الجن! من تكون تلـــك التى لم تبلغ العشرين، قضتها كأترابها فى حجرة مسدلة السجف، مـــا

(١) شهرزاد صـــ٦٤ ـــ ٦٨ .

سرها؟ أعمرها عشرون عاما أم ليس لها عمر؟ أكانت محبوسة في مكان أم وجدت في كل مكان؟ إن عقلي ليغلي في وعائه يريد أن يعرف ... أهي امرأة تلك التي تعلم ما في الطبيعة كأنها الطبيعة"[١]٠

وفي الفصل الثالث تشتد أزمة شهريار فيصمم على الرحيل إلى أطراف العالم، ويرحل مع وزيره في الفصل الرابع ثم تتقابل شهرزاد مع العبد الأسود ، وتنغمس معه في إثم الخطيئة في الفصل الخامس، وفي الفصل السادس يدخل الملك مع وزيره خان أبي ميسور ويعلم بخيانة زوجته ثم يعودان إليها في الفصل الأخير لعل الملك ينتقم منها، ولكنه قد تحول إلى فكر خالص، وينتحر قمر ويحس شهريار بالهزيمة إذ لا يستطيع انطلاقا من هذه الأرض٠

وأعتقد أن الحكيم كان قاسيا مع شهرزاد فجعلها تنغمس في الشهوة ومنحرفا بالأسطورة التي تقول: إنها رزقت من شهريار بطفل تقدمت به إليه حتى استعقلها وأبقاها، ولذلك دافع عنها الدكتور طه حسين في (القصر المسحور) الذي اشترك الحكيم معه في تأليفه٠

عناصر بناء المسرحية :

يقصد بالبناء الفني للمسرحية جودة الموضوع وسلامة البناء من حيث العرض ، وتشابك الحوادث، والعقدة، والحل وتهيئة الجو المسرحي وسلامة اللغة، وتواجد الصراع والحوار والحركة ورسم

---

(١) السابق صـ ٦٨ ، ٦٩ ٠

الشخصية إلى غير ذلك من القواعد التى سنها أرسطو أو من جاء بعده.

على أن شعبية المسرحية ليست دليلا أكيدا على قيمتها، كما أن النقاد أنفسهم قد اختلفوا على القواعد الأساسية لفن المسرح، مع أن أرسطو قد وضع وحدد ملامحها فى القرن التالى على سوفوكليس ، وأقرب مثال على ذلك لغة المسرحية ، فقد كانت الشعر ثم تحولت إلى النثر ، وعادت ثانية إلى الشعر ، وأصبحنا نطالع الآن معظم المسرحيات وقد كتبت بلغة عامية، مع أننا نطالع الآن (فى الأدب المعاصر) أيضا كثيرا من المسرحيات وقد كتبت شعرا مثل أحمد شوقى فى مصرع كليوباترا ومجنون ليلى وغيرها ومثل عزيز أباظة فى غروب الأندلس وغيرها بل إننا شاهدنا فى الصيف الماضى (١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م) آخر المسرحيات الشعرية الناجحة وهى الوزير العاشق للشاعر فاروق جويدة وقد شاهدها كثير من الناطقين بالضاد فى أكثر من دولة عربية . وربما أعود لمناقشة هذه القضية عند الحديث عن اللغة التى تكتب بها المسرحية.

وأقول : إن فن الكتابة المسرحية ليس سهلا ميسورا ،بل هو من أصعب الفنون، إذ أن المؤلف يضع فى ذهنه المسرح بمنظره وإمكانات الممثلين وأذواق الجماهير التى من الصعب اتفاقها ، فضلا عن طبيعة المسرح ، فيمكن أن تصور فى القصة جريمة قتل حقيقية فتتحدث عنها

وتذكر تفاصيلها، ولكنه فى المسرح من الاستحالة بمكان ، وإن تيسر الإشارة إلى النتائج المترتبة عليها وليس القيام بتمثيلها حقيقة .

ولابد أن يكون وقت المسرحية وأحداثها فى مستوى طاقة الممثل وقدراته، فلا يكلف مثلا بالنهوض بالأعمال الخارقة التى تتلاءم مع الوحوش وقوى الطبيعة ولا تتلاءم مع الإنسان وإن كانت المؤثرات الصوتية والخدع المصورة والمسارح المتحركة تقوم الآن بدور كبير فى تقريب الأحداث والمعاونة على نقلها للمشاهد ، مع أن تمثيل هذه الخوارق لم يعد مستساغا من النظارة، فهى إلى أعمال الحواة أقرب منها إلى فن المسرح المكتوب بلغة أدبية راقية.

وينبغى أن تكون الأحداث فى نطاق المسرح أيضا ، فكيف بالله يمكن تقديم مسرحية ذات صراعات داخل الغابات أو بين السهول أو فى طبقات الفضاء ، وأذكر أن إحدى المسرحيات كانت تتطلب وجود حيوان مفترس فوق خشبة المسرح، وأخذ المخرج فى عمل التجارب (البروفات) وبدأ الناس فى مشاهدتها عدة ليال لكنها لم تكتمل ، وما هى إلا أيام حتى استعصى الحيوان على القياد ، وكانت مشكلة .. مع أنه يمكن الاستعانة ببعض الحيوانات السهلة المدربة مثل الكلاب البوليسية أو القرود التى نشاهدها بعيدا عن المسرح وهى تلعب الكرة أو تقوم بحركات صعبة أو تبحث عن الجناة.

وتأتى إلى النظارة (المشاهدين) إذ لا يمكن أن تتصور مسرحية من غير جمهور، ولذلك يحسن ألا يزيد العرض على ثلاث ساعات إن

لم يكن ساعتين، ولا أظن أن المشاهد سيقبل على مسرحية يصل زمنها إلى خمس ساعات، وإذا حدث وتقبل ذلك فهل يحتملها الممثل الذى يتحرك على المسرح ويمثل وقتا طويلا كالبطل مثلا، وإذا تحمل ذلك ليلة فلا أظن أنه سيواصل ذلك بنفس الطاقة والجهد فى الليالى التالية. ولذلك لابد أن يحرص المؤلف على هذه الأشياء وغيرها مما سيأتى — ألم أقل إن التأليف المسرحى من أشق أنواع الكتابة !

وفضلا عما ذكرت لابد أن تتوافر لدى الكاتب رغبة حقيقية للكتابة حتى لا تتحول أعماله إلى ما يشبه غثاء السيل ، واختيار الموضوع أمر مهم وضرورى، ويحسن أن يكون متصلا بالحياة ونابعا منها حتى يدخل المسرح فى نطاق الواقعية، فكلما كان العمل متصلا بحياة الشعب ومعبرا عن واقعهم كثر المشاهدون ونجحت المسرحية كفن وصناعة .

ومن الأفضل التركيز على نواح محددة وغير مستهلكة حتى لا ينفر الناس منها، فلابد أن يرتبط المسرح بالحياة، ويعبر عن مشكلاتها من غير إسفاف وتكرار . والمسرحية تعبر عما يمكن أن يحدث من خلال فن كتب ليقدم ممثلا للناس وإن كانت بعض الأعمال المسرحية قد أعدت للقراءة وللتمثيل أيضا كمعظم مسرحيات توفيق الحكيم. ولذلك تحتاج مسرحياته إلى معد حتى يحول فصولها من سبعة إلى ثلاثة مثلا أو يقسم كل فصل إلى مناظر (تابلوهات) وهكذا ففى المسرحيات ذات الفصول الثلاثة يجعل المؤلف الفصل الأول لعرض

الشخصيات وطرح المشكلة، ويجعل الفصل الثانى للأزمــة (العقــدة)، ويجعل الثالث للنهاية (الحل) وقد تزيد أو تقل عن ذلك.

هيكل المسرحية :

يتكون هيكل المسرحية من ثلاثة أجزاء: العرض والتعقيد والحل. ومهمة العرض تعرف بموضوع المسرحية وبالشخصيات المهمة فيها، وإيجاد حالة من التشويق والتطلع والانتظار للحوادث المقبلة، ولــذلك وجب أن تقدم الشخصيات المهمة فى وقت مبكر من الفصل الأول مــا أمكن، وليس من الضرورى أن يقدموا بذواتهم بل قد يكتفى بالإشـــارة إليهم . بيد أن هذه الحيلة قد يراد منها إثارة مزيد من التشــويق لــدى الجمهور فى حاجة إلى مهارة عظيمة[١].

ويجب أن تبدأ المسرحية هادئة حتى يتمكن النظارة من التعــرف على الأشخاص وتمييز أدوارهم وتفهم منزلتهم الاجتماعية.

التعقيد:

"ويعنى التعقيد موضوع القصة والطريقــة التـــى تســـير فيهــا المسرحية وتتابع الأحداث وليس التعقيد مجرد جمع حوادث، بل سلسلة لها صفة خاصة تشترك فيها كل الجزئيات ، ولا تسير هــذه السلســلة وقتا معينا ثم تقف، ولكنها تتشكل إلى أزمة يظهر لديها المغــزى كلــه وتنتهى بحل"[٢].

---

(١) المسرحية للدسوقى ــ ص٣٨٥ .
(٢) المسرحة ــ ص٣٨٧ .

والعقدة هى الحبكة التى تضم وتنظم الحوادث والأفعال بطريقة معينة لا يحدث معها أى خلل فى البناء المسرحى، و"الحبكة هى تطور القصة، وهى خطة الفعل التى يمكن عن طريقها للشخصيات والأفكار وغير ذلك من العناصر المكونة للدراما أن تكشف عن نفسها"(١) ويجب أن تأتى الحوادث متسلسلة كل جزئية منها تؤدى إلى ما بعدها. وفى أثناء تطور الحوادث، وازدياد التوتر يجب أن نحرص كل الحرص على عنصر الجاذبية والتشويق ، وأن نجعل النظارة فى حالة تعلق وتلهف، بأن نلقى بعض الظلال على تلك الحوادث حتى تبدو بين الوضوح والغموض، والفن يكمن فى قيادة الجمهور من غير أن يتنبأ بما سيحدث ، وبينما نراه يقظا متلهفا لمعرفة النتيجة يأتى الحل الحقيقى حين يأتى فجأة، وكلما كانت المسرحية معقدة احتاجت إلى فن أسمى ومهارة أكثر، وإلى اعتراف بالعلاقات الداخلية للحوادث، وإلى مجهود متزايد للمزج بين نظام الزمن ونظام الارتباط"(٢).

وفى طرح الحوادث وإبراز التعقيد تتضح العناصر الجوهرية التى تميز فن المسرحية من غيره من الفنون حيث يتجلى الصراع والحوار والحركة.

والصراع هو المظهر المعنوى للمسرحية، ويتمثل فى الصراع بين الخير والشر، وقد نادى به الناقد الفرنسى الشهير (برونتيير) مع أن بعض المسرحيات قد تخلت عنه ولم تلتزم به، فهو ليس ضروريا

---

(١) المدخل إلى الفنون المسرحية ــ ص١٧٧ .
(٢) المسرحية ــ ص٣٨٨ .

"والصراع أنواع كثيرة، وخيره فى كتابة المسرحية ذلك الصراع الصاعد، الذى ينمو ويتطور ويشتد حتى تتأزم الأحداث وتصل إلى نهايتها . ويتوقف نجاح مسرحية الصراع على قوة الشخصية وحالتها من حيث أبعادها الثلاثة : الجسمانية والاجتماعية والنفسية . ويتكون الصراع فى الظاهر من قوتين متعارضتين بيد أن كلا من هاتين القوتين نجمت عن ظروف معقدة متشابكة فى تسلسل زمنى متتابع ، بحيث يجعل التوتر بالغا الغاية من الرعب والشدة، حتى لا يكون ثمة بد من أن ينتهى بالانفجار"(١).

ولابد أن تتكافأ شخصيات الصراع فى الإرادة والتصميم "على أنه من العيوب المألوفة فى تأليف المسرحيات عدم الاهتمام بتطور الصراع وتدرجه بل يأتى وثبا، وهو الذى يتمثل فى تحول الشخصية من نقيض إلى نقيض دفعة واحدة، والأمين لا يتحول لصا هكذا دفعة واحدة، والمرأة لا تتحول من عفيفة شريفة محبة لبيتها وزوجها إلى امرأة مستهترة تهجر بيتها وزوجها دفعة واحدة ومن دون مقدمات، إن ذلك يدعو إلى فقدان المسرحية جاذبيتها وقوتها؛ فالشخصية فى مثل هذا الصراع يجب أن تنمو وتتطور بمعدل معقول وسرعة متزنة ، ولابد أن يكون ثمة هدف لهذه الشخصية لا تنحرف عنه حتى تصل إليه(٢).

---

(١) المسرحية للدسوقى ـــ ص٣٩١ .
(٢) المرجع السابق ـــ ص٣٩٢ .

وقد يكون الصراع بين البطل والشرير، أو بين رجلين متساويين، أو بين فرد وقوى الشر، أو بين الشخص ودوافعه. وأعتقد أن الصراع ضرورى فى العمل المسرحى بل هو عنصر جوهرى وفعال ومؤثر فى تركيب الحبكة وتسلسل الأحداث.

كما أن الحوار مظهر حسى للمسرحية ولا يتصور وجود مسرحية من دون الحوار، وليست هناك حدود أو مقاييس ثابتة للحكم بها على طول الحوار وقصره، وإنما الذى يفرض ذلك هو الموقف نفسه فقد يطول حتى يصل إلى صفحتين، وقد يقصر فيصل إلى كلمتين بل إلى كلمة واحدة. على كل لابد أن يكون الحوار مركزا وبعيدا عن الحشو وخاليا من التكرار سواء أكان شعرا أم نثرا.

وفى الحديث عن الحوار يتعين بيان اللغة التى تكتب بها المسرحية؛ إذ أن اللغة "هى الصورة التى تتشكل بواسطتها فنون الأدب جميعا ؛ باعتبار أن اللغة هى مستودع عواطفنا وأفكارنا، وأنها الوسيلة لرسم الشخصيات وتصوير الأحداث وتحديد المغزى العام للعمل الأدبى. وعلى الرغم من أن الخصائص الفنية التى تبعث الروعة والجمال فى العبارة الأدبية هى عناصر مشتركة، سواء أوردت هذه العبارة فى قصيدة غنائية أم مسرحية غير أن للغة فى كل فن طريقتها فى الإيحاء"(١).

---

(١) دراسات فى النقد المسرحى – ص٢٥ .

ونسأل من غير أن نتلقى إجابة ... هل تكتب المسرحية بالشعر أم بالنثر الفصيح أم بالعامية؟ ونحن نعرض للأمر من واقع حاضرنا العربى، مع أن هذه القضية قد لاكتها الألسنة وصارت إحدى مشكلاتنا التى تحتاج إلى حل ، وأصبحت لغة الأدب بين العامية والفصحى تتردد كقضية فى كل وسط أدبى بين الحين والآخر. ولنعرض لذلك فى حدود المسرحية فنقول: إن المسرحيات المترجمة أو التاريخية أو الأسطورية تكون الفصحى لغة لها. وتستعمل اللغة البسيطة السهلة فى غير ذلك حتى يتقبلها العامة، ولكننى لا أوافق على أن تكون العامية لغة للمسرح على الإطلاق ومن الخطأ أن نقيس أنفسنا بأمم أخرى ليس لديها ما لدينا من تراث عظيم، ويحسن أن يكون الحوار اللغوى متوافقا مع الشخص المسرحى ومعبرا عن ثقافته وتفكيره ، فلن نستسيغ أجيرا أميا فى مسرحية ينطق بلغة كلغة الجاحظ أو أبىحيان التوحيدى أو غيرهما. فمن الممكن أن يتسهل المؤلف فى الحوار الذى ينطق به هذا الأمر حتى يفهمه سائر العامة كلغة الصحافة مثلا. وكم قرأنا عن كثير من الأدباء الذين استعانوا بالعامية فى حوار أعمالهم ثم تحولوا عنها وصاروا فيما بعد يكتبون نتاجهم بما فيه من سرد وحوار باللغة الفصحى ، على أنه من الأفضل أن تكون اللغة متوافقة مع مستوى النظارة حتى لا تعلو الحواجز بينهم وبين الممثلين ، ويحسن أن يكون كل شئ مبنيا على الذوق والمهارة فقضية الفصحى والعامية شغلت أذهان الكثيرين، ولا يتسع هذا الملخص البسيط للتوسع فى معالجة هذه المسألة الشائكة والخطيرة.

والحركة (Action) ذات أهمية كبيرة فى العمل المسرحى فيها فقط يقدم نوع من التمثيل الصامت (Pantnime) وإننا نفتقد شيئا ضروريا ومهما عندما نقرأ المسرحية ولا نشاهدها، إذ يستطيع الممثل بما يقوم به من حركات من إكمال العمل المسرحى وجذب النظارة إليه، ولذلك كانت الحركة من العناصر الجوهرية فى العمل المسرحى، وينبغى تمثيل الحركات بدقة وفى المواضع الضرورية، وألا تترك مجالا لاجتهاد الممثل ووفقا لإرادته ، بل يجب ضبطها لتتوافق مع النص وتوضحه لا لتتعارض معه أو تخرج عليه. "فالحركة غير الضرورية ليست عديمة الجدوى فحسب، ولكنها مضرة ومؤذية، ومحطمة للاطراد"[1].

والحل هو النتيجة التى تأتى فى الفصل الأخير، وربما نجد بعض المسرحيات من دون حل مع أهميته، فلربما ترك المؤلف أو المخرج المشاهد ليختار الحل الذى يرتضيه ويتوافق مع ميوله ونزعاته، وإن كان ذلك لا يعجب البعض لأنه لا يريد أن يشغل نفسه؛ إذ أنه قد حضر ليشاهد المسرحية ويستمتع بها لا ليفكر ويجهد ذهنه، ويجب أن يقدم له الحل واضحا جليا. والحل يختلف فى المأساة عن الملهاة وذلك كنتيجة لطبيعة كل منهما ، وينبغى أن يمهد المؤلف من خلال الأحداث والمواقف داخل المسرحية بما ينتهى معها إلى حل يكون الجمهور متوقعا له؛ إذ أنه لا يعجب بالحلول المفاجئة خاصة إذا كان الحل يتعلق بالبطل ، ففى المأساة يحزن المشاهدون لموت البطل المفاجئ. وينبغى

---

(١) المسرحية للدسوقى ــ ص٤١١ .

ألا يكون الحل فى الملهاة مفتعلا أو وليد الصدفة أو ليس نتيجة حتمية للأفعال والمواقف، ففى الملهاة يكون الحل سعيدا براقا وليس مأسويا حزينا كما فى التراجيديا ٠

وربما تجلى لك دور الشخصية فى العمل المسرحى، فالمؤلف يعرض لها مصورا أفعالها أو محللا لتصرفاتها، سواء أكانت المسرحية مأساة أو ملهاة ، ومن الخطر أن تعتمد المسرحية على شخص واحد، وينبغى أن يشعر المشاهد بأن الشخصية طبيعية بقدر الإمكان فمن الاستحالة أن تتوافق الشخصية على المسرح مع الشخصية فى العمل الأدبى، فكثير من الكتاب الذين مثلث أعمالهم على المسرح من وجد فى الممثل صورة للشخصية التى رسمها، والبعض يرى أن الممثل أفسد الشخصية وعجز فى التعبير عنها وإبراز ملامحها كما يرى البعض أن الممثل قدم الشخصية بصورة أفضل مما هى عليه فى العمل الأدبى والتوافق التام من رابع المستحيلات إذ أن وجود الممثل الذى يتمكن من تقمص الشخصية تقمصا كاملا لم يخلق بعد ولهذا كان نجاح المسرحية أو فشلها لا يرجع إلى المؤلف فقط أو إلى الممثل فقط. ومن الأفضل أن يختار الممثل الشخصية التى يستطيع أن يعبر عنها ويتفاعل معها فالعمل المسرحى من أعقد الفنون ٠

وعند التوسع فى دراسة المسرحية ونقدها ينبغى العناية بالمناظر والاستراحة والموسيقى المصاحبة والغناء الملائم ودور المسرحية فى معالجة مشكلات الحياة وتثقيف الأمة وزيادة الإنتاج٠

فن التراجم الأدبية

إطلالة على صحائف التاريخ:

دخل فن التراجم ساحة الأدب ، وصار فى العصر الحديث ذا أهمية خاصة بعد أن اتصلنا بالغرب، واعتنى به كبار الأدباء فى سائر الوطن العربى ٠

وقبل أن نسترسل فى تعقب هذا الفن، وإبراز أهم ملامحه وأشهر أعلامه نعود إلى الوراء لنلمس حظ العرب القدامى منه، مع التأكيد على أن الترجمة لشخص هى الكتابة عن حياته لإبراز ما فيه من جوانب العظمة وجوانب الانحطاط، كما تكون الترجمة شخصية بمعنى أن يكتب الإنسان عن نفسه ويتناول تطور حياته٠

وهذان اللونان قد ظهرا فى القديم والحديث على السواء، مع اختلاف كبير فى العرض والتناول بمقدار ما بين كل عصر وآخر ما تباين واختلاف ٠

وقد كتب الأدباء والفلاسفة والعلماء والمتصوفة والمحدثون وبعض رجال السياسة والحرب عن أنفسهم قديما وحديثا . كما كتب كثير من الأدباء والمحدثون والفقهاء والمؤرخون والنحاة عن غيرهم عبر مراحل التاريخ المختلفة ٠

١ـ الكتابة عن الأعلام :

أعتقد أن دواعى الكتابة عن الرجال فى القديم ترجع إلى علم الحديث (النبوى) فعندما زاد الاختلاف بين المحدثين حول تمحيص

كلام الرسول ﷺ متنا وسندا برزت الحاجة لتأريخ حياة الرجال. كما أن الحديث لم يكن بمستوى القرآن من حيث التواتر والصحة، فكلام الله تعالى قد جمع فى عهد أبىبكر الصديق بينما لم يجمع الحديث إلا بعد ذلك بعشرات السنين ، واتضح أن الأحاديث ليست بدرجة واحدة ففيها الصحيح والحسن والضعيف وغيرها، بل إن بعض الآثار قد دست على أقوال الرسول عمدا أو من غير عمد .

ولكل ذلك أصبحت معرفة حياة الراوى ضرورة ملحة لكى تتضح مكانته بين العدل والكذب والفسق . فنهض كثير من الكتاب بالترجمة لعلماء الأحاديث ولمن يتعاملون مع أقوال الرسول فى مجال الرواية أو الكتابة أو الجمع .

ولما كان المقصود من الحديث ينصب على كل قول للرسول (ﷺ) أو فعل أو تقرير أو صفة له، اتجه الكتاب إلى سيرته ﷺ وسجلوها أو صاغوها بأقلامهم فى كتب تطول أو تقصر، بل وتختلف فى العرض والتقديم بما يتفق ومنهجهم فى الكتابة.

قد كتب ابن هشام سيرة الرسول (ﷺ) وكتب الأصبهانى عن علماء الحديث فى كتابه (حلية الأولياء) وترجم ابن الأثير للصحابة فى كتابه (أسد الغابة فى معرفة الصحابة) ، وكتب ابن عبدالبر كتابه (الاستيعاب) عن الصحابة ، كما ظهرت كتب كثيرة فى هذا الاتجاه منها (الإصابة فى معرفة الصحابة) وغيرها .

ثم انتقل هذا الفن إلى العلوم الأخرى فظهرت التـــراجم لعلمـــاء التفسير والفقه والعقيدة والنحو واللغة والتاريخ والجغرافية والأدب فـــى العصر العباسى وما تلاه نذكر منها طبقات الشافعية، وطبقات الأطباء، وطبقات فحول الشعراء، والفهرست ، ويتيمة الدهر، وتـــاريخ بغـــداد، وإنباه الرواة وبغية الوعاة ومعجم الأدباء ووفيات الأعيـــان، وفـــوات الوفيات ، والوافى بالوفيات وأعلام المائة التاسعة وغيرها.

وفى العصر الحديث أخرج خيرالدين الزركلى كتابه الموســـوعى (الأعلام) حيث ترجم فيه للمشاهير العرب فى سائر العلـــوم والفنـــون والآداب قديما وحديثا .

٢ـ الترجمة الشخصية :

قرأنا فى الأدب الجاهلى كثيرا من أحاديث الشعراء عن أنفســـهم، وإن لم يكن حديثا مباشرا ، لكن القارئ يستطيع أن يجمع منه بعـــض الملامح مع أنها لم تسلم من المبالغة التى لا تتفق مع الحقيقـــة. ونجـــد قريبا من ذلك فى كتابات الجاحظ وأبىحيان التوحيدى . ويعد المقدسى الأديب الجغرافى وصاحب كتاب (أحسن التقاسيم) ممـــن كتبـــوا عـــن أنفسهم بإفاضة خاصة فى أول كتابه المذكور . وممن ساروا فى هـــذا الاتجاه على بن زيد البيهقى صاحب "مشـــارب التجـــارب" و"وشـــاح الدمية" والأخير تذييل على كتاب "دمية القصر" للباخرزى وهذا أيضـــا ذيل على كتاب "يتيمة الدهر" للثعالبى.

وفى معجم الأدباء وعند الترجمة للبيهقى قال ياقوت الحموى: إنه ترجم لنفسه فى كتابه "مشارب التجارب" ومما يؤسى له أن هذا الكتاب قد ضاع ضمن ما ضاع من تراث العرب فى عصور نهضتهم، وقد ذكر ياقوت لنا اسم الكتاب وبعضا من سطوره .

وممن كتبوا عن أنفسهم من الفقهاء والوعاظ ابن الجوزى صاحب كتاب المنتظم وهو مطبوع ، وقد كتب عن حياته فى رسالة له سماها (لفتة الكبد إلى نصيحة الولد) والعنوان يكشف عن المضمون وهى عبارة عن نصائح يوجهها ابن الجوزى إلى ابنه ، ولم يكتف بذلك بل ضمنها كثيرا من أخبار حياته ومؤلفاته .

ويعد أبوشامة صاحب كتاب (الروضتين فى أخبار الدولتين) دولة نورالدين زنكى ودولة صلاح الدين الأيوبى . من أشهر المؤرخين فى العصر الأيوبى وقد كتب عن نفسه ، وأفاض فى الحديث عن مولده ونشأته وآبائه وأعمامه كما تحدث عن رحلاته إلى بيت المقدس وإلى الحجاز للحج وإلى الديار المصرية مشتغلا باللغة والتاريخ معتكفا على الدروس والتحصيل .

كما ترجم (الحلاج) (متصوف) لنفسه، وشرح نظرياته، وأبان عن عقيدته القوية وعزيمته الجبارة إلى أن انتهت حياته بالقتل . وكتب غيره من المتصوفين عن أنفسهم كالغزالى وابن الفارض والشعرانى والأخير قص معظم سيرة حياته فى كتاب له يسمى "لطائف السنن والأخلاق فى بيان وجوب التحدث بنعمة الله على الإطلاق".

ومن الشعراء الذين ترجموا لأنفسهم أسامة بن منقذ، وله كتاب مطبوع اسمه (الاعتبار) ذكر فيه أسامة معظم ذكرياته إبان الحروب الصليبية فى القرن السادس الهجرى، وكان يسرد بعض مشاهداته وآرائه عن الصليبيين فى الشام. ولم يتوقف فى هذا الكتاب عند حدود سيرته ، بل امتد بأسلوبه البديع الموشى إلى تصوير الحروب وما دار فيها وإبراز الفروسية العربية فى هذه الفترة الخطيرة والعصبية من حياة الأمة العربية والإسلامية . وكان كثير من المؤرخين والرحالة يبسطون تفاصيل حيواتهم من خلال التحدث عن رحلاتهم وتنقلاتهم بين كثير من البلدان نذكر منهم ابن بطوطة وابن خلدون ٠

ولعلك أدركت أن فن الترجمة بلونيه لم يكن غائبا عن أذهان العرب المسلمين، ولعلى قد اقتصدت فى بيان محصول العرب من هذا الفن حتى انصرف إلى موضوع حديثنا الآتى ٠

ترجمة الحياة فى العصر الحديث :

من غير شك أننا طورنا هذا الفن فى أدبنا العربى بعد الاتصال بالغرب وصار الأدباء لا يكتفون بمجرد الترجمة المعهودة والموروثة التى يقتصر فيها على ذكر تواريخ الولادة والوفاة وتعقب ما بينهما من شهرة وذيوع وتحقيق ما يعجز عنه الكثيرون، وتأكيد ذلك بالشواهد والأمثلة التى تتوافق ومهنة المترجم له . لم يعد الأدباء المحدثون يكتفون بذلك فهذه الجوانب لم تعد مقصودة لذاتها، بل عمدوا إلى تناول أدق التفاصيل فى حياتهم إذا كانوا يترجمون لأنفسهم أو فى حياة من

يكتبون عنه، وأصبحت الترجمة الشخصية أو غيرها ضربا من القصص الحى البديع، وصارت فنا مستقلا قائما بذاته، بمعنى أن الكتابة فى هذا الفن لم تعد حقا مباحا لكل من حمل القلم . واستبعدت من الأدب الفنى الترجمة بمعنى التأريخ لحياة المترجم له من غير تحليل وتنسيق وتمحيص وصياغة فنية للحقائق المتاحة : "فترجمة الحياة عملية فنية تجمع بين عمل المؤرخ من جهة ارتباطها بسيرة إنسان عاش فى بيئة بعينها وزمن بعينه، وبين عمل المصور الفنان الذى يتخصص فى رسم الصور النصفية للأشخاص"[١].

ولابد للكاتب ألا يغفل جانبا فى الشخصية المترجم لها، فلكل شخص عدة مجالات يتحرك فيها ويبرز من خلالها وليس مجالا واحدا ينحصر فى دائرته. فالشخصية السوية الجانب أو المجال المناسب حسب المكان الذى توجد فيه ووفق الأشخاص التى تلتقى بهم . فهل يمكن لأحد أن يتصور إنسانا لا تتعدد جوانبه بمعنى أن يكون صورة واحدة عندما يكون فى قريته أو بين أصحابه أو مع زملائه؟

وهنا نقطة لابد من تجليتها وهى علاقة المترجم له بعصره . هل يكتفى الكاتب برسم ملامح الشخص ، وتصوير وقائع حياته من الميلاد إلى الوفاة من غير أن يتعرض للعصر الذى عاش فيه ، أو يتعرض للزمن بكل أحداثه ووقائعه؟

---

(١) الأدب وفنونه ص٢٧٧ .

والرأى أن يعرض المؤلف لشخصية من يترجم له، ويتناول من أحداث العصر ما يرتبط به أو يؤثر فى حياته . أما أن يترك المؤلف الشخصية التى يترجم لها، وينصرف إلى أحداث العصر ، ويتوسع فى استيعابها وتعقبها مع ابتعادها وانفصامها عن الشخصية المترجم لها فهذا مما لا يتوافق مع الرأى الصواب . وقد قرأت كتابا (صغيرا) من هذا النوع وعنوانه (معى) وهو للدكتور شوقى ضيف، فقد ترجم فيه لحياته الشخصية، وتناول تفصيلاتها، وأجاد فى تصويرها، ولكنه تحدث عن كثير من الظروف السياسية التى مرت بها البلاد (التى عاش بها) مع أنه لم يكن طرفا فيها ولم تؤثر على مجريات حياته. وعلى الجانب الآخر نرى كتابا غيره فى الترجمة الشخصية أيضا وهو الجزء الثالث من كتاب (الأيام) للدكتور طه حسين، فقد تحدث فيه عن الحياة السياسية فى مصر من خلال الترجمة ، وكانت كتابته مقبولة من هذا الجانب . وكلنا يعلم قدر الرجل ووزنه، ومشاركته فى العمل السياسى إلى أن وصل إلى درجة الوزير ، بل إن كتابه (فى الشعر الجاهلى) قد دخل مجلس الوزارة والبرلمان ، وأثار ضجة كبيرة فى المجلسين معا ، بل شملت الضجة سائر الأوساط ، وأعرف أن بعض الجامعات لا توافق على أن يتقدم لها الباحثون بترجمات من خلال الرسائل العلمية عن أشخاص لا زالوا أحياء بحجة أن الباحث المترجم قد تختفى عنه الحقيقة بواسطة المترجم له ، بل ربما يعمد بعض الكتاب إلى إخفاء الحقيقة حياء أو مجاملة أو خوفا من الشخص المترجم له خاصة إذا كان صاحب نفوذ وسلطان . والحقيقة وهى

غالية جدا يمكن أن تلتوى فى ظلال هذه الغيوم والسحب ، وصـــارت الكتابة عن الأحياء مخاطرة كبيرة فضلا عمن يعترض عليهـــا، وهـــذا الرأى على وجاهته فيه نقطة ضعف من ناحية أن الشخص المترجم له ربما يعرف هو وحده الحقيقة ، ولا يشاركه فيها غيره، فإذا انقطعـــت حياته ذهبت معه كل الأسرار واختفت الحقائق ، وهنا تكون الترجمـــة للشخص فى حياته مهمة جدا ولا بديل عنها مع أنها كسلاح ذى حدين أو كعملة ذات وجهين، ولذا وجب أن تعاد الترجمة عندما يصل إلى يد الكاتب وثائق جديدة فى عملية الترجمة للحياة، وإن كثيرا من النـــابهين المؤثرين الذين يستحقون الترجمة لم يظفروا بها بعد وفاتهم لعدم وجود المصادر الكافية التى يعتمد عليها الكاتب المؤلف.

المصادر التى يعتمد عليها عند الترجمة للحياة :

ذكر الدكتور عزالدين إسماعيل أهم هذه المصادر وهى: الكتـــب المؤلفة والوثائق الأصيلة كالخطابات (تذكر رسائل الرافعى وأهميتهـــا فى التأريخ لحياته) ، ذكريات المعاصرين. مقتنيات الشـــهود الأحيـــاء (ذكريات المؤلف نفسه إذا كانت له معرفة شخصية ببطله) [١].

وينبغى للكاتب أن يزور الأماكن (محل الدراســـة) وأن يتعـــرف على كل ما فيها مما له صلة بموضوعه أو بالشخص الذى يكتب عنه . ويجب على الكاتب أن يمحص هذه المصادر، ويوازن بينهـــا، وينفـــى عنها ما يرتاب فيه حتى لا يقع فى دائرة التناقض مع بيان كل ذلـــك،

---

(١) المرجع السابق ــ ص٢٨٢ .

فلربما كانت المصادر صحيحة مع تناقضها، على أن التناقض فى هذه الحالة يرجع إلى الشخصية وينبع منها ٠

فهم الشخصية :

ربما كان من الأفضل أن يترجم الإنسان لحياته فهو أعرف بهـا وأوثق بمراحلها المختلفة، وإن لم يكن ذلك صحيحا علـى الإطـلاق، فلربما فهم الإنسان غيره أكثر من فهمه لنفسه ، وهناك جانـب آخـر يسهم فى إيضاح هذه النقطة . كثير من الناس يغتـرون بأنفسـهم، ولا يرون لها مزيدا من النقص ، وينهزمون أمام الناس ، ولا يقدرون على تعرية أنفسهم تماما ، ويغفلون كثيرا من مشكلاتهم العاطفية أو الجنسية أو غيرها، ولهم عذرهم فقد تتعلق هذه الحقائق بأشـخاص آخـرين ، ولهذا كانت الذاتية شاقة جدا على نفس صاحبها، ويخيل إلى أن الكاتب الذى يؤرخ لنفسه ويذكر كل الحقائق لم يولد بعـد، فلابـد أن يحـتفظ الإنسان لنفسه بقدر من الأسرار . ولذلك أصبحت الترجمة للآخـرين محل عناية واعتبار ما دام الإنسان قادرا على فهم الآخرين أكثر مـن فهمه لنفسه . أما أن يترجم لنفسه، ويشوه صورته ، ويذكر كل الوقائع التى لا يعرفها أحد سواه فهذا حتى من الناحية الشرعية غير مطلوب، حتى وإن قالوا عن كتاباتهم إنها تعرية تامة لحياتهم كما فعل الـدكتور سيد نجا فى كتابه (ذكريات عارية)٠

وقليل من الكتاب من تحرى الصدق مع النفس فى إطـار القـدر المسموح به، ولعل منهم العقاد الذى ترجم لنفسه فى كتابه (أنا) وكتابه

(فى بيتى) وقد تحرى الحقيقة أيضا مع قدرته على الصـــياغة الفنيـــة والتحليل العقلى والدراسة النفسية فيما كتبه عـــن الترجمـــة للآخـــرين وصار ذا منهج يدرس ويعالج وتوضع فيه الكتب، وتكتب له الدراسات فترجم للمهاتماغاندى ومحمد على جناح وأبى العلاء وابـــن الرومـــى وغيرهم ، كما ترجم للرسول ﷺ ولبعض أصحابه فى سلسلة من الكتب عرفت بالعبقريات .

ويعد طه حسين أشهر من ترجم لنفسه، خاصة وأنه ســـابق إلـــى هذا اللون من الكتابة فى العصر الحديث فقد جارى الفرنسيين، وتـــأثر إلى حد كبير بأخيلتهم وطريقتهم فى الكتابة، وإن لم يـــؤثر ذلـــك فـــى عبقريته وقدرته على الإبداع والتأليف. ثم جاء أحمد أمين فنشر كتابـــه (حياتى)، الذى يأتى فى المرتبة الثانية بعد (الأيام). وهذان الكتابـــان من أشهر كتب الترجمة الشخصية فى أدبنا الحديث: والأيام هو الأسبق والأشهر ، فقد أعجب به الناس واقتنوه، وقرؤوه أكثر من مرة، وليس أدل على ذلك من إعادة طبع الجزء الأول منه (وهو أقدم) مـــا يقـــرب من ستين طبعة.

وسوف نتوقف مع طه حسين وكتاب الأيام فيما يأتى.

طه حسين :

ولد طه حسين فى عام ١٨٨٩م فى إحدى قرى صعيد مصر على مقربة من مدينة مغاغة، وكان والده موظفا بسيطا فى شركة للســـكر، متدينا، ورعا، متصوفا، ولم يكد ابنه طه يتم الثالثة حتى فقـــد بصـــره

فشغل الأب والأم بهذا الولد الذى كان سابع أبنائهما الثلاثة عشر. ثم ألحقه أبوه بكتاب القرية فأتم حفظ القرآن الكريم فى تسع سنين لموهبته وذكائه الحاد مع علته التى لازمته ولصقت به . وتمنى أبوه لو صار ابنه عالما من علماء الأزهر، وود الصبى لو سافر مع أخيه (أزهرى أيضا) إلى القاهرة لينتسب بالأزهر، ويتلقى العلم على شيوخه . ثم كان له ما أراد فالتحق به وعمره ثلاث عشرة سنة . وقضى به عدة سنوات، ودرس فيه الأدب على أستاذه الشيخ سيد المرصفى، ولكن طه ثار على أوضاع الأزهر، وكره الدراسة فيه خاصة بعد أن زادت قراءاته لما يكتبه لطفى السيد، ولما ينشره الشيخ محمد عبده فى تلاميذه ومريديه من الدعوات الإصلاحية فى سائر مناحى الحياة السياسية والثقافية والعلمية والدينية. ثم التحق بالجامعة الأهلية التى فتحت أبوابها فى عام ١٩٠٨م وانقطع عن الدراسة فى الأزهر وهاجم شيوخه، وتطاول عليهم واستمر فى دراسته بالجامعة حتى نال الدكتوراه منها فى عام ١٩١٤م فى ذكرى أبىالعلاء المعرى.

وسافر إلى فرنسا فى بعثة على نفقة الجامعة لدراسة التاريخ القديم ونزل فى (مونبلييه) وعاد منها بعد عام لنقص ميزانية الجامعة إبان الحرب العالمية الأولى، ثم عاد إلى فرنسا، وأقام فى (باريس) وتعلم الفرنسية ولاقى صعوبات كثيرة فى دراسته إذ يشترط قبل التقدم لنيل درجة الدكتوراه من الحصول على شهادة الليسانس التى يؤدى امتحانها باللغة اللاتينية، وتعرف على فتاة فرنسية أثناء دراسته فى السوربون، وهى التى اختارها فيما بعد زوجة له، فتعاونت معه، حتى

حصل على الدكتوراه فى (فلسفة ابن خلدون الاجتماعية) كما أنــه لــم يتقدم أيضا للظفر بهذه الدرجة إلا بعد دراسة التاريخ والفلســفة وعلــم النفس كما ألم فى بعثته بالآداب اليونانية واللاتينية القديمة، وألم أيضــا بالأدب الفرنسى، ثم عاد إلى مصر ومعه زوجتــه وابنتــه ، وعمــل مدرسا بالجامعة، ونهض بتدريس التاريخ اليونانى القديم، وأخرج فيــه بعض الكتب ثم اتجه إلى الصحافة وأسهم فى تحرير جريدة السياسة ، وأخذ يكتب فى الأدبين الفرنسى والعربى وانصرف عن التاريخ الــذى لم يجد له قبولا آنذاك.

وعندما تحولت الجامعة من أهلية إلى حكومية صار بها أســتاذا لآداب اللغة العربية فى كلية الآداب إلى أن أصبح عميدا لهــا، ولكنــه استقال منها لتدخل السياسيين فى شؤونها . ولم يتوقف قلمه عن الكتابة فى المجلات والصحف السيارة، ثم عاد إلى عمادة كليــة الآداب، ثــم ترك الجامعة واتجه إلى الصحافة فركز فيها كل جهوده، وشارك فــى معاركها الأدبية والسياسية حتى عين مديرا لجامعة الإســكندرية عــام ١٩٤٢م ، ولم تتوقف رحلاته إلى أوربا كل صيف، وكتب كثيرا مــن مؤلفاته فى فترة الصيف التى كان يقضيها فى فرنسا وغيرها من البلاد الأوربية المجاورة، وعين وزيرا للمعارف عام ١٩٥٠م وأصبح عميدا للأدب العربى عن جدارة واستحقاق لما قدمه إلى المكتبة العربية فــى شتى الفنون والآداب ، وتوفى فى شهر أكتوبر عام ١٩٧٣م بعد حيــاة حافلة بالكفاح والعطاء والتفرد فى كل ما قام به وعزم عليه . وأعــاد طبع رسالته للدكتوراة (المصرية) عن أبىالعلاء تحت اســم (تجديــد

ذكرى أبي‌العلاء) وكتب(في الشعر الجاهلي) الذي تحول إلـى (فـي الأدب الجاهلي) بعد أن تفجرت مشكلة كبيرة بسـبب هـذا الكتـاب، وثارت قضية الانتحال في الشعر الجاهلي ولم تهدأ الأزمـة إلا بعـد تدخل سياسي على مستوى الحكومة . ثم اتجه إلى نفسه وبحث شـأنه وكتب عن نفسه في مجلة الهلال عددا مـن المقـالات جمعهـا عـام ١٩٢٩م في الجزء الأول من كتابه الأيام ٠

ومن بحوثه ودراساته في الأدب والنقد وهي كثيرة: من حـديث الشعر والنثر ــ مع المتنبي ــ فصـول فـي الأدب والنقـد ــ مـع أبي‌العلاء في سجنه ــ صوت أبي‌العلاء ــ ألوان ــ جنـة الشـوك ــ ومن مؤلفاته في الرواية والقصة : الحب الضائع ــ دعاء الكروان ــ المعذبون في الأرض ــ كما كتب في البحوث الإسـلامية والتـراجم والسير والأدب التمثيلي والتربية والاجتماع . فكتاباته كثيرة ومتنوعة. وقد أثرت المكتبة العربية، وأسهمت في امتداد التواصل بين الثقـافتين العربية والغربية وأيضا بين الأدبين الحديث والقديم على السواء٠

الأيام :

يعد الأيام أشهر كتاب في الترجمة الشخصية في هذا العصـر ، وابتدأ طه حسين كتابته عام ١٩٢٧م ، ونشر الجزء الأول منـه عـام ١٩٢٩م بعد خروجه من أشرس المعارك التي خاضها في أول حياتـه عندما نشر كتابه (في الشعر الجاهلي) وتعرض فيه لقضية الانتحال في الشعر الجاهلي، وكان الرجل قد أراد الرجوع إلى ماضـيه ودراسـة

نفسه، فأخرج الجزء الأول من هذا الكتاب الذى جعله خاصا بطفولتـــه وصباه، وشرح فى مقدرة لا تبارى نشأته الأولى فى بيئته المتوســطة، وانتقاله إلى حفظ القرآن الكريم بالكتاب ثم صور أحزان أبويــه لوفــاة أخت له ، وتحدث عن آلام الأسرة كلها لوفاة أخ له بــداء الكــوليرا . وختم هذا الجزء برسالة إلى ابنته التى لم تكن قد تجاوزت التاسعة من عمرها .

وتحدث فى الجزء الثانى الذى كتبه بعد ذلك عــن الفتــرة التـــى قضاها بالأزهر والجامعة وشرح المصاعب التى واجهته، والإهمــال الذى عانى منه ، وأبان من مشاعره فى أجازته الصيفية التــى كــان يقضيها بين أهله فى الصعيد ، وختمه بحديث إلى ابنه الذى سافر هــو الآخر لاستكمال تعليمه فى أوربا.

ثم نشر بعد ذلك الجزء الثالث الذى تحدث فيه عن رحلتــه إلـــى فرنسا، وعن رسالته للدكتوراه ، وعن المرأة التى أبصر بعينيها (كمــا قال) ،وانتهى الكتاب بعودته إلى مصر وإيمانه بثورتها التى اندلعت فى نهاية العقد الثانى من القرن العشرين .

وقد ترجم الكتاب إلى الإنجليزية والفرنسية والروسية والصــينية والعبرية وغيرها. فذاع الكتاب وانتشر بين الناس، وأقبل عليه القــراء فى كل مكان . ونعود إلى دراسة الكتاب بعد هذا التقديم ونبدأ بــالجزء الأول الذى ابتدأه طه حسين بالحديث عن نشأته كضــرير فـــى بيئـــة متوسطة مستورة الحال . وأبان عما كان يسعده ويشــقيه مــن خــلال

معاملة الأسرة له، كما صور مشاعر المكفوفين، وتحدث عما يـؤذيهم وعما يفرحهم وذكر موقفا لم ينسه إذ جعله يتمثل أبا العـلاء المعـرى (وكان ضريرا أيضا) وكتب عن هذا الموقف بصمير الغائب فقال :

" كان من أول أمره طُلَعَةً[١] لا يحفل بما يلقى من الأمر فى سبيل أن يستكشف ما لا يعلم، وكان ذلك يكلفه كثيرا من الألم والعناء ، ولكن حادثة واحدة حدت ميله إلى الاستطلاع ، وملأت قلبه حياء لم يفارقـه إلى الآن ، كان جالسا على العشاء بين إخوته وأبيـه ، وكانـت أمـه كعادتها تشرف على حفلة الطعام ، ترشد الخادم وترشد أخواته اللائى كن يشاركن الخادم فى القيام بما يحتاج إليه الطاعمون. وكان يأكل كما يأكل الناس. ولكن لأمر ما خطر له خاطر غريب! ما الذى يقع لو أنه أخذ اللقمة بكلتا يديه بدل أن يأخذها كعادته بيد واحدة؟ وما الذى يمنعه من هذه التجربة؟ لا شئ . وإذن فقد أخذ اللقمة بكلتا يديه، وغمسها من الطبق المشترك ثم رفعها إلى فمـه. فأمـا إخوتـه فـأغرقوا[٢] فـى الضحك،. وأما أمه فأجهشت[٣] بالبكاء، وأما أبوه فقـال فـى صـوت هادئ حزين: ما هكذا تؤخذ اللقمة يا بنى ... وأما هو فلم يعرف كيف قضى ليلته٠

من ذلك الوقت تقيدت حركاته بشئ من الرزانة والإشفاق والحياء لا حد له . ومن ذلك الوقت عرف لنفسه إرادة قوية. ومن ذلك الوقـت

(١) طُلَعة : كثير التطلع. لا يحفل بالشئ: لا يبالى به ٠
(٢) أغرقوا فى الضحك : بالغوا فيه ٠
(٣) أجهشت بالبكاء : همت به وتهيأت له ٠

حرم على نفسه ألوانا من الطعام لم تبح له إلا بعد أن جاوز الخامسة والعشرين ، حرم على نفسه الحَسَاء والأرز وكل الألوان التى تؤكل بالملاعق؛ لأنه كان يعرف أنه لا يحسن اصطناع الملعقة، وكان يكره أن يضحك إخوته ، أو تبكى أمه، أو يعلمه أبوه فى هدوء حزين[١] "وبعد هذه الحادثة تمنى لو صارح أهله برغبته فى أن يخلو بطعامه ، ولكنه لم يجرؤ على البوح برغبته إلا حين سافر إلى أوربا، إذ كان الطعام يحمل إليه فى غرفته، ولم يذهب إلى المائدة فى الحل أو الترحال، وبقى على ذلك حتى أخرجته زوجته من عادات كثيرة كان قد ألفها وتعود عليها .

وقد حفظ فى طفولته ألوانا كثيرة من الأغانى والقصص والشعر والأوردة والأدعية والأناشيد التى اختص بها الصوفية، كما حفظ القرآن الكريم، ولم يتجاوز التاسعة، وتحدث عن الكُتَّاب الذى حفظ فيه القرآن فقال : "ولكنه لا يعرف كيف حفظ القرآن، ولا يذكر كيف بدأه ولا كيف أعاده، وإن كان يذكر من حياته فى الكتاب مواقف كثيرة، منها ما يضحكه الآن، ومنها ما يحزنه: يذكر أوقاتا كان يذهب فيها إلى الكتاب محمولا على كتف أحد إخوته؛ لأن الكتاب كان بعيدا، ولأنه كان أضعف من أن يقطع ماشيا تلك المسافة. ثم لا يذكر متى بدأ يسعى إلى الكتاب. ويرى نفسه فى ضحى يوم جالسا على الأرض بين يدى (سيدنا) ومن حوله طائفة من النعال كان يعبث ببعضها، وهو يذكر ما

(١) الأيام جـ١ ص٢٠، ٢١ طبعة دار المعارف.

كان ألصق بها من الرقع. وكان سيدنا جالسا على دكّةٍ[١] من الخشب صغيرة ليست بالعالية ولا بالمنخفضة قد وضعت على يمين الداخل من باب الكُتّاب بحيث يمرُّ كل داخل "بسيدنا" وكان "سيدنا" قد تعود متى دخل الكتاب أن يخلع عباءته، أو بعبارة أدق "دفيّته" ويلفّها لفا يجعلها فى شكل المِخَدّة، ويضعها عن يمينه، ثم يخلع نعله ويتربع على دكته ، ويشعل سيجارته، ويبدأ فى نداء الأسماء. وكان "سيدنا" لا يعفى نعليه إلا إذا لم يجد من ذلك بدا، وكان يرقعها من اليمين ومن الشمال ومن فوق ومن تحت. وكان إذا أخلت به إحدى نعليه دعا أحد صبيان الكتاب وأخذ النعل بيده وقال له: تذهب إلى "الحزّين" وهو هنا قريب، فتقول له: "يقول لك سيدنا إن هذه النعل فى حاجة إلى لَوْزَةٍ من الناحية اليمنى" انظر أترى! هنا حيث أضع أصبعى. فيقول لك "الحزين" : نعم! سأضع هذه اللوزة . فتقول له: "يقول لك سيدنا يجب أن تتخير الجلد متينا غليظا جديدا، وأن تحسن الرقع بحيث لا يظهر، أو بحيث لا يكاد يظهر" فيقول لك : "نعم سأفعل" فتقول له: "ويقول لك سيدنا: إنه عميلك منذ زمن طويل، فاستوص بالأجر خيرا" ومهما يقل لك فلا تقبل منه أكثر من قرش، ثم عد إلى مسافة ما أغمض عينى ثم أفتحها. وينطلق الصبى ويلهو عنه سيدنا، ثم يعود وقد أغمض سيدنا عينه وفتحها مرة ومرة ومرات"[٢]، ولعلك لاحظت عناية طه حسين بالتفاصيل الدقيقة، واهتمامه بتصوير المواقف تصويرا رائعا ، وتناوله لكل ما اخترق

---

(١) تطلق كلمة الدكة فى مصر على سرير من الخشب يجلس عليه وأصلها بفتح الدال : بناء يسطح أعلاه ويجلس عليه .

(٢) الجزء الأول ــ ص٢٨ ــ٣١ .

سمعه وترسب فى ذاكرته، على أن حديثه عن الكتاب وشيخه وعريفه استغرق عددا كبيرا فى الصفحات فى هذا الجزء ٠

وقد كتب عما تعلمه على مشايخ القرية وعلمائها ، بل إنه تعلم فيما تعلمه السحر والطلاسم ، وحاول أكثر من مرة أن يجرب بنفسه ما استمع إليه أو قرئ له حتى كادت محاولته للتجريب تذهب بحياته فى إحدى هذه المرات ، كما درس علم التجويد، وحفظ المتون، وتفوق على أقرانه، ولم يتوقف هذا النشاط إلا بوفاة أخ له بداء الكوليرا عام ١٩٠٢م فانصرف الصبى إلى نفسه، وأخذ يستعد للسفر إلى القاهرة فى رفقه أخيه (الأزهرى)٠

وفى نهاية هذا الجزء توجه بالحديث إلى ابنته بعد أن صار أستاذا فى الجامعة وقد حدثها عن طفولته فقال :

" عرفته فى الثالثة عشرة من عمره حين أرسل إلى القاهرة ليختلف إلى دروس العلم فى الأزهر، وإن كان فى ذلك لصبى جِدٍّ وعمل، كان نحيفا شاحب اللون مهمل الزى أقرب إلى الفقر منه إلى الغنى، تقتحمه العين اقتحاما فى عباءته القذرة وطاقيته التى استحال بياضها إلى سواد قاتم، وفى هذا القميص الذى يبين من تحت عباءته وقد اتخذ ألوانا مختلفة من كثرة ما سقط عليه من الطعام ، وفى نعليه الباليتين المرقعتين ، تقتحمه العين فى هذا كله، ولكنها تبتسم له حين تراه على ما هو عليه من حالٍ رَثَّةٍ[1] وبصر مكفوف، واضح الجبين

---

(١) حال رثة : سخيفة ٠

مبتسم الثغر مسرعى مع قائده إلى الأزهر، لا تختلف خطاه ولا يتردد فى مشيته، ولا تظهر على وجهه هذه الظلمة التى تغشى(١) عادة وجوه المكفوفين، تقتحمه العين ولكنها تبتسم له وتلحظه فى شئ من الرفـق، حين تراه فى حلقة الدرس مصغيا(٢) كله إلى الشيخ يلتهم كلامه التهاما ، مبتسما مع ذلك لا متألما ولا متبرما(٣) ولا مظهرا ميلا إلـى لهـو، على حين يلهو الصبيان من حوله أو يشرئبون(٤) إلى اللهو. عرفته يـا ابنتى فى هذا الطور. وكم أحب لو تعرفينه كما عرفته، إذ تقدرين مـا بينك وبينه من فرق. ولكن أنى لك هذا وأنت فى التاسعة من عمـرك ترين الحياة كلها نعيما وصفوا !

عرفته ينفق اليوم والأسبوع والشهر والسنة لا يأكل إلا لونا واحدا يأخذ منه حظه فى الصباح، ويأخذ منه حظه فى المساء، لا شـاكيا ولا متبرما ولا متجلدا، ولا مفكرا فى أن حاله خليقة بالشكوى، ولو أخذت يا ابنتى من هذا اللون حظا قليلا فى يوم واحد لأشفقت أمك ولقـدمت إليك قدحا من الماء المعدنى، ولانتظرت أن تدعو الطبيب٠

لقد كان أبوك ينفق الأسبوع والشهر لا يعـيش إلا علـى خبـز الأزهر وويل للأزهريين من خبز الأزهر! إن كانوا(٥) ليجـدون فيـه ضروبا من القش وألوانا من الحصى وفنونا من الحشرات٠

---

(١) تغشى : تغطى ٠
(٢) مصغيا : مميلا أذنيه للاستماع٠
(٣) متبرما : متضجرا ٠
(٤) اشرأب: رفع رأسه ومد عنقه لينظر . ويعنى هنا يتطلعون ٠
(٥) إن ، هى المؤكدة المخففة . أى إنهم كانوا يجدون ٠

وكان ينفق الأسبوع والشهر والأشهر لا يغمس هذا الخبز إلا فى العسل الأسود، وأنت لا تعرفين العسل الأسود، وخير لك ألا تعرفيه، كذلك كان يعيش أبوك جادا مبتسما للحياة والدروس، محروما لا يكاد يشعر بالحرمان . حتى إذا انقضت السنة وعاد إلى أبويه، وأقبلا عليه يسألانه كيف يأكل؟ وكيف يعيش؟ أخذ ينظم لهما الأكاذيب كما تعود أن ينظم لك القصص، فيحدثهما بحياة كلها رغد ونعيم، وما كان يدفعه إلى هذا الكذب حب الكذب، إنما كان يرفق بهذين الشيخين ويكره أن ينبئهما بما هو فيه من حرمان . وكان يرفق بأخيه الأزهرى، ويكره أن يعلم أبواه أنه يستأثر دونه بقليل من اللبن، وكذلك كانت حياة أبيك فى الثالثة عشرة من عمره"[١].

وقد وازن فى السطور السابقة بين ماضيه التعيس وحاضرها الرغيد، وما كانت البنت بمدركة حقا وهى فى هذه السن ما كان يتحدث به أبوها، ولعلها أدركت كل ذلك بعد أن كبرت وتغير حالها.

ثم ذكر بعد ذلك أن هذا النمط من شظف الحياة وشقائها قد تغير وتحول بفضل أمها التى بدلت حياة أبيها وجعلت من البؤس نعيما ومن اليأس أملا ومن الفقر غنى ومن الشقاء سعادة وصفوا.

ولا يخفى ما فى أسلوبه من جمال وعذوبة وصفاء وقدرة على التلوين مع علته التى لازمته، والتصقت به ، وقد أجاد تصوير حياته

---

(١) الأيام جـ١ ص١٤٨ ـ ١٥٠١ .

وكان حديثه عنها حديث الواعى البصير ، ووصفها وصفا دقيقا كأنــه يراها ويشاهدها .

وفى الجزء الثانى توسع فى شرح المصاعب التى واجهته أثنــاء تعلمه بالأزهر لمدة ثمانى سنوات متواصلة، ثم أكمــل هــذا الجــزء بالحديث عن الجامعة الأهلية وتتلمذه على أساتذة مصريين وأجانــب، وفى إحدى الأجازات الصيفية وأثناء إقامته مع الأسرة فــى الصــعيد تعرض لموقف ما كان ليتعرض له لو لم يكن مكفوف البصــر ، وقــد تأذى منه فقال عنه :

" وكان صاحبنا يحب الإجازة لأنه كان يفرغ للتفكير فى أصدقائه من بعيد، فيكتب إليهم ويتلقى منهم الكتب ، ويجد فى نفسه لذلك نشاطا وبه لذة لم يكن يجدها حين يلقى أصدقاءه فى القاهرة ويتحدث إليهم من قريب . ثم كان يحب الإجازة لأنه كان يلقى فيها شبابا آخــرين غيــر شباب أسرته ، شبابا من بيئة الطرابيش، ومنهم من كان فى المــدارس الثانوية، ومنهم من كان فى المدارس العالية[1]، قد أقبلوا مثله يلتمسون الراحة بين أهلهم فى الريف . وهم يجدون فى لقائه والتحدث إليه مــن اللذة والمتاع مثل ما يجد هو فى لقائهم والتحدث إليهم، فكــان يســألهم عما يتعلمون ويسألونه عما يتعلم، وربما قرؤوا عليه بعــض كتــبهم، وربما قرأ معهم شيئا من الأدب القديم ، ولكنه أنكر بعض إجازته أول الأمر، فقد حدث حدث فى أسرته، فتحولت عن مدينتها التى نشأ فيهــا

---

(١) الكليات (الآن) .

الصبى إلى أعلى الإقليم أول الأمر، فأقامت فيه عاما أو عـامين ثـم تحولت بعد ذلك إلى أقصى الصعيد، فأقامت فيه أعواما طوالا. وكـان صاحبنا شديد الحزن على مدينته القديمة، شديد الضيق بهذه الأمـاكن الجديدة التى لا عهد له بها ، والتى لم يكن يستطيع أن يذهب فيها عـن يمين أو شمال . ولكنه اطمأن أخيرا إلى مدينته تلك فى أقصى الصعيد حتى ألفها أشد الإلف وكلف بها أعظم الكلف، وأصبحت له وطنا ثانيا، مع أن زياراته الأولى لهذه المدينة قد آذته وشقت عليه.

ذهب إليها مع الأسرة كلها لزيارة أبيه الشيخ ، وكان قد بدأ عمله فيها وحيدا، فلما دبر أمره واستقر به المقام دعا الأسرة إلى أن تنتقـل إليه ، وصادف ذلك إجازة الصيف ، فانتقلت الأسرة ومعهـا الفتـى، ركبت القطار منتصف الليل، وبلغت تلك المدينة فى الساعة الرابعة من غد . وكانت المدينة جديدة، وكان القطار لا يقف فيها إلا دقيقة واحدة . وكانت الأسرة ضخمة يقودها أكبر أبنائها، وفيها النسـاء والأطفـال، ومعها متاع ضخم عظيم . فلما دنا القطار من المحطـة أقبـل كبـار الأسرة على النساء والأطفال والمتاع يقربون ذلك كله من باب العربة حتى إذا وقف القطار دفعوا ذلك كله إلى الأرض ثم تواثبوا من ورائه، ومضى القطار ولم ينسوا فيه إلا أخاهم الضرير .

وقد ذعر الفتى حين رأى نفسه وحيدا عاجزا عن أن يقضى فـى أمره بشئ ولكن جماعة من السفر رأوا عجزه وحيرتـه فرفقـوا بـه

وجعلوا يهدئونه. حتى إذا وقف القطار فى أول محطة أنزلوه وأسلموه إلى صاحب التلغراف وعادوا إلى قطارهم ٠

وقد عرف الفتى بعد ذلك أن الأسرة بلغت دارها فى مدينتها الجديدة، فجعلت تزور الدار وتتفقد حجراتها وغرفاتها، وتقر كل شئ فى مكانه ، ثم أقبل الشيخ عليها فجلس يتحدث إلى هذا وذاك من أبنائه وإلى هذه وتلك من بناته ٠

ثم جرى عرضا ذكر الفتى بعد أن مضى على وصول الأسرة وقت غير قصير فلما سمع الشيخ اسم الفتى ارتاع وارتاعت أمه وارتاع أخوته، وهرول الشباب منهم إلى مكتب التلغراف، ولكنهم لم يبلغوه حتى وجدوا النبأ بأن أخاهم فى المحطة المجاورة ينتظر من يأتى ليرده إليهم. فأرسلوا إليه من جاء به ردفا على ظهر بغلة كانت تسعى هادئة مرة مهملجة به مرة أخرى، فتضيف إلى قلبه فرقا إلى فرق وذعرا إلى ذعر ٠

ولم ينس الفتى قط مجلسه عند صاحب التلغراف ، وكان شابا نشيطا كثير الضحك كثير المزاح، وقد اجتمع إليه جماعة من موظفى المحطة، فلما رأوا عنده هذا الفتى أنكروه ثم عرفوا أمره، فأظهروا العطف عليه والرقة له . وقد رأوا شيخا ضريرا، فما شكوا فى أنه يحسن قراءة القرآن أو يحسن الغناء. وهم يطلبون إليه أن يغنى لهم شيئا. فإذا أقسم لهم أنه لا يحسن الغناء طلبوا إليه أن يقرأ لهم شيئا من القرآن . فإذا أقسم لهم أنه لا يحسن التصويت بالقرآن ألحوا عيه وأبوا

إلا أن يسمعوه . واضطر الفتى إلى أن يقــرأ القــرآن خجــلا وجــلا مستحييا ضيقا بالحياة لاعنا للأيام، وإذا صوته يحتبس فى حلقــه، وإذا الدموع تنهمر على خديه وإذا القوم يرفقون بــه وينصــرفون عنــه، ويتركونه وحيدا أو كالوحيد حتى يأتى من يرده إلى أسرته.

آذت هذه القصة الفتى فى نفسه، ولكنها على ذلك لم تبغض إليــه المدينة الجديدة ، ولم تزهده فى زيارتها ، وإنما أحبها وجعلــت نفســه تشتاق إليها أشد الشوق كلما دنا الصيف، وإن كان الحر فيها شــديدا لا يطاق[1].

وننتقل إلى الجزء الثالث الذى واصل فيه طه حسين حديثه عــن تعليمه بالجامعة التى ظفر منها بالدكتوراه ثم أفاض فى الحــديث عــن رحلته إلى فرنسا وإقامته فى مدينة (مونبلييه) أولا . وقد قال :

"واستقبل الفتى حياته فى مدينة (مونبلييه) سعيدا إلى أقصى مــا تبلغ السعادة ، راضيا عنها كأحسن ما يكون الرضا . فقد حقق أملا لم يكن يقدر أنه سيحققه فى يوم من الأيام .

وكان يكفيه أن يفكر فى صباه ذلك البائس الذى قضاه مترددا بين الأزهر وحوش عطا، تشقى نفسه فى الأزهر، ويشقى جسمه ونفسه فى حوش عطا، حياة مادية ضيقة عسيرة كأقسى ما يكون الضيق والعسر، وحياة عقلية مجدبة فقيرة كأشد ما يكــون الإجــداب والفقــر، ونفــس مضيعة بين عسر الحياة المادية وفقر الحياة المعنوية، ثم يوازن بــين

---

(١) الأيام جــ٢ ص١٧٦ وما بعدها .

حياته تلك وبين الحياة الجديدة التى أخذ يحياهـا فـى هـذه المدينـة الفرنسية، لا يحس جوعا ولا حرمانا، يحمل إليه فطـوره إذا أصـبح ناعما لينا لا خشونة فيه ولا غلظ . فإذا جاءت أوقات الطعـام وسـط النهار وفى آخره، وجد فى اختلاف الأنواع وتنوعها ما يذكره بطعامه ذاك المتشابه حين كان يغمس خبزه فى عسله ذاك الأسـود مصـبحا ممسيا، وحين كان يحب أن يتخفف من طعامه ذاك أحيانا ويخالف عن حلاوته البغيضة إلى شئ آخر، فلا يجد إلا ذلك الطعام الغلـيظ الـذى كان الأزهريون يعيشون عليه فى تلك الأيام. فإذا أحب أن يتفكه فـلا منصرف له عن البليلة فى الصباح والتين الغارق فى المـاء إذا كـان المساء أو الضحى. وأين ذلك الطعام الغليظ من هذه الألوان المترفـة الرقيقة التى كانت تعرض عليه فى غذائه وعشائه فى غير تقتيـر ولا تضييق، وفى كثير من إلحاح الخدم وأصحاب الفنـدق عليـه فـى أن يصيب منها أكثر مما أصاب ٠

ويذهب إلى الجامعة فيسمع فيها ما شاء الله أن يسمع من دروس الأدب والتاريخ واللغة الفرنسية، لا يسمع درسا إلا أحس أنه قد علم ما لم يكن يعلم وأضاف إلى علمه القديم علما جديدا ، وهو على قلة حظه من إحسان اللغة الفرنسية لم يكن يجد كثيرا من المشقة، ولا يبذل كثيرا من الجهد ، ليفهم ما كان الأساتذة يلقون مـن الـدرس فهمـا يغنيـه ويرضيه . كان الفتى يوازن بين حياته هذه الجديدة وحياته تلك القديمة، ويقيس ما بينهما من الفرق العظيم ، فيرى نفسه أسعد الناس وأعظمهم حظا من النجاح والتوفيق، وهو مع ذلك لم يكـن ميسـرا عليـه فـى

الرزق، وإنما كان عليه أن يدبر مرتبه ذاك الذى لم يكن يتجاوز اثنى عشر جنيها لينفق منه على نفسه وعلى أخيه، وقد تهيأ له ما أراد من ذلك فى غير تكلف ولا عناء. كانت الحياة الفرنسية فى تلك الأيام هينة ميسرة، تتيح لفتيين أجنبيين مثله ومثل أخيه أن يعيشا بهذا المرتب الضئيل عيشة راضية حين تقاس إلى ما كانا يلقيان فى مصر من قسوة الحياة وشظفها"[١]

ثم تحدث فى هذا الجزء أيضا عن عودته إلى مصر ، ورجوعه إلى فرنسا، وإقامته فى باريس ، ودروسه بالسوربون، وقصة حبه لفتاة فرنسية وهى التى أصبحت زوجة له ، وقد أشاد بها وقال إنه أبصر بعينيها، ولولا خوف الإطالة لذكرت نبذا أخرى مما قاله عنها ٠

وأكاد أعتقد أن اقتطاع أجزاء صغيرة أو كبيرة من أيام طه حسين المكتوبة وتقديمها للقارئ غير مرض لى بل ربما للقارئ أيضا، كما أنه من الصعب وصف هذه الأيام وتحليلها لأن اللغة التى نستعملها، ونقدم بها النص المكتوب أضعف بكثير من النص نفسه، وهنا يشعر القارئ بالفجوة ، ولكنى أخلص من ذلك وأحيله إلى الأيام ليقرأها إن شاء ، ولكنى أذكره ببعض الملامح الأسلوبية التى ربما غفل عنها ولم يتنبه لها وهو فى نشوة قراءته واستمتاعه بطريقة طه حسين فى الكتابة والعرض والتصوير٠

فلقد وفر لأسلوبه كل ما يستطيع من جمال صوتى حتى يبدو متموجا زاخرا بالنغم، وربما كان التأثير الموسيقى النابع من هذا النثر

الفنى الجميل راجعا إلى مقدرة الكاتب فى إعادة الألفاظ وتكرارها متى شاء من غير أن يدرك القارئ تكلفـا أو اصـطناعا منفـرا، وصـار الأسلوب بهذه الخاصية شيئا أو جزءا من الكاتب نفسـه يسـتعمله إذا حاضر أو أملى، وتأكيدا لذلك نلحظ أسلوبه لم يتغير فى سـائر كتبـه طريقة وتعبيرا، وإن كان فى الأيام أروعها صدقا وتصويرا٠

المقال

ليس المقال جديدا على الأدب واللغة فى العصر الحديث من حيث المعنى اللفظى، فالكلمة مأخوذة من مادة (قال)؛ ولذلك نراها مستعملة فى الأدب العربى القديم شعره ونثره على السواء، فقد قال النابغة الذبيانى :

أتانى _أبيت اللعن_ أنك لمتنى ∴ وتلك التى تستك من المسامع

مقالة أن قد قلت سوف أناله ∴ وذلك من تلقاء مثلك رائع

وقال حسان بن ثابت:

ما أن قد مدحت محمدا بمقالتى ∴ لكن مدحت مقالتى بمحمد

وقال كعب بن زهير ــ أو غيره:

مقالة السوء إلى أهلها ∴ أسرعُ من منحدر سائل

ومن دعا الناس إلى ذمِّه ∴ ذموه بالحق وبالباطلِ

كما وردت فى خطبة الرسول ﷺ فى حجة الوداع إذ قال : "نصر الله امرأ سمع مقالتى فحفظها ووعاها وأدها" .

وقال مروان بن أبى حفصة :

هل تطمسون من السماء نجومها ∴ بأكفكم أم تسترون هلالها

أم تجحدون مقالةً عن ربكم ∴ جبريلُ بلغها النبى فقالها

وقال منذر بن سعيد (أندلسى) :

مقالة كحد السيف وسط المحافل .:. فرقت به ما بين حـق وباطـل

وقالوا: "لكل مقام مقال" ٠

ولكن هذا الاستعمال للكلمة لم يكن يراد منه إلا المعنى اللفظـى، أما المدلول الفنى أو الاصطلاحى فقد اختلف النقاد والباحثون حوله اختلافا كبيرا، لأن كل واحد يصبغ رؤيته لهذا الفن صبغة خاصة به ، فأى تعريف أو بيان له يميل إلى الذاتية أو الخصوصية، كما أن المقال فن، والفنون تأبى التقييد والتحديد ، ومن هنا كان الاتفاق على تعريف واحد محدد أمرا صعبا ٠

وقد هالنى أن أجد كل من كتب فى هذا اللون يورد العديد من التعريفات لأدباء ونقاد من الشرق والغرب، مع أنهم يقررون ابتداء استحالة وجود تعريف متفق عليه ٠

وقد نقلوا كل هذه التعريفات عن دوائر المعارف والمعاجم اللغوية، وعن الأدباء المعاصرين فى الغرب والشرق، بل إن الكثير منهم قد اعتمد على ما كتبه محمد يوسف نجم فى كتابه (فن المقالة)٠

وأثبتوا تعريفات لجونسون وبيكون وموروى وأدموندجوس وقاموس اكسفورد، ودائرة المعارف البريطانية، ومعجم لاروس والقاموس المحيط، ولسان العرب، والمعجم الوسيط، ومحمد يوسف نجم، وعباس محمود، العقاد، وزكى نجيب محمود، وأحمد الشايب،

ومحمد عوض محمد، وعبداللطيف حمزة ، وعمر الدسوقى، وسيد قطب، وغيرهم كثيرون ٠

إن المقال لا يحتاج إلى تعريف محفوظ أو مكرر يتناقله الناس ويكرره الكاتبون، حيث إن هذا اللون ذائع مشهور، يراه القراء من تلقاء أنفسهم ويتعرفون عليه فى الصحف والمجلات العربية والأجنبية ولا يمكن تحديده ، لأنه متنوع من حيث المضمون والشكل، أو القالب الذى يصاغ به، وحتى لو ارتضينا تعريفا من عند أنفسنا، أو اخترنا تحديدا آخر له فإن هذا الاختيار أو ذلك الارتضاء لن يشمل كل الألوان المقالية التى تزيد فى ساحة الأدب والفن والصحافة يوما بعد يوم، ولنكتف بأخصر ما قيل فى بيان المقال وهو التعريف الذى جاء بالمعجم الوسيط فى مادة (قال) وهو أنه : "بحث قصير فى العلم أو الأدب أو السياسة أو الاجتماع، ينشر فى صحيفة أو مجلة"[١]٠

وهذا الاستعمال للمقال فى العصر الحديث لم يكن موجودا عند العرب قديما، ولعل أول استعمال لكلمة مقال بهذا المدلول قد ظهرت للناس عندما نشر (مونتين) مقالاته فى عام ١٥٨٠م٠

أما فى الساحة العربية فقد عرف بهذه الصورة الحديثة فى القرن التاسع عشر الميلادى من خلال الطباعة والصحافة، ثم أخذ ينمو ويزدهر، ويعالج العديد من القضايا والآراء إلى أن وصل إلى ما هو عليه الآن ٠

---

(١) المعجم الوسيط جـ٢ صـ٧٦٧ ٠

وقد ارتبطت شهرة المقال وتطوره بسبب الطباعة ذلك أن بداياته فى التراث العربى كانت ذا نمط بحثى معرفى يخاطب طبقة واحدة أو طبقات محددة، ولم يكن قراؤه بالقدر الذى هم عليه الآن ، فلما ظهرت الصحافة وأصبح هذا اللون يخاطب الأمة على اختلاف طبقاتها، ويعالج قضاياها فى أسلوب سهل بسيط زادت أنماطه ، وتنوعت أغراضه، وتحلل من القيود التى كان القدماء يتمسكون بها، وصار هم الكاتب أن يقبل الناس على قراءة مقالاته .

وأصبح الآن مختلفا غاية الاختلاف، عما كان عليه منذ مائتى سنة فى مرحلة مارس فيها الكاتبون كثيرا من التجريب والتطور والإبداع.

ألوان المقال

صار المقال فى العصر الحاضــر ذا ألـــوان متعـــددة ، حســـب الموضوع، وطبقا للجهة التـــى ينشـــر فيهـــا، والقـــراء المقـــدم لهـــم والاعتبارات الأخرى، التى يعرفها المتخصصون فى كتابة هذا الفـــن الأدبى المشهور ، ومن أشهر أنواع المقال :

١- المقال الدينى :

يهدف هذا اللون إلى نشر الثقافة الدينية ، وإلى التعريف بتعـــاليم الإسلام مع حرص الكتاب على اختيار الموضـــوعات التـــى تشـــغل الأذهان، وتؤلف بين القلوب مع حسن العرض وروعة البيـــان، ومـــن أمثلة ذلك مقالات الشيخ محمد عبده قديما ومقالات عدد مـــن الكتـــاب حديثا، نذكر منهم الكاتب الإسلامى أحمد بهجت الذى كتب فى مجلـــة (المسلمون) مقالا قصيرا بعنوان (الأمراء) قال فيه[١] : (من كرامـــات الحب أنه يستطيع أن يستخرج من قلب الإنسان أفضل مـــا فيـــه مـــن مشاعر.

بل إن الحب الحقيقى يستطيع أن يصهر صدأ القلـــوب، ويـــوقظ داخلها الأمير النائم . وإنى لأحسب هذه الحقيقة لا تنطبق على شئ كما تنطبق على نفسى وأنا فى مكة" ، "إننى أحس هناك أننى قـــد عثـــرت على نفسى أخيرا، وأن الأمير النائم داخلى استيقظ، وصار هو الحـــاكم المتصرف بعدالته وسعة قلبه وإنسانيته.

---

(١) المسلمون العدد ٣١ بتاريخ السبت ٢٢/ ١٢/ ١٤٠٥هـــ ـــ (٧/ ٩/ ١٩٨٥م)

إن مجرد الاقتراب من مكة يفجر فى نفس الإنسان ينبوعـا مـن الفرج الداخلى الصافى، ويحول الإنسان إلى الكرامة التى أرادها له الله ورضيها له النبى ﷺ ، ومن هنا يجئ هذا المخاض المـدهش للأميـر داخل الإنسان .

نعم .... إن مجرد وجود الإنسان فى مكة يحوله إلى أميـر ، وعلى هذا الأمير أن يدرك أن الشرف الذى ناله ينبع من وجوده فـى أرض حرام قدسها الله تعالى، أرض تضاعف فيهـا الحسـنات كمـا تضاعف الذنوب . أرض يشترط فيمن يزورها أن يدرك أنه يطأ طرقا سار عليها من قبله إبراهيم الخليل عليه السـلام، وسـار مـن بعـده إسماعيل الكريم عليه السلام . وسار عليها من بعده خير خلق النبيـين عليه أفضل الصلاة والسلام .

إن المرء يحاذر هنا ويخفف الوطء ، ومع الوقت ينغرس داخـل القلب إحساس بمعنى الإمارة .

إن الأمير هو الأمين، والإمارة فى نهاية الأمر هى القدرة علـى حمل الأمانة أو حمل المسؤولية.

ولقد عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها ، وأشفقن منها وحملها الإنسان، ظلم نفسـه بحملهـا، وجهـل قدرها. ولكن الأمراء السائرين فى طرقات مكة يعرفـون قـدر هـذه الأمانة ويحسون أثرها" "أليس مدهشا أن تضم مكة كل عام فى الحـج ملايين، ثم لا يقع حادث واحد لمشاجرة أو تصادم أو مشاكل مـن أى

لون . أليس هذا دليلا على أن هؤلاء الملايين قد تحولوا إلـــى أمـــراء لمجرد وجودهم فى مكة) ، وقد اشتمل هذا المقال فى بنائه على ثلاثـــة أعمدة ، المقدمة والموضوع والخاتمة، وقد وضعت كـــل قســـم بـــين قوسين صغيرين ليفهم القارئ ما أعنيه ٠

المقال السياسى :

قرأنا كيف تحولت الكتابات السياسية إلـــى بـــراكين ثـــائرة فـــى عصور القهر والاحتلال، وقد نفى أو حبس كثير من الكتـــاب بســـبب مقالاتهم الملتهبة وثوراتهم العارمة ضد قوى الغدر والطغيـــان ، ففـــى هذا اللون يعمد الكتاب إلى إبداء الآراء حول علاقة وطنهم بغيره مـــن البلدان وحول الأحزاب السياسية وذلك فى البلدان التى يوجد فيها هـــذا النمط السياسى، إلى غير ذلك من الموضوعات التى تشغل بال الكتاب والقراء سواء بسواء٠

ولا ننسى مقالات مصطفى كامل قديما ومصطفى أمـــين حـــديثا، وغيرهما كثيرون ٠

المقال الأدبى :

يمثل هذا اللون من المقال ما كتبه الدكتور طه حســـين وعبـــاس العقاد وإبراهيم المازنى ومحمد حسين هيكل وغيـــرهم ممـــن شـــغلوا الساحة الأدبية بمقالاتهم المضيئة سواء أكانت فى مجال النقـــد أم فـــى مجال التراجم الأدبية الذاتية منها وغير الذاتية، أو فى مجال وصـــف الطبيعة أو البيئة التى يشاهدونها ويعيشون بين ربوعها ٠

ومن خلال هذا اللون الأدبى كتب الدكتور محمد حسين هيكل مقالا بعنوان (الأدب القومى) فقال[١] : "دارت مناقشات ذات شأن فى مسألة القديم والحديث فى اللغة وكان الجدل حادا بين أنصار كل من المذهبين، وكان مداره على الألفاظ والعبارات التى يجب اعتبارها صالحة فى الكتابة. فأما أنصار القديم فكان مذهبهم أن اللغة العربية وما وصلت إليه حين مجد العرب وسلطتهم قد وسعت كل الصور والمعانى والآراء . وأن ما يذهب إليه المجددون فى اللغة إنما يقوم على أساس من جهلهم إياها أو انصرافهم عنها، وأنهم لو كلفوا أنفسهم مؤونة الحرص على عبارات القدماء وألفاظهم لما ضاقت بهم عن كل معنى يريدونه لابسا أبهى ثوب وأجمله. أما أنصار الحديث فكان مذهبهم أن اللغة قد وقفت عند عصر بعيد ، وأن تطور الحياة وتقدمها قد سبق هذا العصر بما لا تلحقه عبارات القدماء وألفاظهم ، فمن الحق أن يأخذ الكتاب من اللغة بجديد يحتمل ما بلغته الحياة من تطور وتقدم"٠

المقال الاجتماعى:

هو اللون الذى يستعرض فيه الكاتب مشكلات مجتمعه، ويحاول بأسلوبه وبقدراته البيانية والفكرية إيجاد الحلول لها مع الترغيب فيها والدعوة إليها، وكتاب هذا اللون فى عصرنا كثرة كثيرة، وكم قرأنا من المقالات الاجتماعية التى نهض بها أدباؤنا ومفكرونا بعد الحرب

---

(١) د. محمد حسين هيكل ــ فى أوقات الفراغ ــ مكتبة النهضة المصرية ص٣٤٤ ٠

العالمية الأولى كمقالات أحمد لطفى السيد، وأحمد أمين، وأحمد حسن الزيات.

وينبغى أن يكون معلوما أنه ليس بالضرورة أن يلزم الكاتب لونا واحدا من المقال يكتب فيه ولا يتعداه إلى غيره، فلم نعثر على كاتب واحد متخصص فى كتابة المقال الاجتماعى مثلا وآخر متخصصا فى كتابة المقال الدينى فقط فأغلب الكتاب يصولون ويجولون بأقلامهم بين أكثر هذه الألوان التى عرضنا لها وبين الألوان الأخرى الكثيرة التى لم نذكرها مكتفين بما سبق ذكره.

خصائص المقال :

وعن خصائص المقال يقول الدكتور عزالدين إسماعيل[1]: (فالمقال ليس حشدا من المعلومات، وليس كل هدفه أن ينقل المعرفة، بل لابد إلى جانب ذلك أن يكون مشوقا. ولا يكون المقال كذلك حتى يعطينا من شخصية الكاتب بمقدار ما يعطينا من الموضوع ذاته. فشخصية الكاتب لابد أن تبرز فى مقالة لا فى أسلوبه فحسب، بل فى طريقة تناوله للموضوع ، وعرضه إياه ثم فى العنصر الذاتى الذى يضيفه الكاتب من خبرته الشخصية وممارسته للحياة العامة).

ولابد إذن أن يتميز المقال بالقصر، وأن يشمل كل الحقائق والأفكار المتصلة بموضوعه، وأن يقدمها المؤلف إلى قرائه بطريقة مشوقة مع الحرص على اختيار المادة المتصلة به. ويحسن أن يحدد

---

(١) الأدب وفنونه ــ ص٢٨٩ .

الكاتب موضوع مقاله قبل الكتابة، ومنذ أن كان فكـرة فـى رأسـه، ويستمر فى تغذيتها بتجاربه وملاحظاته وخبراته الشخصـية قبـل أن يأخذ المقال صورته النهائية. ولابد أن يحرص الكاتـب علـى جـلاء الفكرة ونضارتها وتماسكها وامتاع القارئ بحسن عرضـها وجمـال صياغتها. ويحسن أن يكون المقال خاليا من الكلمات النابية والعبارات الغائمة والجمل المتناقضة ، وأن يشتمل علـى الحكايـات القصصـية المشوقة والأمثلة والتجارب الشخصية إلـى جانـب العنايـة بالمـادة التحصيلية التى يستوى بها المقال وتنتظم سطوره وهيئته .

بناء المقال :

كان الكتاب إلى وقت قريب يحرصون فى بنائهم للمقال أن يشتمل على ثلاث لبنات وهى المقدمة والموضوع والخاتمة على أن الكثيـرين منهم تحللوا من هذا البناء التركيبى وأصبحوا الآن بموجـب السـرعة وضيق المساحة المتاحة فى الصحيفة أو المجلة ولطبيعة العصر أيضا التى لا تميل إلى التقديم والعرض وتلخيص الموضوع فـى الخاتمـة يبدأون بالموضوع ومن الأفضل على كل حال أن يشتمل المقال علـى هذه العناصر الثلاثة :

١ – المقدمة وفيها ينهض الكاتب بالتمهيد لموضوعه حتى يتهيأ القارئ له، ويحسن أن يكون الأسلوب فيها سـهلا جـذابا، والمعنـى متصلا بالموضوع . وألا تسرف فى الطول وتمعن فى القصر، وذلـك حتى تتناسق مع الموضوع وتلائمه، وإذا وفق الكاتب فى المقدمة كـان

ذلك عونا للقارئ على تفهم الموضوع الذى سيطرح عليه بعد أن تهيأ ذهنه له، وانصرف إليه بكل حواسه ٠

ففى مقال لجبران خليل جبران بعنوان (بين الحقيقة والخيال) من كتاب دمعة وابتسامة كتب يقول فى مقدمته[١]: (تحملنا الحياة من مكان إلى مكان، وتنتقل بنا التقادير من محيط إلى آخر، ونحن لا نرى إلا ما وقف عثرة فى سبيل سيرنا ولا نسمع سوى صوت يخيفنا ..)٠

ففى هذه الفقرة استطاع جبران أن يشد ذهن القارئ ، وأن يهيئة للموضوع الذى سوف يعرض له فى جملة بسيطة وكلمات عذبة لا يشكو القارئ فيها نبوا أو نتوءا ٠

وقد تأتى المقدمة فى صورة سؤال يطرحه الكاتب كصنيع جبران فى مقال له عن الكمال إذ قال فى أوله: تسألنى يا أخى متى يصير الإنسان كاملا فاسمع جوابى ... المقال. وكانت مقالات هيكل لا تخلو من مقدمات وقد كان يكثر منها بشكل مثير ولافت للنظر وأحيانا تكون المقدمة لا صلة لها بالموضوع وفى دراسة عنه قال صاحبها[٢]: (أول ما يلاحظ على مقالات هيكل بشكل لافت هو كثرة المقدمات، بل إنها تأخذ صورة متواترة فى جل المقالات إن لم يكن فى كلها، وهذه المقدمات تجدها فى المقال الأدبى والسياسى على حد سواء، بل نجدها أحيانا فى قصة القصيرة ... ولا ريب فى أن دراسة القانون وممارسة

---

(١) جبران خليل جبران ــ المجموعة الكاملة لمؤلفاته ــ ص٢٨٠ ٠

(٢) الدكتور : محمد حسين هيكل لطه عمران وادى ــ مكتبة النهضة المصرية ــ ص١٦٥ ٠

المحاماة ومعالجة البحث العلمى لها أثر كبير فى ذلك، فالقانونى لا يستطيع أن يصدر حكمه على النتيجة دون أن يبرز مقدماتها وأسبابها).

٢ - الموضوع وهو لب المقال، والذى يقصد إليه الكاتب، وهو القالب الذى يعالج فيه أفكار الموضوع على أن يتم ذلك فى تنظيم وتنسيق فكرى، ولعل القارئ يلاحظ دور الموضوع عندما نعرض لما كتبه جبران تحت العنوان السابق وهو (بين الحقيقة والخيال) حيث قال: (يتجلى لنا الجمال على كرسى مجده فنقترب منه وباسم الشوق ندنس أذياله ونخلع عنه تاج طهره ، يمر بنا الحب مكتسيا ثوب الوداعة فنخافه ونختبئ فى مغاور الظلمة أو نتبعه ونفعل باسمه الشرور، والحكيم بيننا يحمله نيرا ثقيلا وهو ألطف من أنفاس الأزهار وأرق من نسيمات لبنان. تقف الحكمة فى منعطفات الشوارع وتنادينا على رؤوس الأشهاد فنحسبها بطلا ونحتقر متبعها[1] .

تدعونا الحرية إلى مائدتها لنلتذ بخمرها وأطعمتها فنذهب ونشره، فتصير تلك المائدة مسرحا للابتذال ومجالا لاحتقار الذات. تمجد الطبيعة نحونا يد الولاء وتطلب منا أن نتمتع بجمالها فنخشى سكينتها ونلتجئ إلى المدينة وهناك نتكاثر بعضنا على بعض كقطيع رأى ذئبا خاطفا. تزورنا الحقيقة منقادة بابتسامة طفل أو قبلة محبوبة فنوصد دونها أبواب عواطفنا، ونغادرها كمجرم دنس ، القلب البشرى يستنجد

---

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات جبران خليل جبران ص٢٨٠ .

بنا والنفس تنادينا ونحن أشد صمما من الجماد لا نعى ولا نفهـم ، وإذا ما سمع أحد صراخ قلبه ونداء نفسه قلنا هذا ذو جنـة وتبرأنـا منـه) وربما كان فى قراءة هذا الموضوع ما يكشف لنا بجلاء عـن مـذهب جبران فى الأدب والحياة، ويكشف أيضا عن أسلوبه الشفاف وألفاظـه الرقيقة المنسابة التى تتلائم مع الصياغة الأدبية التى مثلنا لها بكتابـات هذا الشاعر الكاتب الذى غمس ريشته فى أرض الحقيقة ورومانسـية الخيال.

٣ – الخاتمة : وهى التى يعمد فيهـا الكاتـب إلـى تلخـيص موضوعه وجمع أفكاره، وتحديد مراده، ولابد أن ينتهى فيها الكاتـب (غالبا) إلى نتيجة محددة فى الموضوع الذى يعالجه على أن يلزم نفسه بها، ويدفعها إلى القارئ بأسلوب عقلى وجدانى وعندما يدرك الكاتـب أهمية النتائج التى يصل إليها ويقتنع بضرورتها بالنسبة إلـى القـارئ عند ذلك يتأكد أن كتاباته قد أصـبحت هادفـة ومـؤثرة وذات قيمـة وأهمية.

وتطول الخاتمة إذا كان المقال بحثا طويلا، وتصـغر أيضـا إذا تضاءل حجم المقال على أن هذه المقاييس ليست لها ضوابط ثابتة بـل تخضع لخبرة الكتاب غالبا، ولنرجع إلى خاتمة المقـال الـذى ذكرنـا موضوعه وهو لجبران خليل جبران حيث قال: (هكـذا تمـر الليـالى ونحن غافلون، وتصافحنا الأيام ونحن خائفون مـن الليـالى والأيـام.

نقترب من التراب والآلهة تنتمى إلينا، ونمر على خبز الحياة والمجاعة تتغذى من قوانا فما أحب الحياة إلينا وما أبعدنا عن الحياة!)٠

وقد أحببت أن أقسم هذا المقال وأفصل بين أجزائه ليقف القــارئ على كل جزء ويتعرف على دوره ووظيفته فى المقال مكتملا٠

وكما ذكرت أولا أذكر أخيرا أن بعض الكتاب إن لم يكن أكثرهم فى الوقت الحاضر لا يميلون إلى ذلك التقسيم، ويعرضون لموضـــوع مقالهم مباشرة من غير مقدمة أو خاتمة، وكأنهم بذلك يعبـــرون عـــن روح العصر الذى نعيش فيه على أن ذلك يرجع إلى الكاتب نفسه وإلى طريقته فى التعبير والأداء٠

كتب للمؤلف

١ - شعر الحماسة فى العصر العباسى الثانى.............. ١٩٨٤

٢ - ياقوت الحموى أديبا وناقدا................... ١٩٨٨

٣ - امرؤ القيس بين القدماء والمحدثين......................... ١٩٨٩

٤ - الغموض فى شعر أبى تمام........................ ١٩٨٩

٥ - شعراء الطائف فى الجاهلية والإسلام.................... ١٩٨٩

٦ - فن الرواية فى المملكة العربية السعودية بين النشأة والتطور (الطبعة الأولى)............... ١٩٨٩

٧ - من روائع الأدب العربى فى العصرين العباسى الثانى والأندلسى ١٩٩٠

٨ - من روائع الأدب العربى فى العصرين الأموى والعباسى الأول ١٩٩١

٩ - أوزان الشعر ــ دراسة فى العروض والقافية......... ١٩٩٤

١٠ - فن الرواية فى المملكة العربية السعودية بين النشأة والتطور (الطبعة الثانية)................................ ١٩٩٥

١١ - دراسات فى الأدب الجاهلى............. ١٩٩٨

١٢ - أطوار الأدب العربى فى العصر الإسلامى........... ١٩٩٩

١٣ - دراسات فى الأدب الأندلسى..................... ١٩٩٩

١٤ - مناهج البحث فى الأدب واللغة والتربية............... ٢٠٠٠

تطلب الكتب المذكورة من دور الطبع والنشر الآتية :

١ – المكتبة الأزهرية للتراث بالقاهرة ٩ درب الأتراك خلف الأزهر الشريف ت ٥١٢٠٨٤ / ٠٢

٢ – مكتبة النهضة المصرية٩شارع عدلى بالقاهرة ت:٣٩٥٦٧٧١ /٠٢

٣ – مكتبة الآداب ٤٢ ميدان الأوبرا ــ القاهرة. ت ٣٩٠٠٨٦٨ /٠٢

*   *   *   *   *   *

فهرس الموضوعات

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية
٤٢٦٣ / ٢٠٠٧م
الترقيم الدولى: .I.S.B.N
977-224-523-X

مـركـز آيـات للطباعة والكمبيوتر
مساكن لكوظ - الزراعة - الزقازيق
☎ ٠١٢/٣٧٩٧٦٤٧